ك. غ. يونغ

جدلية الأنا واللاوعي

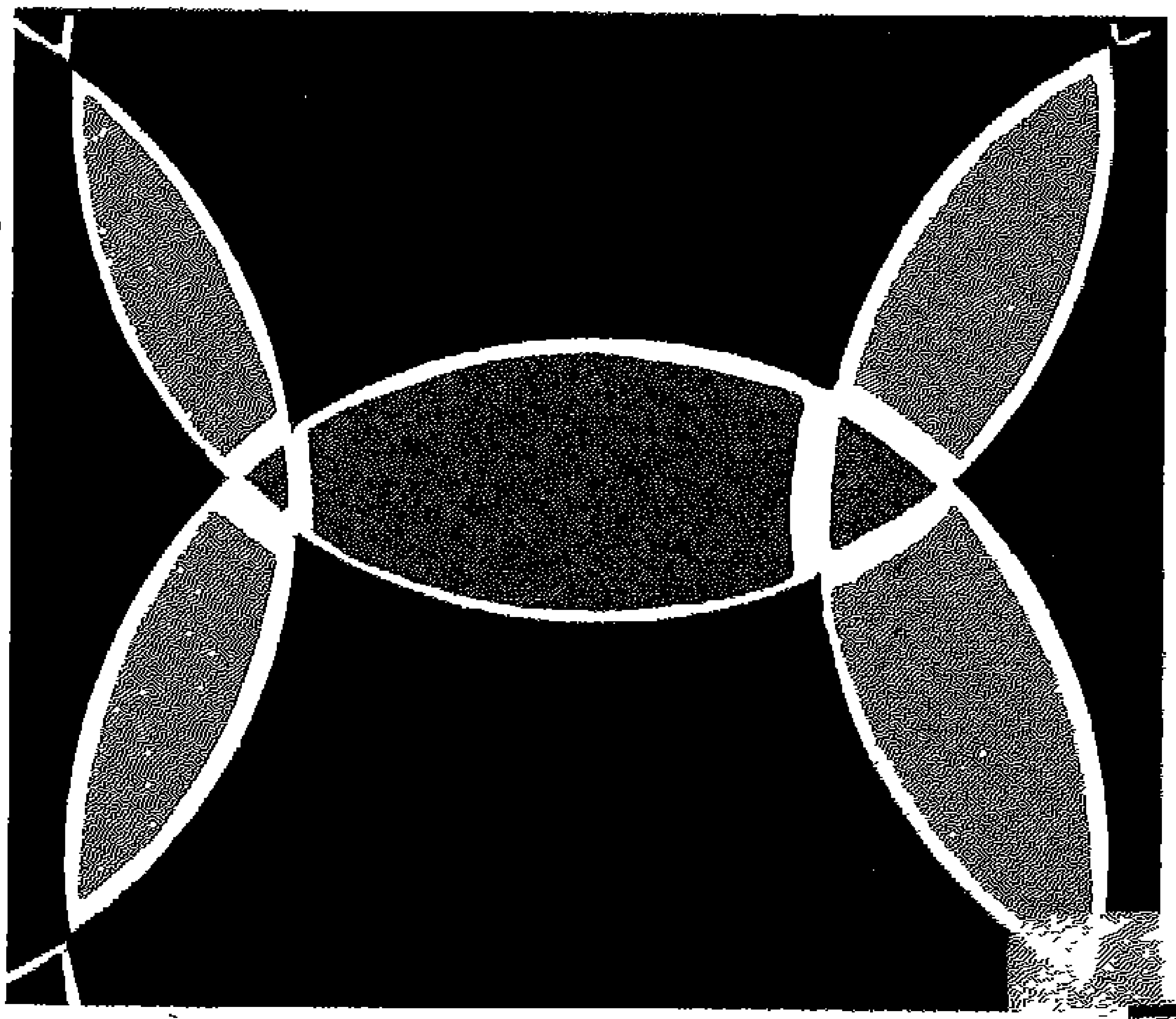

Bibliotheca Alexandrina
0182000

ترجمة: نبيل محسن

* جدلية الأنا واللاوعي
* كارل غوستاف يونغ
* ترجمة: نبيل محسن
* الطبعة الأولى 1997
* جميع الحقوق محفوظة للناشر
* الناشر:

دار الحوار للنشر والتوزيع

ص.ب 1018 ـ هاتف 422339 ـ اللاذقية ـ سورية

ك. غ. يونغ

جدلية الأنا واللاوعي

ترجمة
نبيل محسن

محتويات الكتاب

مقدمة المؤلف للطبعة الثانية باللغة الألمانية 5

الباب الأول: في تأثيرات اللاوعي على الوعي 9

الفصل الأول ـ اللاوعي الفردي واللاوعي الجماعي 11

الفصل الثاني ـ نتائج تمثل اللاوعي 33

الفصل الثالث ـ القناع، العنصر المكو ن للنفس الجماعية ... 61

الفصل الرابع ـ محاولات استخراج وتحرير الفردية من النفس الجماعية ... 71

الباب الثاني: التفرد 87

الفصل الأول ـ وظيفة اللاوعي 89

الفصل الثاني ـ الأنيما والأنيموس 111

الفصل الثالث ـ تقنيات تمايز الأنا عن صور اللاوعي 151

الفصل الرابع ـ الشخصية المانا 175

المصطلحات 197

مقدمة المؤلف

للطبعة الثانية باللغة الألمانية

وُلِدَ هذا الكتاب من محاضرة نشرتها عام 1916 بعنوان: «بنية اللاوعي». وقد صَدَرَتْ في الأعمال المجموعة لعلم النفس التحليلي.

أشير إلى ذلك لأدلّ من البداية على أن الكتاب ليس اهتماماً عابراً أو همّاً مؤقتاً ولكنه حصيلة جهود تتابعت عشرات السنين من أجل فهم ووصف الخاصة الفريدة والمسار الأصيل «للدراما الداخلية» على الأقل بملامحها الأساسية والصيرورة التي تتملك النفس اللاواعية أثناء تحولها.

إن فكرة استقلالية وتلقائية اللاوعي التي تميز مفاهيمي عن مفاهيم فرويد بشكل جذري نبتت في ذهني عام 1902 عندما كنت أدرس قصة شاب مُسَرْنِم[1] وتطوره النفسي.

وقد قاربت هذه الفكرة من زاوية أخرى في نهاية 1908 في كتاب «محتويات الذهان».

---

(1) ـ المسرنم هو الشخص الذي يمشي أثناء نومه.

وفي عام 1912 قَدَّمْتُ حالة فردية ووضعت بعض الملامح الأساسية للصيرورة التطورية وأظهرت في الوقت ذاته التوازيات التاريخية والمظاهرالعرقية لهذه العملية النفسية التي تكشف أنها عالمية.

وقد حاولت، في الكتاب المذكور أعلاه عن بنية اللاوعي والصادر عام 1916، أن أقدم تأليفاً يلخّص العملية بمجملها. وهذا ماشكل بحثاً صغيراً لم أكن مقتنعاً به تماماً بسبب نقائصه. فالصعوبات الملازمة لموضوع الدراسة لم تكن تسمح بالوصول بالأمر إلى نهايته وإعطائه حقه بعمل مقتضب. لهذا اقتصرت على ذلك العمل المؤقت مع نية حازمة بالعودة، إلى مجمل هذه الدراسة على نطاق أوسع، عندما تسنح الفرصة. وسمحت لي اثنتا عشرة سنة إضافية عام 1928 بمباشرة التحقيق بخلاصاتي ومشاهداتي لعام 1916.

وهذا العمل هو خلاصة هذه الجهود. لقد حاولت بشكل رئيسي وصف العلاقات الموجودة بين وعي الأنا والصيرورات اللاواعية. وقادني هذا الطرح بشكل خاص إلى دراسة الظواهر التي يجب أن نرى فيها تجليات لردات فعل الشخصية الواعية الخاضعة لتأثيرات منبثقة من اللاوعي. هكذا حاولت أن أقارب عالم اللاوعي والظواهر التي تدور فيه بشكل لامباشر. ويجب الإعتراف بأن هذه الأبحاث لم تصل بعد إلى نهاية مُرضية، لأن السؤال الأساسي عن طبيعة وماهية الصيرورات اللاواعية

يبقى دائما بلا جواب. ولا أستطيع مواجهة هذه المسألة دون أوسع تجربة ممكنة: لذلك أترك الإجابة للمستقبل.

وليعذرني القارئ حين أسأله أن يعتبر هذا الكتاب الصغير - إذا واظب على قراءته محاولة جادة من قِبَلي لاستكشاف مجال مجهول من مجالات التجربة الإنسانية وزرع دعائم الفكر فيه. وليس المقصود إقامة بناء فكري أو تصوري: على العكس لقد جهدت لوصف وصياغة تجارب حية ومعاشة ومركّبة لم يحدث حتى الآن أن كانت موضوع مقاربات علمية.

تنفرض النفس علينا، نحن الأطباء، من منظورنا الخبري، كمعطي لاعقلي، لذلك يكون من الصعب تحديدها بحسب القوانين القديمة، لأسباب لاهوتيه نوعاً ما.

لذا يجب ألا نفاجأ إذا واجهتنا التجربة النفسانية بشكل متكرر مع معاش أوحوادث تتناقض مع ماتجزم أنه منطقي، مما يدفع وعينا المتوافق مع العقلي بشكل رئيسي، إلى رفضها.

إن القيام بالمراقبة النفسانية بمثل هذه العقلية موقف فاشل ولاعلمي إلى حد كبير: يجب ألانستبق الطبيعة وألا نزجرها إذا كنا نرغب بالإستماع إلى همساتها حقاً.

هكذا أضع أمامكم ثماني وعشرين سنة من التجربة

---

(2) - لقد قام الأستاذ نهاد خياطه بترجمة هذا الكتاب إلي اللغة العربية وقد صدر عن دار الحوار باللاذقية 1983.

النفسانية والطب النفسي جهدت لتكثيفها وتلخيصها: لذا يحق لكتابي الصغير أن يطالب بأخذه على محمل الجد. بالطبع لم أستطع أن أكون شاملاً، يستطيع القارئ أن يجد تكملةً للفصل الأخير في كتاب «سر الزهرة الذهبية»[2] وهو كتاب نشرته مع صديقي ريتشارد ويلهلم. R.Wilhelm وإذا كنت أشير إلى هذا الكتاب فلأن الفلسفة الشرقية تهتم بالصيرورات الضمن ـ نفسية منذ قرون عديدة وبالتالي فهي تقدم لنا مادة للمقارنة ذات فائدة خاصة وقيمة لاتقدّر بالنسبة لأبحاثنا النفسانية.

كارل غوستاف C. G. Jung
تشرين الأول 1934

الباب الأول

في آثار اللاوعي على الوعي

الفصل الأول

اللاوعي الشخصي واللاوعي الجماعي

إن العناصر النفسانية التي توجد في الكائن من حيث لا يدري، والتي يشكل مجموعها ما ندعوه اللاوعي، تتألف كما نعلم، ووفقاً للنظرية الفرويدية، من الميول الطفلية وحسب. هذه الميول، نظراً لعدم توافقها مع العوامل الواعية للنفسية، تكون مكبوتة. والكبت عملية تنساب وتتأسس منذ الطفولة البدئية: فهو كالصدى الداخلي الذي يجيب على التأثير والتشريب الأخلاقيين. اللذين يمارسهما الأقارب، وهو يدوم مادامت الحياة. وبفضل التحليل تزول المكبوتات وتصبح الرغبات المكبوتة واعية.

لايحتوى اللاوعي إذاً، بحسب النظرية الفرويدية، إلا على عناصر من الشخصية تستطيع مع ذلك أن تشكل جزءاً من الوعي وهي، في الحقيقة، مانُحيت عنها وما قُمِعَتْ إلا بالتربية.

بالتأكيد، من خلال بعض وجهات النظر وبحسب الطريقة التي نقارب بها أفلاك الإنسان، نلحظ أن الميول التي تنبثق بالشكل الأبرز هي الميول الطفلية للاوعي. مع ذلك نخطئ أن ندّعي، انطلاقاً من هذه البينة الأولى، تحديد اللاوعي بكل عمومية وأن ندعي تقديره ومعايرته نهائياً: إن للاوعي مظاهر أخرى أيضاً، أبعاداً أخرى، وطرق وجود أخرى، تتسجل في فلكه ليس المحتويات المكبوتة فقط وإنما أيضاً كل المواد النفسية التي لم تبلغ، رغم أنها موجودة، القيمة والشدة اللتين تسمحان لها بعبور عتبة الوعي. والحال إنه يستحيل تفسير لماذا تبقى كل هذه العناصر تحت عتبة الوعي

بآلية الكبت وحدها. لوكان الكبت طريقة العمل الوحيدة، لوجب بإزالة المكبوتات توفير ذاكرة مدهشة للإنسان، بمنأى عن النسيان. إن الكبت، كمبدأ موجه، يحتفظ بكل أهمية ولكنه ليس الآلية الضمن ـ نفسية الوحيدة الفاعلة.

إضافة إلى المواد المكبوتة، يوجد في اللاوعي كل العناصر التي لم تعد محفوظة بتوتر نفسي كافٍ في الوعي، انزلقت من تلقاء نفسها من جديد تحت عتبته، وخاصة كل الإدراكات الحسية تحت عتبة الوعي. بالإضافة إلى ذلك، نحن نعلم، سواء من التجربة الغنية وغير القابلة للدحض أو من الاعتبارات ذات الطابع النظري، إن اللاوعي يخبئ أيضاً المواد النفسانية التي لم تكتسب بعد مستوى ومرتبة الوعي: إنها بذور المحتويات التي سيصبح بعضها لاحقاً واعياً. وأخيراً، لدينا كل حافز لافتراض أن اللاوعي لا ينحصر بأي شكل في الجمود والراحة ومرادفات اللافعل، على العكس، يمكن التفكير بأنه منشغل دائماً في خلط محتوياته وتجميعها وإعادة تجميعها.

ولن تتخذ هذه الفعالية الطبيعية والضرورية في ذاتها مظاهر استقلال أو ادعاءات تلقائية أو حتى أن تمارس منفصلة ومنقطعة كلياً عن الوعي إلا في الحالات المرضية. وبقدر ما تبقى فعالية اللاوعي داخل حدود الطبيعي، فاننا يجب أن نتمثله كمترابط مع الوعي الذي يقيم معه بشكل خاص علاقات تحويل أساسية.

غالب الظن، أن كل هذه المحتويات التي أودعها معاش فردي تسم مكتسباته ذات طبيعة شخصية. وبما أن الوجود الشخصي محدود، فإن عدد مكتسباته المودعة في اللاوعي يجب أن يكون كذلك. وهذا أدى إلى التفكير إنه يمكننا التوصل إلى امتصاص محتويات اللاوعي بالتحليل، مما جعل من الممكن وضع جردة كاملة بمحتوياته: لن يستطيع اللاوعي

عندئذ، كما ظُنَّ، إنتاج أي شئ آخر أو جديد لم يعط فرصة لوعيه، أي لا يكون الوعي قد تعرف عليه سابقاً وقبله. وإن إلتزام العقل بهذا الطريق قادنا أيضاً إلى الاستخلاص بأن الإنتاج النفسي اللاواعي يصبح مشلولاً بفعل أنه ما إن يحذف الكبت يمكننا تجنب تسرب وهبوط مستوى محتويات واعية في اللاوعي.

والحال أنه لم يتم أبداً التحقق أو تأكيد هذه التوقعات بالوقائع، وهي عملياً غير قابلة للتحقيق إلا بدرجة بسيطة، كما تظهر لنا التجربة غالباً على سبيل المثال، نحن نحض مرضانا بإصرار شديد على الاحتفاظ بالمحتويات العقلية، التي كانت سابقاً مكبوتة وأصبحت من جديد منضمة إلى الوعي بفضل التحليل، حاضرة من الآن فصاعداً في الذهن، ونطلب من كل منهم أن يمنحها، من حيث وجودها، المكان الذي يعود لها.

لكن هذه الطريقة في التصرف لا تمارس على اللاوعي التأثير المأمول وهو ما يمكننا أن نقتنع به عدة مرات في اليوم[1]: إذ يستمر اللاوعي بلا انقطاع في خلق أحلامه واستيهاماته[2] مع العلم أن هذه الأخيرة، مع تصديق النظرية الأساسية لفرويد، يجب ان تنضب بما أنه يُفترض أنها تتأثر من المكبوتات الشخصيه التي تحررت وإذا تابعنا المراقبة في الحالات المماثلة بصورة منهجية وبدون أحكام مسبقة، نكتشف سريعاً مواد تشبه بالتأكيد، من حيث الشكل، المحتويات الشخصية المصادفة سابقاً، ولكنها تظهر أيضاً مخبئة تلميحات تتجاوز المستويات الشخصية[3].

من أجل إيضاح ما سبق، إليكم مثال مريضة بقيت ذكراها لدي حية جداً: كانت تبدي عصاباً هستيرياً ذا شدة متوسطة، يقوم أساساً على ما كان يدعى حينئذ، منذ ثلاثين عاما[4]، مركباً أبوياً[5]. يراد بذلك الدلالة إلى أن علاقة فريدة وصلة غير اعتيادية تقوم بين المريضة ووالدها، تضع لها العصي في الدواليب، وهي منشأ كل أنواع العقبات على طريق نموها. لقد

عاشت على توافق ممتاز مع والدها المتوفي منذ فترة. وكانت علاقاتهما على أكثر ما يمكن من مودة وتواصلت على المستوى الوجداني بشكل خاص.

لقد لاحظت أن مثل هذه الظروف تستثير في أغلب الأحيان نمواً خاصاً للوظائف الفكرية، إذ يصبح الفكر عندئذ الوظيفة الأساسية والوظيفة المستخدمة بشكل مفضل من أجل الاتصال مع العالم والتكيف معه[6]. تلك كانت حالة مريضتنا التي باشرت دراسات في الفلسفة: كل شيء كان يحدث كما لو أن حاجتها العنيفة للمعرفة تحولت إلى رافعة عليها أن تسمح لها بتجاوز الروابط العاطفية المفرطة التي تربطها بأبيها والتحرر منها.يمكن لهكذا طريقة أن تنجح، على المستوى الجديد المؤسس بالعقل، إذا وجدت العاطفة طريقها إلى الممارسة، أي إذا أمكنها أن تصبح فاعلة، كأن تنشأ مثلاً، في إطار حياتها الجديدة، علاقة مع رجل صالح ومناسب، تكون متكافئة على الصعيد العاطفي مع تلك التي وجدت سابقاً مع الأب وتحل محلها بفعالية.

ولكن هذا الانتقال لم يتوصل إلى التأسس في حالة مريضتنا، في ظل بقاء وجدانيتنا كما لو أنها معلقة وفي توازن غير ثابت بين أبيها والماضي من جهة، ورجل جديد لايناسبها إلا بالنصف من جهة اخرى. ولأنها محتجزة في هذا الوضع، شيئاً ما مشلولة «كحمار بوريدان»[7]، أُلْفَتْ مسيرة وجودها إلى الأمام متوقفة طبعاً. وتأسس عندئذ في داخلها ذاك الانفصال الحميم المميز لكل عصاب. في مثل هذه الحالة، إن الكائن الذي يُعَدُّ طبيعياً يستطيع عموماً، بقفزة عنيفة لإرادته، أن يتحرك ويقطع بوسيلة أو أخرى سلسلة المشاعر التي تعيقه، أو أيضاً، وهذا هو الغالب، ينحدر لاشعورياً على المنحدر الزلق للاوعي، جاداً الخطى، دون أن يدرك غالباً لأي صراعات كان مسرحاً، صراعات لم يلحظ منها إلا بعض الصداعات

أو أي توعكات صحية أخرى. ولكن يكفي أي ضعف للغريزة، مهما كان خفيفاً؛ «والذي يمكن ان يعود لأسباب عديدة»، من أجل منع انتقال لاشعوري، بلا عقبات. وينجم عن ذلك مراوحة ويستغرق التقدم التطوري للحياة في صراع يلتهم الديناميات. وأن الهدوء المسطح والجمود ورتابة الوجود التي تنجم عنه هي مرادفات للعصاب. في الواقع إن توقف تطور الحياة يشكل سداً وارتداداً للطاقة النفسانية التي تفيض عندئذ في الاتجاهات الأقل توقعاً والأقل تماسكاً للوهلة الاولى: ومثالاً على ذلك يتنبه الودي بشدة مما يخلف اضطرابات عصبية في المعدة والأمعاء، أو نظير الودي ومعه القلب الذي يضطرب ويستسلم، أو تظهر أيضاً تذكرات واستيهامات مجردة ظاهرياً من أي أهمية ومع ذلك تطغى وتبدأ بغزو الوعي والاستحواذ عليه. كأن يجعل من البرغوث فيلاً... الخ.

وفي الحقيقة لا يتطلب مثل هذا الأمر إلا حافزاً خارجياً أو ظهور موضوع جديد حتى يختل التوازن ـ الكاذب والمرضى الذي يحتجز فيه المريض. وتسير الطبيعة نحو حل العقدة (بالمعنى الحرفي للكلمة) بشكل لا مباشر ولا واع من تلقاء نفسها، بفضل ما أسماه فرويد ظاهرة التحويل في الواقع، لقد أحالت مريضتنا أثناء العلاج صورة الوالد إلى الطبيب الذي جعلت منه نصف أب، ولكن مع استمراره في الوقت ذاته بان لا يكون الأب جعلت منه أيضاً مكافئاً للعاشق الذي لم تتمكن من الوصول إليه. هكذا كان الطبيب مماثلا بشكل ما للأب العاشق، وبكلمة واحدة أصبح موضوع الصراع كانت العناصر المتناقضة تجتمع فيه بشكل مجازي ولهذا جسد حينئذ في أعين مريضته حلاً شبه مثالي لصراعها

تجلب مثل هذه الظروف للطبيب، وبصورة لا إرادية، ذلك التقدير الفائق غير المفهوم تماماً من شاهد خارجي للموقف وتجعله يظهر في أعين المريض كمخلص وكإله. إن هذه الاستعارة أقل اثارة للسخرية مما تبدو

عليه. فالواقع إن تجسيد الأب والعشيق معاً في أعين كائن هو إلى حد ما عبء كبير على شخص واضح، ولن يتوصل له أحد على المدى الطويل، وبالتحديد لأن ذلك يتضمن كثير من المتطلبات المتزامنة والمتناقضة في آن. في الواقع يجب أن يكون أحدهم على الأقل نصف إله حتى يتمكن من الاضطلاع بدور مماثل دون عجز، دور يفترض منه ان يكون دائما ذلك الذي يعطي ويضحي.

إن هذا الحل المؤقت تماماً يبدو في البداية مثالياً للمريض في حالة تحويل. ولكنه يحتم أيضاً، مع الوقت توقف الحياة والمراوحة اللذين يتكشف بسرعة أنهما لايقلّان شدة وضرراً عن الصراع العصابي الأولي. بالمجموع، لم يجري حتى الآن أي شيء في اتجاه انفكاك حقيقي، ببساطة لقد انتقل الصراع، أحيل، أسقط، بما أنه شكل بطريقة أخرى موضوع ما دعيناه تحويلاً(8). على أي حال، إن تحويلاً ناجعاً يمكن أن يؤدي الى اختفاء كل المشهد العرضي للعصاب، على الأقل بصورة مؤقتة. لذلك تبين فرويد في التحويل، بصورة مشروعة تماما، عاملاً علاجياً من المرتبة الأولى. إنه ببساطة حالة مؤقتة وانتقالية ذات فأل حسن، ينبئ بإمكانية الشفاء دون أن يكون هو الشفاء بذاته(9).

بدا لي هذا الاستطراد المفصل قليلاً ضروري من أجل إيضاح مثالي: كانت مريضتي في غمرة التحويل وكانت قد بلغت الحد الأعلى للتحمل حيث التوقف والمراوحة اللذين يؤدي لهما التثبيت بدأا يصبحان مزعجين.

هكذا نصطدم بالتساؤل التالي: ماهو العمل الآن من أجل الاستمرار في السير الى الأمام؟ بالطبع كنت قد صرت في ذهن مريضتي وفي أعلى الدرجة منقذها، ولم تكن فكرة أنه قد تضطر لتركي او الإستغناء عني وهجري، تبدو لها غير ممكنة التحمل فقط بل مخيفة. ومن عادة العقل السليم أن ينادي لنجدته، في حالة مماثلة، كل الترسانة المتوفرة وكل

العبارات من نوع «عليك، الأمر بسيط جداً، ترين جيدا أنه يلزمك... لايمكنك إذاً... الخ» وحيث أن العقل السليم المعافى ليس نادراً ولاقليل الفعالية ـ لحسن الحظ، (اعلم انه يوجد بعض المتشائمين) - يمكن لتحفيز منطقي أن يطلق عند المريض، في حالة التحويل المؤرقة هذه، حماساً يدفعه لأن يقبل بفضل قرار عزوم لإرادته المخاطرة بتضحية مؤلمة. وإذا نجحت هذه العملية (والواقع أن مثل هذه العملية تنجح أحياناً)، يكون من نتيجة التضحية المحتملة أن الشخص الذي كان مريضاً يخلص فجأة وبشكل ما إلى حالة يكون فيها قد شفي عملياً. ويكون الطبيب عموما راضياً وسعيداً بهذه المعجزة الصغيرة بحيث أن مايمكن أن تثيره من اعتبارات وتحفظات نظرية تستبعد عمداً من ذهنه.

وتكون هذه الانتفاضة للعقل إصلاحاً حقيقياً بالقوة أوتكون قفزة في المجهول، وهي عندما لاتنجح، ولا تتمكن مريضتي من التصميم عليها، تجابهنا تلك المسألة الخطيرة التي يفرضها انفصال التحويل وتحاط النظرية التحليلية النفسية الفرويدية حول هذه النقطة بظلمات كبيرة. ويبدو أن هناك تسليم بإيمان غامض بالقدر: يجب أن تترتب الأشياء بطريقة أو أخرى وتدخل في النظام. «سيتوقف ذلك لوحده عندما لا يتبقى لدى المريضة مالاً» شرح لي مرة أحد الزملاء بشئ من الفجاجة، أو أن متطلبات الحياة المحتمة هي التي تجعل استمرار حالة التحويل هذه مستحيلاً. عندئذ تفرض هذه المتطلبات التضحية التي لم يعرف المريض كيف يوافق عليها بحرية. لكن ذلك يمكن أن يؤدي، بالمناسبة، إلى نكس أكثر أو أقل اكتمالاً (بالتأكيد لا يجب البحث عن وصف حالات مماثلة في الكتب التي تجعل موضوعها الوحيد تقريظ التحليل النفسي).

بالتأكيد يوجد حالات ميؤوس منها، حيث وبكل بساطة لا شئ يؤثر، وحيث كل الجهود المبذولة غير ناجحة. ولكن هناك أيضاً مرضى يجب

ألا يبقوا غارقين في ورطة التحويل التي عليهم أن يتمكنوا من الخروج منها دون مرارة ودون ما يكافئ بتر ذراع أو فخذ، أي دون تلف جزء من أنفسهم: فقلت لنفسي وفي حالة مريضتنا بالتحديد، إنه لا بد من وجود طريق واضح وممكن ولائق إنسانياً وقادر على قيادتها خارج هذا المأزق ومن هذه التجربة نحو كلية نفسها ووعيها الشامل لها. بالطبع كانت مريضتي قد استنفذت إمكاناتها المادية منذ فترة طويلة (مع افتراض أنها امتلكتها يوماً). ولكنني أحسست بفضول إلى استكشاف ومعرفة المنعطفات والمتاهات التي تنتخبها الطبيعة من أجل تشجيع انفكاك مرض للتثبيت والمراوحة الناتجين عن التحويل.

وبما أنني بعيد عن تصور امتلاك «العقل السليم» الشهير الذي يدعي بالضبط معرفة ما يجب فعله بدقة في كل موقف متميز، وبما أن مريضتي كانت في حرج لا يوازيه إلا حرجي، إقترحت عليها أن تهتم، على الأقل، بهذه الرعشات والهمسات والحركات الداخلية المتأتية من الأفلاك النفسية المنفلته من قصديتنا وادعاءاتنا امتلاك العلم الموحى به دائما: يتعلق الأمر إذا بالدرجة الأولى بإعارة الإهتمام لاحلامها ودراستها.

وتحتوي الأحلام(10) صوراً وبنىً وتتابعات أفكار لم تتشكل أبداً بمساعدة كبيرة من القصديات الواعية. إنها تنشأ تلقائياً بدون أن تساهم بها الأنا ـ الشخصية الواعية(11) وهي بالتالي تشكل وتعبر عن فعالية نفسية منفلتة من مبادرة وعسف الوعي. لذلك يكون الحلم نتاجاً طبيعياً للنفس، إنه انبثاق ممنوح على درجة عليا من الموضوعية؛ ومن حقنا إذاً أن ننتظر منه، على الأقل، إرهاصات وإشارات نسبية إلى بعض الميول الأساسية المتدخلة في الصيرورة النفسية الجارية. وإن الحياة النفسية، في صيرورتها التطورية وفي الواقع ككل صيرورة حية ليست ببساطة تلاحقاً مشروطاً بصورة سببية؛ بل هي أيضاً مسيرة موجهة نحو نهاية ما، تميل اليها؛

كذلك إن الحياة غائية، إنها تبدي مظهراً غائياً؛ لذا سيكون من حقنا منذ اللحظة أن ننتظر من الحلم، الذي ليس إلا وصفاً ذاتياً للصيرورة النفسية الحيوية، إشارات عن التواصل السببي الموضوعي من جهة، وعن الميول الغائية التي لا تقل موضوعية من جهة أخرى.

واستناداً إلى فرضية العمل هذه، بدأنا أنا ومريضتي بمراقبة أحلامها بعناية كبرى. وإن إحالة أحلامها بكليتها ليقودنا بعيداً جداً. فلنكتفي بإبراز خصائصها الرئيسية: كانت الأحلام في معظمها تتعلق بشخصية الطبيب، أي أن الممثلين كانوا بلا شك الحالة نفسها والطبيب. ولكن هذا الأخير كان نادراً ما يظهر بشكله الحقيقي: فهو مشوه جداً معظم الوقت، تارة قامته مفرطة في الطول، وتارة مسناً كهيرودس[12]، وتارة يشبه والد مريضتي فيكون عندئذ ممتزجاً مع عناصر من الطبيعة بشكل غريب كما في الحلم التالي: كان والد المريضة (الذي كان في الحقيقة قصير القامة) موجوداً معها على هضبة مغطاة بحقل من القمح. ومقارنة به، إذ كان يبدو عملاقاً، كانت الحالة صغيرة جداً. أخذها بيديه وحملها كطفلة صغيرة، ثم نفخ الهواء على السنابل واحتضنها الأب على إيقاع القمح المتماوج مع النسيم.

أفادتنا أحلام من هذا النوع بعدة أشياء: لقد تولد عندي في البداية انطباع بأن لاوعي المريضة مستمر بصورة لا تنقطع في أن يجعل مني (أباً - عاشقاً)، مما يؤكد مرة أخرى بصورة جلية، وبالشكل الأكثر صراحة، التثبيت الكارثي الذي يجب أن ينفك. ثم أنه لا تجاهل يمكننا الطبيعة فوق - البشرية الإلهية تقريباً للوالد - العاشق المذكور والتي كان لاوعيها يشير إليها بصورة خاصة تماماً، مما كان يعطي أيضاً المزيد من البروز للتقدير الفائق الذي كان التحويل يؤدي اليه. ولننهي، تساءلت ما إذا كانت المريضة لم تدرك بعد الحالة اللاواقعية الوهمية لتحويلها وما إذا كان

اللاوعي في نهاية الأمر مستمر في الاستعصاء على كل محاولات الفهم، مستمر بشكل أعمى وبكل رعونة في الجري خلف حلم مستحيل وأحمق. إن فكرة فرويد والتي بحسبها« لا يعرف اللاوعي إلا الرغبة» وفكرة شوبنهاور المتعلقة «بالارادة البدئية العمياء والضالة»، صورة نصف الإله الغنوصي الذي يعتقد أنه كامل بينما هو محدود وأعمى ويستمر في غطرسته في خلق أعمال ناقصة بشكل مثير للشفقة، كل هذه الشكوك المتشائمة كانت تحاصرني وكنت مقاداً إلى التساؤل عما إذا كان العالم والنفس لا يمتلك اساساً وجهاً سلبياً. أمام مثل هذا الاحتمال، لا يتبقى لنا إلا الركون إلى النصيحة الحكيمة «عليك، يلزمك...» تصحبها ضربة فأس جيدة تقضي نهائياً على كل هذه الاستيهامات والخيالات.

ولكن عندما استعرضت في ذهني هذه السلسلة من الأحلام وتأملت في مغزاها الممكن، تبدي لذهني معنى آخر، قلت لنفسي: من المؤكد أن الأحلام مستمرة في التنويع حول المواضيع نفسها وطرق آذاننا باستعارات معروفة جداً لنا، أنا ومريضتي. والحال أن هناك أمراً يقينياً آخر، فالمريضة تفهم بلا ريب، على الأقل في وعيها، المظهر الوهمي لتحويلها. إنها تدرك أنني أظهر في لياليها بالشكل نصف الإلهي لأب عاشق، وهي قادرة على أن تميز، على الأقل عقلياً، هذه الصورة الوهمية التي تسكنها عن حقيقتي الملموسة. تكرر الأحلام محتوياتها الواعية بوضوح حيث تكون مجردة تقريباً، وهذا أساسي من كل نقد يمارس في الوعي، وهو نقد تنغلق له الأحلام بصلابة؛ إذاً تكرر الأحلام، في هذه الحالة، المحتويات الواعية ولكن مع حرمانها جزءاً من كليتها وإحلال المنظور الإستيهامي مكان متطلبات العقل السليم.

وبالطبع كنت أتساءل من أين يأتي هذا العناد وهذا الإصرار والمواظبة، وإلام ترمي هذه الصلابة كنت أمتلك القناعة الراسخة بأنها يجب أن تشير

الى معنى غائي ما، بما أنه لا يوجد كائن حي مجرد من الغائية، أو هو، بعبارات أخرى، لا يكون مفهوماً بشكل كاف إذا رأينا فيه مجرد إحياآت لمعطيات سابقة. والحال أن الطاقة الملازمة لهذا التحويل كانت على درجة من السعة بحيث تعطي الانطباع أنها ليست حقاً وفعلاً إلا غريزة حيوية. ماذا كان يمكن إذاً أن يكون هدف استيهامات مماثلة؟ عندما عدت بتأن كبير إلى مواجهة هذه الأحلام من أجل تحليلها، خاصة ذاك الذي نقلته، جعلتني قوة ما ألحظ ميلاً قاطعاً إلى تزيين شخصية الطبيب بصفات فوق طبيعية ـ تماماً عكس النقد الواعي الذي كان يسعى لإعادته إلى مقاييسه الانسانية ـ ورؤيته كائناً ذا قامة عملاقة، مسناً كالعالم، أكبر من الوالد، يقارن بالهواء الذي يلامس الأرض. ألم تكن الأحلام تريد ببساطة، على حساب التناقض الذي يسببه ذلك، تأليه الطبيب؟.

وعندئذ سطع النور في ذهني: ألم تكن الأشياء عكس ما ظنناه حتى الآن؟ ألم يكن اللاوعي يحاول أن يخلق، من كل قطعة وانطلاقاً من شخصية الطبيب، إلهاً، وأن يحرر ويجرد بشكل ما صورة أو تصوراً للإلهي متحرراً من الغلالات الشخصية للملموس والفردي. بدا لي فجأة عند هذه النقطة من أفكاري أن التحويل على شخصية الطبيب أمر جيد، إنه ليس إلا سوء فهم وتبلوراً خاطئاً. للاوعي ومزحة غبية من جانب «العقل السليم»(13) الشهير. ألم يكن اللاوعي في اندفاعه يميل في الظاهر فقط وبالمعنى الحرفي للكلمات، من حيث الشكل، نحو شخصية إنسانية، مع أنه في الواقع تسعى لإيجاد إله؟.

هل سينطلق إذاً، بفعل الحاجة والجوع الى إله، هوى ينبع من الطبيعة الأكثر عذرية والأكثر ظلمة والأكثر عمقاً؟ وهل يمكن لهذا أن يكون أكثر قوة وأكثر الحاحاً من عشق كائن انساني؟ وهل هنا يكمن المعنى العلوي والأصدق لهذا العشق الملائم الذي ندعوه تحويلاً؟ ألا نصادف هنا مكوناً

لهذا العشق الإلهي الحقيقي الذي اختفى من الوعي الغربي منذ القرن الخامس عشر.

لن يشك أحد في حقيقة الرغبة العنيفة والشهوة المشبوبة التي تدفع كائناً من جسد نحو كائن آخر؛ ولكن أن ينبثق فجأة، في إطار الاستشارة الطبية وكحقيقة حية تجسدها صورة الطبيب الركيكة، موضوع من علم النفس الديني سقط من التاريخ منذ أمد بعيد، لهو أمر غريب يرقى للقرون الوسطى - نذكر مثلا مشتيلد دوماغدوبورغ M.de Magdebourg[14] هذا التقريب وهذا الاكتشاف يبدوان غير منتظرين في البدء وخياليان جداً حتى يؤخذا على محمل الجد.

ولكن موقفاً علمياً حقاً يجب أن يجهد لتجاوز الأحكام المسبقة؛ والمعيار الوحيد لصلاحية فرضية هو قيمتها التفسيرية. السؤال إذاً أن نعرف إذا كان يمكن اعتبار الإمكانية التي ألمحنا إليها للتو فرضية صالحة. قبلياً، لا نعرف سبباً يستبعد أن تكون الميول اللاواعية النائمة في كائن قادرة على التعرف إلى هدف تنشده، ويكون موجوداً فيما وراء الشخصية الإنسانية. تبدو هذه الفرضية أكثر استساغة من التي لايمكن للاوعي وفقها إلا أن يرغب. وعلى التجربة وحدها أن تقرر وبصورة مطلقة أي فرضية من هذه الفرضيات مؤسسة بشكل أفضل.

لم تتوصل مريضتي ذات العقل النقدي جداً إلى التآلف مع فرضيتي، لأن تحليلنا السابق، الذي كنت وفقه الأب - العاشق والتجسيد المثالي لهذه الصفة والحل المأمول لصراعها، يمارس على شعورها جاذبية أكبر بكثير. بيد أن ملكاتها الفكرية كانت موثوقة كفاية وفهمها واضح بدرجة تكفي لتتمكن من التفرس في الإمكانية النظرية لمثل هذه الفرضية.

وبينما كانت أحلامها مستمرة في تضخيم شخصية الطبيب وتجريده

باستمرار في نسب أكثر تعذراً، ظهرت بالتوازي والارتباط مع هذه الصيرورة ظاهرة جديدة ميزتها وحدي في البداية وباندهاش كبير، وكانت تفرغ بشكل ما تحويلها وتنسفه بشكل خفي..

وعلى الرغم من أن مريضتي بقيت دائماً متشبثة ومتمسكة بتحويلها في وعيها، لاحظت أن علاقتها مع أحد أصدقائها كانت تتعمق على مرأى العين. ولم يؤد انفاصلنا عندما حان وقته إلي الخراب بأي شكل من الأشكال. بل كانت وداعاتنا عاقلة جداً.

هكذا حصلت على امتياز أن أكون الشاهد الوحيد لعملية الانفصال التدريجي وتصفية التحويل. كنت استطعت أن ألاحظ كيف تبلورت ونمت وتأكدت، انطلاقاً من هدف متجاوز للشخصية، وظيفة لا أستطيع أن أدعوها إلا وظيفة موجهة(15)، وهي التي جذبت إليها وتحملت، خطوة فخطوة، كل عناصر التقدير الشخصي الفائق التي كنت سابقاً وعاء له. وقد وفر انسحاب الإسقاطات للوظيفة التي أصبحت موجهة، شيئاً فشيئاً، سيالة وواردا من الطاقة يوازي ما أخذت وذات نفوذ متزايد على الوعي المقاوم، دون أن تدرك مريضتي ذلك بوضوح. يظهر لي هذا المثال، إلى جانب أمثلة عديدة أخرى، أن الأحلام ليست استيهامات بسيطة وعديمة الجدوى ولكنها التمثيل الذاتي للتطورات اللاواعية التي تسمح لنفس الفرد أن تنضج ببطء وأن تنمو وتتجاوز الخاصة غير الملائمة لبعض العلاقات الشخصية(16).

إن التبدل في الحالة العقلية لمريضتي، كما حاولت أن أظهره، تم تسريعه بظهور هدف تجاوزي في لاوعيها. كان هذا الأخير يشكل بطريقة ما هدفاً وهمياً ويعبر عن نفسه رمزياً بحيث لا يمكننا أن ندعوه إلا صورة أوتصوراً لله(17). ومن أجل بث الحياة فيه، لم تتردد أحلام المريضة أبداً في تشويه الشخصية الإنسانية للطبيب ومنحه مقاييس فوق إنسانية، بأن تجعل

منه عملاقاً وأباً مسناً كالعالم هو الهواء أيضاً، ترتاح بين ذراعيه محتضنة مثل طفل.

وإذا كنا نريد، على سبيل الاعتراض، البحث عن منشأ صورة الله، كما تبدت لمريضتي في الحلم، في التصور الواعي الذي كانت تشكله عنه بنفسها (وهي ذات التربية المسيحية)، فإن التشوه الحادث يقفز إلى الأعين مباشرة. كانت مريضتنا تمتلك موقفاً نقدياً ولا أدرياً بصدد الدين، وكان تمثيلها لكينونة إلهية ممكنة قد بلغ منذ أمد بعيد فلك ما يتعذر تمثيله، أي الإبهام الكلي الأكبر. والحال أن صورة الله في الحلم تعود، علي العكس، إلى التمثيل القديم لمبدع للطبيعة، كفوطان Wotan.[18] مثلاً.

إن صيغة الله روح[19] كانت توجد مكررة من جديد في شكلها الاغريقي الأصلي، حيث يعبر عن الروح بكلمة بنيما التي تعني الهواء. وهذا ما يقودنا الى الصورة التالية: الله هو الهواء، نفس لا مرئي، أكثر قدرة وأكثر قوة من الانسان. وكما في العبرية تعني الكلمة العربية روح «تنفس» و«روح»[20]. هكذا تصر الأحلام ما وراء الشكل الشخصي، على صورة لله هي على طرفي نقيض مع الفكرة التصورية والواعية. بالتأكيد يمكن الإعتراض بأن الأمر يتعلق ببساطة بصورة طفلية، ذكرى من الطفولة. وكنت سأحبذ هذا الإفتراض لو كان الموضوع مثلا شيخاً جليلاً يجلس في السماء على عرش مذهب. والحال أن الأمر، بالتحديد، لا يتعلق بمثل هذه العاطفة، وإنما باستحضار بدئي لا يمكن أن يعود إلا لأحد أشكال الوعي القديم.

لقد نشرت في كتابي تحولات النفس ورموزها عددا كبيراً من الأمثلة على هذه الصور البدئية (التي تأخذ مكانة المفهوم)، إنها تحفز على القيام بتوزيع للمواد اللاواعية مختلف عن التمييز الاعتيادي بين مواد؛ قرب - واعية و«لا واعية» أو «تحت واعية» و«لا واعية». ولا أريد هنا مناقشة

مشروعية هذه التقسيمات. بالتأكيد لكل منها قيمتها وتستحق أن تكون محتفظاً بها. وإن التمييز الخاص الذي فرضته عليّ التجربة يسعى ويطمح لأن يوجد ويفتح أفقاً جديداً.

يتأتى مما سبق ضرورة أن نميز في اللاوعي، على نحو ما، طبقة أو مستوى يمكن أن نسمّيه اللاوعي الشخصي. كما يجب أن ننظر إلى العناصر النفسانية والمواد التي توجد فيه على أنها ذات طبيعة شخصية من حيث امتلاكها خاصية مكتسبات الوجود الفردي؛ واستتباعاً فهي تمتلك المعلم الذي يمكنها، بالطبيعة، أن تصبح كذلك واعية.

بالتأكيد، نفهم أن تكون العوامل النفسانية التي تتعارض مع العناصر السائدة في الوعي خاضعة للكبت فتصبح بالنتيجة لا واعية، هذا من جهة، ولكن ندرك أيضاً ومن جهة أخرى إمكانية أن تصبح هذه المحتويات المكبوتة[21] ذاتها واعية ثم محفوظة في الوعي ما أن يتم العثور عليها والتعرف إليها.

نحدد مواد على أنها عائدة للاوعي الشخصي إذا كان مصدرها أو ظهورها أو فعاليتها ناشئاً عن علاقة ما مع الماضي الفردي للشخص. إنها جزء متمم للشخصية وتنتمي إلى قائمة العناصر المكوّنة. وهذا الأمر على مقدار من الصحة والأهمية بحيث أن نقص هذه العناصر في الوعي، وهو النقص الذي يمكن أن ينتج عن الظروف والآليات الأكثر تنوعاً، يؤدي الى إحساس بالدونية. ولا تمتلك هذه الدونية الخاصية النفسانية لنقص عضوي أو عاهة ولادية؛ بل أن لها شكل عوز أو فراغ أو نقص يولد شعوراً بالدونية ومعاناة ذات طابع معنوي. إن شعور الدونية الذي يعانيه المريض ويتألم منه على الصعيد المعنوي يدل دائماً على أن العنصر المفقود عامل لايجب في الحقيقة أن يغيب ومن أجل شعور المريض. بعبارات أخرى يمكنه، بل يجب عليه. أن يكون واعياً إذا تعنى الشخص لذلك. ولا

يتأتى الشعور بدونية معنوية من خلاف مع القانون الأخلاقي المشترك الذي يكون اعتباطياً بمعنى ما، ولكنه يتأتى من صراع الفرد مع نفسه، مع ذاته[22] التي تطالب بإلحاح، ولدوافع تتعلق بتوازن النفس، أن يتم تغطية النواقص والفجوات المظلمة المشاهدة والواعية بشكل لاواع. لايشير شعور الدونية في كل مرة ينشأ فيها الى حاجة المريض لأن يتمثل عاملاً لاواعياً فقط، ولكنه يشير أيضاً إلى إمكانية هذا التمثل.

وفي تحليل نهائي نقول إن الصفات الأخلاقية لكائن ماهي التي تقوده أو تجبره ـ إما مباشرة من خلال معرفة الضرورة وقبولها، وإما لامباشرة من خلال عصاب مؤلم ـ على تمثل ذاته اللاواعية والحفاظ عليها واعية. إن أي شخص يتقدم على طريق تحقيق ذاته اللاواعية، يجعل محتويات اللاوعي الشخصية واعية بالضرورة، مما يوسع مدى وآفاق وغنى الشخصية بشكل ملحوظ. نشير هنا مباشرة إلى أن هذا التوسع يعني بالدرجة الأولى الوعي الأخلاقي ومعرفة الذات، لأن محتويات اللاوعي التي يحررها التحليل والتي تمر إلى الوعي هي، بقاعدة عامة، المحتويات غير المحببة والتي تم كبتها لهذا السبب: ذكريات، رغبات، ميول، مشاريع... الخ.

إنها محتويات يستحضرها بصورة مماثلة، على سبيل المثال، اعتراف عام وصادق وإن كان بدرجة أقل. وعموماً فإن تحليل الأحلام هو الذي يسمح بالتقدم أكثر إلى الأمام وفي العمق، متجاوزاً مايمكن للإعتراف أن يأتي به أو يقدمه. وغالباً مايكون من الهام جداً أن نرى كيف تقود الأحلام إلى النور وكيف تستحضر العناصر الأكثر (ضرورة) نقطة فنقطة، وقطعة فقطعة، في انتقاء غالباً ما يحير في دقته ووفق انتخاب وتدرج مرهفين للغاية. هذه العناصر النفسانية تشكل كلها عندما تأتي لتنضم الى الوعي توسعاً هاماً في الأفق ومعرفة معمقة للذات. ومن المتوقع نتيجة

لذلك أن تصبح مؤهلة بامتياز لأن تستشير التواضع في الكائن وقابلة لأن تؤنسنه.

إلا أن معرفة الذات التي يتوقع منها الحكماء النتائج المثلى تؤثر هي أيضاً على السجايا المختلفة وبحسب هذه السجايا. ويمكن بهذا الخصوص أن نبدي أثناء الممارسة التحليلية البينات الأكثر فرادة، وسنعود إليها في الفصل الثاني.

ولكن يبدو أن اللاوعي يحتفظ بعناصر أخرى غير المكتسبات البسيطة للحياة الشخصية وهو ما أظهره مثالنا عن التصور القديم لله. كانت مريضتي تجهل تماماً، ولا تعي الصلة الفيلولوجية أو التوازي الموجود في الألمانية، لغتها الام، بين كلمة روح (Geist) وكلمة هواء (wind) لم تكن هذه الصلة قد علمت لها أبداً ولم تكن قد خطرت ببالها يوما.

وكان من غير الممكن أن ينفذ إليها المقطع الذي يتعلق بذلك في العهد الجديد[23] لأنها لم تكن تمتلك اللغة الإغريقية. ونستطيع إذا أردنا أن نرد الأمر بأي شكل إلى اكتساب شخصي - أن نوجد بحضور ما يسمى بالتذكر الخفي[24] أي بالذكرى اللاواعية لفكرة تكون الحالة قد قرأتها أو التقطتها يوما ما بالصدفة. ولا أستطيع في الحالة التي تشغلنا إبداء اعتراض ضد إمكانية كهذه. ولكني رأيت ما يكفي من الحالات الأخرى - لقد نشرت عدداً كبيراً منها في تحولات النفس ورموزها - حيث يمكن أن نستبعد التذكر الخفي بالتأكيد:

زد على ذلك، أنه حتى لو تعلق الأمر في حالتنا بتذكر خفي - وهو ما يبدو لي بعيد الاحتمال - يبقى أيضاً أن نفسر الإستعداد مسبق الوجود الذي بموجبه تحديداً إنْتُخِبَتْ الصور المعنية وبقيت مثبتة كي تصبح لاحقاً بحسب عبارة سمون Semon[25] مصدرة Exphoree.

على أية حال، يتعلق الأمر، سواء مع تذكر خفي أو بدونه، بصورة

لله أصيلة وموغلة في البدائية نمت في لاوعي كائن معاصر حيث مارست فعالية حية، فعالية تحرض بشدة، من وجهة نظر تاريخ الأديان، على التفكير. ولا أميز في هذه الصورة شيئاً شخصياً، إنها صورة جماعية تماماً، نعرف وجودها الإثني منذ أمد بعيد ونحن مجبرون أن نقول في أنفسنا أن صورة الله هذه، والتي تمتلك وجوداً تاريخياً وانتشاراً عالمياً، قد عدلتها النفس في عملها الطبيعي وأعادت تشكيلها؛ ولا يقدم هذا بذاته أي إعجاز لأن مريضتي أتت إلى العالم بدماغ إنساني يعمل اليوم أيضاً وعلى الأرجح بذات الطريقة التي كان يعمل بها دماغ الأقوام الجرمانية القديمة.

يتعلق الأمر إذاً بنموذج بدئي Archetype أعيد إحياؤه حسب التعبير الذي اقترحته في مكان آخر للإشارة إلى هذه الصورة الأولية[26]. إن طريقة التفكير البدائية والقياسية القديمة والتي لا تزال حية في أحلامنا هي التي تبعث لنا هذه الصور السلفية القديمة. ليس الأمر أبداً تمثيلات موروثة ولكنه بنى ولادية تستقطب المسار الذهني في بعض الاتجاهات[27].

وإننا لمجبرون، بوجود وقائع كهذه أن نفترض ونقبل بأن اللاوعي لا يحتفظ بمواد شخصية فقط، وإنما بعوامل لا شخصية أيضاً، هي عوامل جماعية على شكل مجموعات موروثة[28] ونماذج بدئية[29]. لقد أطلقت إذا فرضية أن اللاوعي يحتوي، في طبقاته العميقة، مواد جماعية حية وفاعلة نسبياً، وهكذا كنت مقاداً إلى التحدث عن لاوعي جماعي.

الحواشي:

1 - إن التجربة التي يستند إليها يونغ والتي تمنعنا من استنتاجات سريعة وتبسيطية، لايحتاج الطبيب الممارس لأن يسعى ورائها: إنها تفرض نفسها إنسانياً عبر مرضاه بأزعج وأثقل صورة يمكن تخيلها. لوكان المنظور الذي ينتقده يونغ صحيحاً لوجد الأطباء في الجانب النفساني من الإنسان بساطة مريحة كتعويض وعزاء عن المقاربة البيولوجية التي تتعقد كل يوم. للأسف يتأكد اليوم أمام عجب الإختصاصيين أن المقاربة النفسانية للإنسان السليم أو المريض لاتقل دقة وتعقيداً عن المقاربة البيولوجية وربما تفوقها. (ر. ك)

2 - استيهام: لقد اعتمدنا هذه الكلمة في مقابل الكلمة الفرنسية Fantasme وهي كلمة من أصل يوناني تعني حرفياً الظهور أوالتبدي. أما استخدامها في ميدان علم النفس فيشير إلى نوع من حلم اليقظة. أوإلى الحالة التي يستسلم فيها العقل لصور وذكريات وتخيلات... وهد تكون الصور غريبة وهذايانية إذا ذهب الشطط بالمرء بعيداً. (م)

3 - إن هذا التشابهه، فيما يتعلق بالشكل، محتم. في الواقع عندما يكون لدى اللاوعي شيء يعبر عنه، يحدث كل شيء كما لو أنه يستمد من مخزن الملحقات الموجود في داخل كل فرد الغرض والشخصية والديكور والمسكن الأكثر قرباً وقدرة على إيضاح وتشكيل مايجب إعلانه بصورة ملائمة. هكذا يمكن للتجاوزي أن يتجلى من خلال المواد الشخصية التي تحمل معنى يتجاوزها. (ر.ك).

4 - يعود يونغ إلى بدايات القرن العشرين (ر.ك)

5 - هناك ميل عام خاصة عند الجمهور الواسع إلى ربط عبارة مركب بفكرة المرضي الضمنية، وهذا خطأ فادح. إن المركبات مجموعات فكرية - وجدانية ذات شحنة عاطفية شديدة تشكلت أثناء الحياة الشخصية للفرد وهي مكونات طبيعية لنفس طبيعية. ولكن المركبات، ككل البنى الإنسانية، هي من حيث المنطلق كمونات طبيعية وضرورية، يمكنها أن تخضع من حيث النوع أو الكم أو الشدة لكل التشوهات والانحرافات المرضية التي يمكن تخيلها (ر. ك)

6 - يميز يونغ في النفس أربع وظائف نفسية رئيسية. تتواجه إثنتين لإثنتين (الفكر والعاطفة - الإحساس والحدس). تصبح إحداها، بحسب طبيعة الفرد، أداته المفضلة أثناء

الطفولة والمراهقة؛ وبموازاة ذلك تتنحى في لاوعي الشخص الوظيفة المضادة التي يدعوها يونغ بالوظيفة الدنيا بينما تدعى الوظيفتان المتبقيتان والواعيتان جزئياً بالوظائف المساعدة. (ر.ك) أنظر ليونغ كتاب «الأنماط النفسانية».

Types Psychologiqus, preface et traduction de Yves Delay librairie de l'uniersite Geneve 3 de 1968

وكتاب «الإنسان يبحث عن نفسه» ترجمة ديمتري افييرينوس وسامي علام. دار الغربال ـ دمشق ـ ط1 ـ 1993

7 ـ حمـار بوريدان: تعود هذه العبارة لجان بوريدان Jean Buridan 1300 - 1358 م. وكان عميد جامعة باريس في 1327. وهي عبارة تشير إلى وجود شخص عالق بين جاذبين لايعرف أيهما يختار. فقد تساءل بوريدان بماذا يبدأ حمار جائع وعطش إذا وضع على مسافة متساوية من دلو ماء ومكيال من الشعير. (م)

8 ـ أنظر كارل غوستاف يونغ «نفسانية التحويل» Psychologie du transfert, traduction de Yves Lelay -Buchet- chatel Paris

9 ـ اذا تجاهلنا التحويل السلبي نستطيع أن نقول أن للتحويل إنذار جيد، فهو يؤدي إلى تعقيد علائقي مؤقت ولكنه يدل أيضاً على أن الكتلة المتصارعة مازالت مرنة أي أن بنى الشخص النفسية لم تتصلب بعد. مازال هناك مرونة في الطبع والقدرات التطورية. يؤمن التحويل في المقابل اتصالاً وجدانياً جيداً وعلاقة بين المريض والطبيب تشكل الشعاع الدينامي الموجه للعلاج. كما أن تحليل التحويل يسمح للشخص بتذكر ودمج عناصر نفسيته المتناثرة. (ر. ك)

10 ـ راجع «الإنسان يبحث عن نفسه» (ذكر سابقاً)، و«النفس الخافية» ترجمة سامي علام ـ دار الغربال ـ دمشق 1996

11 ـ في الحاشية الأولى للفصل الثاني تعريفاً متكاملاً للأنا.

12 ـ هيرودس: يشير هذا الاسم إلى ثلاث شخصيات من العائلة ذاتها وهم هيردوس الكبير وهيرودس أنتيباس وهيرودس أجريبا. وقد ولد الأول في عسقلان وكان ملكا لليهود 40 ـ 4 ق. م. (م)

13 ـ يتزلق هذا العقل السليم الذي يفيض بحساباته الغامضة من حيث لا يدري في السجلات الإسقاطية. (ر. ك)

14 ـ متشيلد دوماغدبورغ: Mechthilde de Magdebourg

قديسة ألمانية عاشت بين 1210 و1285م ولها كتاب صوفي تعبر فيه عن الاتحاد بين

النفس والله بلغة تقرب من الشعر. (م)

15 ـ يجب ألانخلط بين الوظيفة الموجهة والوظيفة الرئيسية (أو الخاصة) التي تحد ثنا عنها سابقاً. إن غنى العناصر المكونة للنفس واكتشاف تطورها أجبرا يونغ، بينما كان يتقدم في تحليلهما، على ترك أو تعديل بعض المصطلحات التي قد تسبب التباساً ـ لقد انتبه لذلك وأوضحه أحياناً. تشدد الوظيفة الموجهة على قدرة اللاوعي، في بعض المواقف، على تحمل مسار الأحداث معاوضاً بذلك الوعي وعوزه، خاصة عندما يكون الوعي في حالة تخليط. وهذا ما اطلق عليه يونغ فيما بعد تسمية الوظيفة المتسامية.

بتبني هذا المصطلح الاخير، رمى يونغ الى إيضاح ان المساهمة التي يقدمها اللاوعي تتم بدمج العقلي واللاعقلي. على أية حال لم يرضه هذا التعبير كثيراً خاصة عندما اكتشف انه يمتلك معنى مجدداً في العلوم الرياضية وقد مال بعدها الى عدم استعماله نهائياً متحفظاً ومطوراً فكرة صيرورة التفرد التي تمتلك ميزة احتواء ماتتضمنه العبارات المتبناة سابقاً. (ر. ك)

16 ـ لهذا نستدعي الحلم لمساعدة المريض على فرض النظام شبكة الاسقاطية. ونعلم اليوم أن الشبكة الإسقاطية في الحياة العادية

17 ـ انظر كارل غوستاف يونغ «الدين في ضوء علم النفس» ـ ترجمة نهاد خياطة ـ دار الحوار ـ اللاذقية ـ 1988

18 ـ فوطان: هو الإله الرئيسي عند الشعوب الجرمانية، إله الحرب والدمار والشعر (م).

19 ـ انجيل يوحنا (الإصحاح الرابع ـ 24)

20 ـ انظر كارل غوستاف يونغ «تحولات النفس ورموزها»

C. G. jung - Metamor- phoses de L'ame et ses symboles

21 ـ أنظر كارل غوستاف يونغ «الدين في ضوء علم النفس» (مذكور سابقاً).

22 ـ الذات: هي مجموع الشخصية المركبة الذي يشتمل على الوعي واللاوعي.

23 ـ «الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لاتعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل من ولد من الروح». انجيل يوحنا (الإصحاح الثالث ـ 8) محادثة يسوع ونيقوديموس.

وفي العبرية كما في اليونانية تشير الكلمة ذاتها إلى الريح والروح. (ر.ك)

24 ـ Theo - dore Flournoy - Des Indes a la planete Mars

25 ـ لم نتمكن من معرفة من هوسمون الذي يشير إليه يونغ هنا. (م)

26 ـ أنظر كارل غوستاف يونغ ـ «الأنماط النفسانية» مذكور سابقاً (ر.ك.)

27 ـ من هنا عبثية اتهامي بالهذيان الصوفي الذي أرادوا من خلاله التشهير بمفهومي (يونغ)

28 ـ - Hubert et Mauss - Melanges d'histoire des religions

Alcan - Paris - 1909.

29 ـ النماذج البدئية: هي أشكال من المركبات الفطرية وبنى استحدثتها نفسيتنا تؤثث وتحرك مواد التجربة الفردية.

الفصل الثاني

نتائج تمثل اللاوعي

إن تمثل اللاوعي عملية تؤدي وتحتم ظواهر فريدة. إذ يؤسس بعض الأفراد، أثناء إدراك موادهم اللاواعية، وعياً لأنفسهم وشعوراً بأناهم[1] يمتلكان شيئاً من التحدي، وفهماً يتبديان بصورة غير مرغوبة ويصدمان المحيط بمظهرهما المفرط. إنهم يعرفون كل شيء ويد عون الإدراك التام لما يتقد في لا وعيهم. يعتقدون أنهم على تمام معرفة بما ينشأ عنه ويتظاهرون في كل جلسة أنهم أكثر ثقة بأنفسهم مدعين معرفة أبعد مما يعرفه الطبيب عنه.

وعلى العكس، هناك أشخاص يكتئبون ويحبطون، ويشعرون كأنهم مسحوقون بمحتويات اللاوعي. تصغر ثقتهم وإحساسهم بأنفسهم، ولا يجيدون إلا النظر بخضوع كئيب إلى كل العناصر الغريبة التي يخلقها لاوعيهم.

معنى القول أن أصحاب الفريق الأول في نشوة ثقتهم بأنفسهم يلقون على عاتق لاوعيهم مسؤولية تذهب بعيداً جداً متجاوزة إمكانياتهم الحقيقية. في حين أن أصحاب الفريق الثاني يسقطون بأيديهم، كافّين نهائياً عن تحمل أيّ شيء من أنفسهم، كأنهم مفتونون بالكشف الساحق عن عجز الأنا في مواجهة القدرة الكلية لحتمية فاعلة كالقدر في اللاوعي ومن خلاله.

ولكن إذا قارنا في ضوء التحليل هاتين الطريقتين الحديتين في الاستجابة، نجد أنه خلف الثقة المتفائلة للفريق الأول يختبأ قلق لا يقل عمقاً عما عند الآخرين، إذا لم يكن أعمق أيضاً، قلق يرمي التفاؤل الواعي للفريق الأول إلى تمويهه وتعديله مهما كلف الأمر. أما بالنسبة للخضوع الكئيب والمتشائم للفريق الثاني فإنه يغطي بشكل سيء إرادة مصرة على السيطرة تتجاوز ببعيد، بفعل الثقة والتأكيد الوقح للذات، التفاؤل الواعي للفريق الأول.

أردت من وصف هذه المواقف الإرتكاسية أن أشير على وجه التقريب إلى الحدّين. ويعطي تمييز التدرجات بشكل أدق فكرة أصح عن الواقع ويحيط به بشكل أقرب. كل من يخضع للتحليل يستغل أولاً، وكما بينته في موضع آخر[2]، المعارف الجديدة التي اكتسبها للتو، مستعملاً إياها لخدمة موقفه العصابي الطبيعي مع الرغبة السرية بأن يسمح بإدامته، إلا إذا كان ومنذ المراحل الأولى للبداية قد شفي من أعراضه لدرجة أن يتمكن من التخلص من متابعة العلاج. هذه المواظبة تسهل بشكل أساسي الظرف الذي يجعل المريض يفسر ويفهم ويستوعب كل العناصر في البدء على مستوى الموضوع[3]، أي دون أن يتم تمييز الموضوع الخارجي عن الإيماجو Imago الصورة الداخلية المقابلة: يتم فهم كل شيء في علاقة باطنية مباشرة ودون تدرجات مع الموضوع.

كل من هو مستقطب بشكل أساسي من الآخرين (الانبساطي)، كل من جعل من الآخرين الموضع الوحيد للتمجيد والاهتمام ولا ينشغل إذا إلا بالآخرين، يستخلص من كل ما استحق وتمكن من الحصول عليه أثناء هذا الجزء من التحليل، ومن واقع معرفته لذاته: «هكذا اذاً، هذا ما هم عليه الآخرون». وعند هذا الحد، يشعر على طريقته، مع أو دون تساهل، بأنه

مضطر إلى تقديم إضاءات جديدة للإنسانية وإبلاغ العالم عن كشفه.

وعلى العكس فالآخر (الإنطوائي)، الذي لديه شعور بأنه موضوع أمثاله أكثر بكثير من أنهم موضوعه، يتكبل بمعارفه الجديدة، واستتباعاً فإنه يحبط (أغض النظر بشكل طبيعي عن عدد كبير من الأشخاص السطحيين بالأساس والذين تكاد لا تلامسهم جدية هذه المسائل).

في الحالتين الحدّيتين المقاربتين، تقوى العلاقة الباطنية مع الموضوع، عند الأول في اتجاه فاعل وعند الآخر في اتجاه منفعل. هكذا يحدث تعزيز جلي للتأثير الجماعي. الأول يوسع فلك فعله والثاني فلك انفعاله المؤلم. لقد اقترح آدلر عبارة (التشابه مع الله) من أجل الإشارة إلى بعض الملامح الأساسية لهذيان القوة العصابي.

إذا استعملت هنا أيضاً هذا التعبير، الذي استعيره من فاوست، فإني أقوم به إشارة إلى المقطع الشهير الذي يكتب أثناءه مفيستو في دفتر التلميذ ويهمهم في تناج:

اتبع الآن هذه النصيحة القديمة لابنة عمي الحية

بالتأكيد، رغم أنك مصنوع على صورة الله، ستعرف الخشية[4].

إن التشابه مع الله يعني، وهذا واضح جداً، المعرفة عامة ومعرفة الخير والشر. وإن التحليل وإدراك المحتويات اللاواعية يولد عند المحلل بعض التسامح الناتج عن ترفع طريقة مقاربة الأمور؛ يساعد هذا التسامح بدوره على قبول وتمثل فصول وقطاعات عسيرة التقبل من الخصائصية اللاواعية، يرتدي أحيانا ملامح فوقية كبيرة وحكمة كبيرة، رغم انه ليس غالباً إلا حركة طيبة، لكنها لا تمر دون أن تؤدي إلى نتائج. وذلك لأن الأمر يتعلق باندماج فلكين بقيا حتى اللحظة منفصلين بشكل قلق أحدهما عن الآخر، الفلك الواعي والفلك اللاواعي. وبعد تذليل المقاومات، التي لم تكن

ضعيفة بل عنيدة ومخادعة بشكل فريد، يصبح توحيد الأضداد على الطريق الصحيح، على الأقل على مستوى التصورات. وإن المعرفة الأكثر تعمقاً والتقارب المتماسك لعناصر منفصلة سابقاً ومنزوعة عن الذات، والانطباع بأنه تم التغلب، كما يبدو، على الصراع الأخلاقي، كل ذلك يعطي لفئة ما من الأشخاص شعوراً بالفوقية لا تبدو عبارة التشابه مع الله من أجل الإشارة إليه مفرطة.

ولكن هذا التجاوز، والتقارب ـ بل هذا الأختلاطات ـ وهذا التجابه بين الخير والشر، يمكن أن يكون له تأثير آخر على مزاج آخر. لن يتعلل الكائن بالضرورة، وهو يمسك بين يديه قدرات الخير والشر بشعور أنه فوق ـ انسان، بل قد يشعر عند الاقتضاء بأنه شئ بسيط ضائع بين المطرقة والسندان[5]؛ لن يشعر بالضرورة بأنه هرقل على المفترق، بل ربما يشعر أكثر بأنه. قشرة جوز بلا دفة بين سيلا وشاريبد[6]. وبما أن الكائن يجد نفسه، دون أن يعرف، منغمساً في قلب الصراع الأقدم والأوسع للإنسانية، ولأنه يتحمل في الألم أذى المبادئ المتناقضة والأبدية، قد يتكون لديه انطباع بأنه بروميثيوس[7] مكبلاً في القوقاز، أو أنه شخص مصلوب. هكذا يتحقق «التشابه مع الله» في الألم. ولا يشبه تعبير «التشابه مع الله» في أي شيء مفهوماً علمياً على الرغم من أنه يصف المعطى النفساني الواجب وصفه بأكثر ما يمكن من التلاؤم. لا أتصور أيضاً أنه من السهل على كل قارئ أن يصوّر لنفسه دون صعوبة الحالة الخاصة جداً التي يجب أن تفهم «بالتشابه مع الله». زد على ذلك، فإن هذه العبارة أدبية جداً.

فلنجتهد اذا للإحاطة وتحديد الحالة المناقشة: إن المعارف التي يكتسبها شخص ما أثناء التحليل تكشف له عموماً عدداً من الأشياء التي كانت حتى ذلك الحين توجد فيه، دون علمه، لا واعية بالنسبة له. فيقوم بالطبع

بتطبيق إكتشافاته الجديدة على محيطه، ويميز على الفورعند الآخرين تميزه (أو يتخيل أنه يميز)[8]، عوامل ودوافع ومواقف ومحركات سلوك لم يكن يفكر فيها أبداً.

وبمقدار ما كانت معرفته الجديدة مخلصة له وقدمت له الراحة والانفراج فهو جاهز كلياً لأن يفترضها كذلك مفيدة للآخرين. ويجعله هذا التوقع الضمني بسهولة، معتداً بعض الشيء، لماحاً وجسوراً؛ وشعوره بأنه يمسك مفتاحاً يفتح أبواباً عديدة، إن لم يكن كلها، لن يرضي محيطه، حتى لو حركته أفضل النيات. ولا ينجو التحليل النفسي الفرويدي ذاته من اللاوعي الساذج لحدوده، وهو ما نراه بوضوح في طريقة تعامله مثلاً مع أعمال الفن.

وبما أن النفس الإنسانية لا تتألف فقط من نور ولكن أيضاً بمقدار لابأس به من الظل، فليس من المفاجئ في شيء أن تصبح المعارف المكتشفة في التحليل العملي مؤلمة بعض الشئ ومزعجة في أغلب الأحيان، سيما وأن الشخص كان ينعم سابقاً (كما هي الحالة عادة) في قناعات وأوهام مناقضة، وهذا هو السبب الذي من أجله يعنى بعض الأشخاص عناية خاصة بالعناصر الجديدة لمعرفة ذواتهم التي اكتسبوها للتو؛ وهم يعنون بها بشدة حتى، لأنهم ينسون منها أنهم ليسوا الوحيدين المجبولين بظلال وظلمات: فيستسلمون للإحباط. وهذا ما يحملهم عندئذ إلى الشك بوجود أي شيء ذي قيمة فيهم. ولهذا أيضاً يوجد، على سبيل المثال، محللون ذوو مستوى رفيع ولديهم أفكار جيدة جداً لاينشرونها أبداً لأن المسألة النفسية التي يستشفونها تبدو لهم هائلة ومتعبة لدرجة يظنون معها أنه من شبه المستحيل الإحاطة بها في وصف علمي.

هكذا إذن يصبح أشخاص فريق أول مفرطي الحيوية من كثرة التفاؤل

وينقبض أشخاص فريق ثان بفعل التشاؤم محبطين، وينغلقون بخوف على ذواتهم.

وتظهر المبادرة الأساسية الكبيرة، تحت هذا الشكل تقريباً، مقلصة إلى نسب فردية. نستطيع أن نميز الأساسي منها دون صعوبة: إن روعة البعض، والإحباط المرهق عند الأخرين لهما في الواقع قاسم مشترك، اللاتيقن من حدودها ونهاياتها. أحدهم ينتفخ قليلا مثل ضفدع الحكاية ويدعي توسعاً لامحدوداً؛ في حين يضمر الآخر إلى أقصى حد. لقد أمحت حدودهم الفردية، تبخرت، كما لو أصبحت غير موجودة، فما عادوا يعرفون أين تتوقف وأين تحد اناهم وشخصيتهم.

ولكن الأشياء تتعقد أيضاً إذا راعينا حقيقة أنه بالنسبة لقانون المعاوضة النفسية[9] لا يحدث التواضع الكبير أبداً دون أن يترافق باعتداد كبير، كما أن الأعتداد الكبير يتماشى دائماً مع هبوط وشيك. من هنا نستطيع بسهولة أن نكتشف خلف كبرياء بعضهم ملامح شعور خائف بالدونية. نعم، نكتشف حتى بوضوح وجود خطر يدفع المتحمس إلى تعظيم حقائقه - وثقته بها أقل من أن يريد النطق بذلك - والى القيام بتبشيرات من أجل أن يضمن له فريق من المنتمين الموالين قيمة وأساس قناعاته تقريباً. وعلى أنه لايشعر نفسه مرتاحاً كثيراً في الغنى الفائض لإكتشافاته الإنسانية بحيث يرغب البقاء وحيداً في امتلاكها.

في العمق، يشعر أنه على الهامش، بفعل معارفه ذاتها؛ ويدفعه الخوف الخبيء من أن ندعه فيها إلى إعلان آرائه وتأويلاته كما لكي يبقى مدرجاً في الحاضر ويحتمي من شكوكه المضنية.

ويحصل العكس للنبط! كلما تراجع واختبأ كبرت في داخله الحاجة السرية لأن يعلم أنه موضع قبول وتقدير، ورغم أنه يطرق آذان أقربائه بدونيته، فهو في عمقه لايؤمن بها. إنه يشعر أن القناعة الثابتة والعنيدة

بقيمته المجهولة تصعد من أعماقه؛ ولهذا فهو حساس إلى أقصى حد، يستشعر ويضخم أقل أثر للنقد. ولهذا أيضاً يبرز دائماً سحنة الشخص غير المفهوم والعبقري المجهول. هكذا تتقد في داخله تعاسة معتدة ويتشكل عنده كبرياء مرضي، ولكن الثبط يرفض الاعتراف بهذه الآلية، وبما أنه الأخير إلى استطاعة تحمل نتائجها فإن محيطه هو الذي يجد نفسه بالأحرى مجبراً على تحمله.

وهكذا إذاً يكون كل من الشخصين اللذين نأخذهما كمثال ضامراً جداً ومتضخماً جداً في آن واحد. يمثل كل منهما، موزعاً بالمقلوب، الكثير من التثبيط والكثير من التوسع وتصبح مقاييسهما وأبعادهما الفردية، التي لم يكن عليها سابقاً أن تقدم صلابة فائقة، في وضع أكثر انهزاماً. يمكن أن نصف بالكاريكاتوري والفظ اختيار عبارة «التشابه مع الله» للإشارة إلى حالة مماثلة. ولكن بما أن كل يتجاوز أبعاده الإنسانية، هذا هنا وذلك الآخر هناك، فإن لديه شيئاً فوق بشري ويمتلك، بالمجازي، مظهراً إلهيا.

وإذا كنا نفضل التراجع عن هذا التشبيه فإني أقترح التحدث عن التضخم النفسي.

تبدو لي فكرة التضخم هذه سعيدة ومبررة من حيث أن الحالة التي يجب تمييزها تتضمن بالتحديد توسعاً في الشخصية يتجاوز حدودها الفردية: هكذا هو الضفدع الذي ينتفخ. يحتل الشخص في هذه الحالة حجماً لن يجيد ادعاءه بشكل طبيعي. ولكي يفعل، فهو مجبر على امتلاك صفات ومحتويات هي في الحقيقة موجودة خارج حدوده الخاصة. إلا أن ما يوجد خارج الأنا يعود لشخص آخر أو لأكثر من شخص أو هو ليس لأحد.

إن التضخم النفسي ليس أبداً ظاهرة يخلقها التحليل فقط. وبما أنها

تحدث أيضاً بشكل متكرر في الحياة العادية لكل الأيام فإننا نستطيع دراستها في مناسبات أخرى: تتألف حالة شائعة جداً من التماثل المجرد من أية إشارة فكاهية لرجال عديدين مع مهنتهم وألقابهم. بالطبع يعتبر المركز الذي احتله خاصتي من حيث ارتباط الأساسي من نشاطي به؛ ولكن هذا المركز، أو الوظيفة، أو المهمة هي أيضاً وفي الوقت عينه التعبير الجماعي عن عوامل عديدة، وهو تعبير نشأ تاريخياً من تعاون واتفاق عدد كبير من الظروف، وأهميته ثمرة قبول جماعي. منذئذ، بتماثلي مع وظيفتي أولقبي، أتصرف كما لو كنت أنا نفسي كل هذه الوظيفة الاجتماعية المركبة، هذا العمل الهيكلي الذي يدعى «مركزا»، وكأني لست صاحب المركز فقط ولكن أيضاً وفي الوقت ذاته الضرورة الاجتماعية والقبول الجماعي للمجتمع اللذين يتأسس عليهما المركز، واللذين يدعمانه ويعضدانه.

يمكن للمعرفة أيضاً أن تؤدي إلى تضخم نفسي؛ يتعلق الأمر عندئذ، استناداً إلى قاعدة المبدأ ذاته، بظروف نفسانية أكثر دقة. فليست أهمية المنصب هي التي تحدد هذا التضخم بل استيهامات مثقلة بالمعنى. وسأقوم بشرح ذلك بواسطة مثال عملي: إني أفكر في حالة مريض عقلي عرفته شخصيا وكان مايدر Maeder قد ذكره في أحد منشوراته[10]. وكانت هذه الحالة متميزة بتضخم مدفوع إلى درجة عالية[11].

كان هذا المريض يبدي عتها زورانيا يزيد من حدّته جنون العظمة. وكان يقيم علاقات هاتفية مع «العذراء» وكيانات أخرى مساوية في الأهمية. وكان في حقيقته الإنسانية مساعد حداد استغرق منذ سن التاسعة عشر في حالة من الجنون المعند. زد على أن المواهب الفكرية لم تكن يوماً من نصيبه. على أية حال، حدث له، من بين ماحدث، أن اكتشف الفكرة العظيمة في أن العالم كتابه المصور الذي يستطيع تقليبه

عندما يشاء. وقد أعطى في ذلك البرهان بسيطاً جداً وغير قابل للدحض في آن واحد: كان يكفيه أن يدير رأسه حتى يكتشف صفحة جديدة.

ألانرى هنا، ما وصفه شوبنهاور تحت عنوان «العالم كإرادة وتمثيل» في وضاحته البدائية وصراحته؟ ألا يتعلق الأمر، في العمق، بحدس مثير منبثق من أعماق الكائن الأكثر اتساعاً، من تخوم العالم الأبعد، ولكن معبراً عنها بقدر من السذاجة والبساطة بحيث لانستطيع بداية إلا الابتسام لمظهرها المضحك؟ ومع ذلك، ألم تكن رؤيا بدائية من هذا النوع، في خاصيتها الجوهرية، هي أساس التصور العبقري لشوبنهاور عن العالم؟

من لم يكن مجنوناً أو عبقرياً لن يتمكن أبداً من التحرر من تورطه في واقع العالم إلى درجة أن لايتصور العالم إلا كصورة يشكلها عنه. هل توصل مريضنا لأن يبنى ويطو ر صورة مماثلة للرؤيا؟ أم أن هذه باغتته؟ أم أنها أيضاً ابتلعته؟ تثبت حالة تحلله المخيفة وتضخمه أن هذه الفرضية الأخيرة هي الصحيحة. فليس هو من يفكر ويتكلم ولكن شيئاً ما يفكر ويتحدث في داخله ولذلك فهو يسمع أصواتاً.

هكذا يقوم الاختلاف بين مريضي وشوبنهاور على مايلي: عند الأول، بقي التمثيل الذي استحوذ عليه حدسياً في طور مخطط بسيط غير مكتمل المعالم.في حين أن شوبنهاور، الذي كان مسرحاً لذات الفيض التمثيلي، تجاوز هذه المرحلة، واستخلص منها ماهيتها وقاربها في وعيه، من أجل أن يعبر عنها فيما بعد بلغة ذات قيمة ووزن عالميين. لقد رفع الفيلسوف، بهذا الفعل، الحدس البدائي من سراديبه الأولى إلى الوضوح النهاري للوعي العام: لقد أصبح واحداً من عناصر تراثه. نخطئ أن نفترض أن التصور الرؤيوي، الذي استحوذ على المريض، له قيمة وصفة شخصيتان، أو بعبارات أخرى أنه عنصر يخصه. لو كان الحال كذلك لما كنا تعاملنا مع مريض وإنما مع فيلسوف.

والحال أن الفيلسوف العبقري هو الوحيد الذي يستطيع أن يرتقي برؤيا بدائية، ليست إلا سياقاً طبيعياً، إلى مستوى فكرة مجردة، وأن يخلق منها إرثاً واعياً للجماعة الإنسانية. وهو بتشجيع هذا الإعداد يعمل بصورة شخصية، وتكمن في هذا الإعداد الفردي لعقله القيمة الشخصية التي يستطيع شرعياً أن يتعرف على نفسه فيها دون الوقوع في التضخم. وعلى العكس، يشكل التصور الرؤيوي لمريضنا، دينامية لاشخصية تحتفر بشكل طبيعي طريقاً، صفيحة قاع تدفع حدادنا وتخدعه، وهو إزاءها لا يستطيع ولا يعرف كيف يدافع عن نفسه. يجد نفسه متبلعاً فيها و«مغترباً» عن العالم، يدعونه مجنوناً، خارج النطاق وغير قابل للاستعادة.ينتفخ بعظمة تصوره الرؤيوي المؤكدة والمدهشة، التي تطبعه بتضخم مخيف؛ وتستحوذ رؤياه عليه دون أن يتمكن هو من الاستحواذ على الفكرة وتوسيعها إلى حدود تصور فلسفي للأشياء. والقيمة الشخصية لا توجد إلا في التشكيل الفلسفي وهي ليست أبداً في الرؤيا البدئية. هذه الأخيرة، تنتش، في البداية، عند الفيلسوف أيضاً، وتنبت براعمها انطلاقاً من عمق الأفكار الإنسانية المشتركة ذاته، وهو الإرث الذي ينتمي له كل فرد من حيث المبدأ. إذ تأتي كل التفاحات الذهبية من الشجرة ذاتها سواء كان من يلتقطها، عندما تقع استجابة لنفس الحياة، حداد متمرناً معتوهاً أوشوبنهاور.

إلا أن هذا المثال يعلمنا المزيد أيضاً: يعلمنا أن المحتويات النفسية فوق ـ الشخصية ليست في أية حال من الأحوال نوعاً من المادة الميتة والجامدة واللامبالية التي يمكن امتلاكها بجهد بسيط، بل على العكس، إنها كيانات حية، ذات قوى دينامية تمارس جاذباً كبيراً واغراء للوعي. إن التماثل ـ الوظيفة واللقب يمتلك في ذاته شيئاً من السحر لدرجة أن عديد.. ن الأشخاص ليسوا إلا الأهمية التي أراد المجتمع منحهم إياها.

سيكون من العقم أن نبحث خلف هذه الواجهة عن أثر للشخصية، ومع ذلك فاذا بحثنا لن نجد خلف الواجهة إلا دمية مثيرة للشفقة. لذا فإن المهام (أو الألقاب أو الرتب المرتبطة بها مهما كانت تسمية القشرة الخارجية التي نلبسها إياها) آسرة لدرجة أنها تشكل تعويضاً سهلاً، قناعاً مريحاً، نستطيع خلفهما إخفاء النواقص والإختلالات والأوهان الشخصية (والقائمة لم تنتهي).

قد يعود التضخم لأسباب أخرى غير عوامل الجذب الخارجية وحدها (المقامات، الألقاب والأدوار الإجتماعية المتنوعة). لا تمثل هذه العوامل إلا القوى اللاشخصية للحياة الخارجية في المجتمع، الدينامية الجماعية للوعي المشترك للكل. ولكن وكما يوجد في ما وراء الفرد مجتمع، يوجد أيضاً في ما وراء نفسيتنا الشخصية، نفس جماعية هي اللاوعي الجماعي تحديداً وهي التي تمتلك كما يظهر مثالنا للتو، بؤر جاذبية لا تقل قدرة. وكما في حالتنا الأولى يمكن لدوامات الحياة أن تنتزع الفرد خارج نفسه وخارج قيمه تماماً

«أيها السادة، أنا الملك ، الآن» كذلك يمكن لكائن أن ينتزع فجأة خارج الواقع، إذا تأتى له استشفاف إحدى تلك الصور العظيمة التي تبهر، والتي تمنح العالم وجهاً آخر وطريقة وجود أخرى. ما أردت الإشارة إليه بعبارة صور عظيمة هو تلك التمثيلات الجماعية، التي لها ملامح وقدرات سحرية هي أيضاً، على المستوى السطحي، منشأ الشعارات التي تنتج التعابير الشاعرية واللغة الدينية على المستويات الأسمى.

أتذكر مريضاً لم يكن لديه شئ من صفات شاعر، إضافة الى أنه لم يكن يمتلك أية مواهب خاصة. لقد كان ببساطة ذا طبيعة هادئة، منسحبة شيئاً ما ومأخوذة بالحلم. كان قد أعجب بفتاة شابة، وكما هي الحالة غالباً لم يكن قد تأكد كفاية من مبادلتها له مشاعر الحب. وجعلته

«مشاركته السرانية» البدائية والساذجة يفترض بأن انفعاله، طبعاً وبالضرورة، هو ذاته عند شريكته. (زد على أن هذا ما يتفق أن تكون عليه الحالة في المستويات الأكثر بدائية والأكثر هبوطاً من النفسانية الإنسانية(12)). لقد بنى بهذا الشكل عالماً من الأحلام العاشقة. وانهار هذا العالم فجأة عندما اكتشف أن الفتاة الشابة لا ترغب بأي شكل بالاستماع إلى ذكره. لقد أخذته درجة من اليأس بحيث اتجه إلى النهر ليغرق نفسه فيه. كان الليل متقدماً جداً والنجوم تلتمع في المياه السوداء التي تعكسها. بدا له فجأة أن أزواجاً من النجوم تهبط في النهر واستحوذ عليه شعور لايمكن تحديده. أنساه ذلك نية الانتحار وبقي مبهوراً بالمشهد الفريد الهادئ المتبدي لعينيه. واعتقد شيئاً فشيئاً أنه يرى كل نجمة وجهاً وأزواجاً متشابكة تنزل حالمة إلى النهر. ثم انبثقت في ذهنه فكرة جديدة: لقد اختلف كل شيء، لقد تحول كل شيء وكذلك قدره.

لم يعد مسكوناً بحبه وخيبته. لقد أصبحت ذكرى الفتاة الشابة بعيدة وقلبه غير مبال بها. على العكس، كان لديه شعور جلي بأن ثروة هائلة قد هيأت له، أن كنزاً لايُصدَّق قد خُبأ في المرصد المجاور وهو بانتظاره. لذلك واستجابة لهذا الإستيهام، تم توقيفه في الرابعة صباحاً من قبل الشرطة التي داهمته وهو يحاول الدخول بالكسر إلى المرقب.

فماذا حصل له! لقد تهيأ لرأسه المسكين وأدرك صورة هائلة لو كان لها أن تصاغ بأبيات من الشعر لما أدرك جمالها أبداً. ولكنه قد رآها، رآها بأم عينه، وهذه الرؤيا حوّلته: لقد اختفى ماكان يعذبه قبل لحظة كما بفعل ساحر، وعلى العكس، إنكشف له عندما كان يتهيأ لعبور «عتبة بروسربين»(13) Proserpine عالم جديد، لم يشك لحظة بوجوده وهو عالم النجوم التي تتبع مدارها بكل طمأنينة بعيداً عن عالمنا السفلي المليء

بالآلام. انفرض عليه حدس فاحش الغنى، كأنه كشف، تسلسل أفكار أقل سخافة مما تبدو عليه، لأن كل فرد استطاع في ضميره الداخلي أن يحيا مسالك مشابهة، ولكنها كانت شديدة على رأسه هو. لم يغرق نفسه أبداً في النهر وإنما في صورة أبدية يختفي جمالها في اللحظة ذاتها.

إذاً كما يمكن أن يختفي بعضهم وذلك بأن يبتلعهم بشكل ما دور اجتماعي، يمكن لغيرهم أن تبتلعهم رؤيا داخلية، ناجين بذلك من محيطهم. وتتأتى بعض تغيرات الشخصية غير المفهومة، مثل محادثات مفاجئة وغير منتظرة أو أي اضطراب آخر في العمق، من الجاذبية التي تمارسها صورة جماعة[14]، وهي جاذبية يمكنها أن تحتم، كما يظهر مثالنا المذكور للتو، تضخماً متقدماً لدرجة تصبح معها الشخصية كأنها منحلة. والحال أن مثل هذا التحلل للشخصية يشكل مرضاً عقلياً، إما عابر وإما دائم، وانفصاماً للنفس أوجد بلولر Bleuler من أجل تسميته كلمة شيزوفرينيا «Schizophrenie»[15]. بالطبع، يرتكز مثل هذا التضخم المخيف إلى ضعف خلقي في الشخصية في مواجهة سيادة العوامل اللاواعية الجماعية في أغلب الحالات.

كيف سنتصور منذئذ الحياة العقلية للإنسان؟

سنتقرب بلاشك من الحقيقة على أفضل وجه عندما نتصور أن نفسنا الشخصية تقوم على الأسس العريضة لتأهب عقلي عام وموروث، وهو بكونه كذلك، لا واع وضمن، ومنذئذ تقوم نفسنا الشخصية من النفس الجماعية شيئاً ما مقام الفرد من المجتمع.

وكما أن الفرد ليس كائناً مفرداً ومعزولاً بشكل مطلق وحسب، فهو أيضاً كائن اجتماعي، كذلك فان العقل الإنساني ليس فقط ظاهرة معزولة وفردية تماماً بل هو أيضاً ظاهرة جماعية. ومثلما تذهب بعض الوظائف الاجتماعية وبعض الاندفاعات عكس مصالح الفرد المعزول، يأوي العقل

الإنساني بعض الوظائف أو الميول التي تقف بسبب ماهيتها الاجتماعية، في وجه الاحتياجات الفردية.

ويتعلق ذلك بحقيقة أن كل إنسان يأتي إلى هذا العالم بدماغ رفيع التمايز يجعله قابلاً لحياة عقلية غنية ومتنوعة جداً مع امكانيات وظائف عقلية لا تصدر، من حيث اكتسابها أو تطورها، عن تطور الكائن الفرد. وبمقدار ما تبدي الأدمغة الإنسانية تمايزا موحداً تكون الوظائف العقلية، التي تشرف عليها هذه الأدمغة وتجعلها ممكنة، جماعية وعالمية.

إن حالة الأشياء هذه هي التي تفسر، على سبيل المثال، واقع ما يبديه لاوعي الشعوب والأعراق الأكثر بعداً أحدها عن الآخر من تماثلات وتقاربات ملحوظة، تماثلات تتجلى من بين ما تتجلى في ظاهرة، سبق إيضاحها تكراراً، هي ظاهرة التطابق الهائل للأشكال والمواضيع الأسطورية المحلية في ظل المناخات الأكثر تنوعاً(16).

ويحدد تماثل الأدمغة العالمي الإمكانية العالمية لعمل عقلي مماثل، هذا العمل بالتحديد هو النفس الجماعية.

يوجد بالإرتباط مع تمايزات العروق والقبائل وحتى العائلات، وفوق قاعدة النفس الجماعية العالمية، مستويات للنفس الجماعية تتعلق بمحدوديات العرق والقبيلة والعائلة.

واستعادة لتعبير بيار جانية P.Janet(17)، تحتضن النفس الجماعية «الأجزاء الدنيا» من الوظائف النفسية للنفس الفردية، الجزء المتجذر بعمق والذي يتجلى ويمارس على نحو تقريبي وفق مذهب آلي، الجزء الموروث والحاضر في كل فرد أي الجزء اللاشخصي وفوق الشخصي، وعلى العكس يحتضن الوعي الشخصي «الأجزاء العليا» للوظائف النفسية، أي الجزء الذي تم اكتسابه وتنميته مع تطور الكائن الفرد.

إذا فالفرد الذي يعزو النفس الجماعية ـ الممنوحة له قبلياً ومن حيث لايدري. لملاكه المكتسب مع تطوره وكأنها جزء منه، يعزو ذلك بصورة لامشروعة نوعاً ما، ويكبر محيط شخصيته بصورة لا محدودة، مع كل ما يتضمنه ذلك من نتائج: إذ بمقدار ما تشكل النفس الجماعية «الأجزاء الدنيا» للوظائف النفسية وبالتالي القاعدة التي تدعم ضمنياً كل شخصية، فان عزوها «لأنا»يُثقل الشخصية وينزع قيمتها مما يعبر عنه في التضخم بتحطم الشعور بالذات أو باندفاع لاواع وإبراز للأنا يمكن أن يصل عندئذ إلى إرادة مخيفة في السيطرة.

يساعد التحليل الفرد على تمثل وتكامل لاوعيه الشخصي، أو يجعله واعياً لتصرفات وعوامل أدركها عند الآخرين، ولكنها فاتته تماماً في ما يتعلق به هو. ويفقد، بفعل معارفه الجديدة، وحدانيته الفردية ويصبح أكثر جماعية. لايشكل التقدم أو التطور في اتجاه الجماعي انتقاصاً، بل يمكن أن يكون نافعاً. إذ يوجد أيضاً أشخاص يكبتون خصالهم الجيدة، منهمكين عن علم في نزواتهم الطفلية التي يستسلمون لها بلا حياء. إن محاولة رفع أو إزالة أو محو المكبوتات الشخصية تأتي أولاً إلى الوعي بمحتويات شخصية صرفة. ولكنها ليست محض شخصية إلا من حيث المظهر؛ فهي في الواقع موسومة بصبغات وعناصر جماعية من اللاوعي ـ غرائز وصفات وأفكار وصور ـ وبكل مساهماتنا الجزئية و«الإحصائية» في فضائل ونقائض كل العالم. ففي داخل كل شخص ـ كما يقال ـ شئ من شرير ومن عبقري ومن قديس.

هكذا تتولد شيئاً فشيئاً في وعي المريض صورة حية تحتوي تقريباً كل ما يتحرك على رقعة العالم السوداء والبيضاء، الخير كما الشر، الجميل كما القبيح. وهكذا يتولد ويتأسس تدريجياً متشابهاً مع العالم تستشعره كثير من العقول بارتياح، ويمكن بالمناسبة أن يكون أحد الأوقات الحاسمة في

معالجة عصاب. لقد قابلت جملة من المرضى الذين توصلوا، في هذه الحالة، إلى إيقاظ حب شريك واختبار الحب للمرة الاولى، أو تجرؤوا قفزة حاسمة في لا يقين المستقبل، قفزة كانوا رفضوها حتى الساعة وكان يجب مع ذلك أن تدرجهم في قدر ذو قيمة.

رأيت مرضى آخرين، اعتبروا هذه الحالة نتيجة نهائية، وثابروا سنوات مستمرين في حالة من الغبطة الجريئة. بالطبع غالباً ما سمعت ادعاء أن حالات مماثلة هي نتائج لامعة للمعالجة التحليلة. لذا يجب أن أشير إلى أن المرضى الذين يبدون مشاهد الفرح هذه، يبدون أيضاً درجة من النقص في تمييز ذواتهم عن العالم المحيط، بحيث لن يستطيع أحد اعتبارهم شافين. من وجهة نظري يجب اعتبارهم نصف شافين ونصف مرضى وبالفعل لقد حصلت على عدة فرص لمتابعة هؤلاء المرضى على درب حياتهم، ويجب أن أعترف أنهم يبدون غالباً أعراض لاتكيف. وطالما يواظبون على هذا النسق، يجتاحهم غالباً ذلك العقم وتلك الرتابة المميزة للكائنات التي بقي أناها أو أصبح مائعاً. ألمح هنا بالطبع إلى المرضى الذين يشكلون حالات حدية، وليس إلى تلك الكائنات المتوسطة ودون المتوسطة والعادية التي تكشف صعوبات تكيفها عن ظروف ومناسبات تقنية لاعن مشاكل في كيانهم. بالطبع إذا كانت كفة الطبيب والمعالج في داخلي ترجح على كفة رجل العلم، فمن المؤكد أنني لن أستطيع أن أمنع عن نفسي بعض التفاؤل لأن انتباهي سيكون مشدوداً إلى عدد المرضى المتحسنين أو الشافين. ولكن وعيي كرجل علم لايتنوم مغناطيسياً بهذا العدد، إنه يأخذ باعتباره نوعية الأشخاص أكثر من كميتها. وتتبدى الطبيعة أرستقراطية إذ أن إنساناً ذا قيمة يعدل جيداً وزن عشرة آخرين. لقد تعلق نظري بشكل خاص بالكائنات ذات القيمة، وعلمتني حالاتهم أن نتائج تحليل محض شخصي تكون غامضة، وسمحت لي أن أفهم أسباب هذا الغموض.

عندما نقترف، أثناء تمثل اللاوعي، خطأ تمرير النفس الجماعية في قائمة الوظائف النفسية الشخصية، يؤدي سوء الفهم هذا إلى تحلل الشخصية إلى ثنائيات من الأضداد، الى ثنائيات من العناصر التناقضية المزدوجة. لقد تحدثنا أعلاه عن ثنائية الضدين: جنون العظمة ـ الشعور بالدونية، والتي تظهر بشكل متكرر في أثناء الأعصبة ومعالجتها. ولكن يوجد الكثير من الثنائيات الاخرى، من المستوى ذاته؛ لن نذكر إلا واحدة منها: ثنائية الخير والشر على سبيل المثال، ثنائية الأضداد الأخلاقية بالأخص. لأن الفضائل والرذائل الخاصة بالإنسان لها موضعها في النفس الجماعية، كذلك كل الباقي. والحال أن بعضهم يعزي لنفسه الفضائل الجماعية كما لو كانت حقاً شخصياً، ويتحمل بعضهم الآخر النقائص والرذائل الجماعية كما لو أن هذه العيوب تعود لخطأ شخصي، كأنها تشرع الشعور بالاثم وتجعله ضرورياً. إلا أن هذين الموقفين خاطئان وفي غير موضعهما ولايقلان وهمية عن مشاعر العظمة والدونية. لأن الفضائل التي نتخيل امتلاكها والتي نتباهى بها خطأ، كذلك الرذائل التي نعترف بها بصورة وهمية، هي أساس الأقطاب المتضادة لعناصر أخلاقية متناقضة تعود للنفس الجماعية وتساهم في تشكيلها. وانطلاقاً منها أصبحت العناصر حساسة وقابلة للإدراك إما بشكل عفوي وإما اصطناعياً بعد أن جعلناها مدركة[18] بدورة التحليل.

يظهر لنا مثال البدائيين بشكل خاص كم هو صحيح أن الثنائيات المتناقضة متضمنة في النفس الجماعية. وفي الواقع، يمدح بعض المراقبين الفضائل الرفيعة لمجموعة ما من البدائيين، في حين ينقل آخرون المشاهدات الأكثر سوداوية عن ذات القبيلة. والحال أن هذه الملاحظات المتناقضة والمتضادة كلاهما حقيقي بالنسبة للبدائي الذي، كما نعرف، ماكاد تمايزه الفردي قد بدأ؛ لأن نفس البدائي جماعية بشكل اساسي ولاواعية تماماً

بالجزء الأعظم منها. ويتماثل البدائي دائماً مع النفس الجماعية أكثر أو أقل. ولهذا تحركه الفضائل والرذائل الجماعية، بعيداً عن مسألة المسؤولية الشخصية ودون تناقضات حميمة. وهو لايبدأ باستشعار التناقض إلا يتأسس لحظة تطور شخصي للنفس، وهي لحظة حاسمة يبدأ عندها الفعل في تمييز لاتوافق العناصر التي تتعارض. وتنشأ من هذه المعرفة الجديدة معركة الكبت: نريد أن نكون طيبين ولذا نشعر أننا مجبرون على كبت الشر؛ هنا ينتهي فردوس النفس الجماعية. وتتسجل نهاية هذا الفردوس وكبت النفس الجماعية كضرورة لتطور الشخصية. إن تطور الشخصية عند البدائي، لابل تطور الشخص، هي مسألة حظوة سحرية: وتنفع صورة المداوي أو صورة زعيم القبيلة كدليل: فكل منهما يتميز بفرادة الحلي، بعلاقات خارجية، بطريقة عيشه، ويعبر المجموع عن دوره. تحدد العلاقات الخارجية الخاصة الفرد وتعزله؛ ويعزز امتلاك أسرار طقسية هذا الانعزال. ويخلق البدائي لنفسه، بهذه الوسائط وبأخرى من ذات النوع، غلافاً يمكن دعوته قناعه persona. زد على أنه يوجد عند البدائي، كما نعرف، أقنعة حقيقية تفيد، من أجل الأعياد الطوطمية مثلاً، في تحويل وتعظيم الشخص. يوضع الشخص المنتخب بواسطة القناع على هامش فلك النفس الجماعية. إضافة إلى أنه بقدر مايتوصل الى التماثل مع قناعه فهو يتوارى فيه فعلياً. ويمنحه هذا الانعتاق من النفس الجماعية حظوة سحرية في أعين قبيلته.

بالطبع يمكننا أن ندعي أن نية السلطة هي التي تشكل دافع ومحرك هذا التطور، ولكن يصعب الدفاع عن هذه النظرية، لأننا من أجل اعتمادها يجب ان ننسى أن منح حظوة هو دائماً نتاج جماعي لاتفاق يفترض وجود شخص يبحث عنها ووجود جمهور يبحث عن كائن يمكن منحه الحظوة. وبما أن هذا التلازم ضروري، فالاعتقاد أن رجلاً ما يبحث

عن هذا النوع من الفوقية بدافع شهوة السلطة وحدها مغلوط. يتعلق الأمر أساساً بشأن جماعي.

إن المجتمع بمجمله، وهو يشعر بالحاجة إلى امتلاك تجسيد للقدرة السحرية، يستعمل كعبارة شهوة السلطة عند رجل ورغبة الخضوع عند الجماعات، خالقاً إمكانية الحظوة الشخصية. وتلك ظاهرة ذات تأثير كبير في حياة الشعوب المجتمعية كما يثبتة منشأ التاريخ السياسي.

ونظرا لأهمية الحظوة الشخصية التي لن نستطيع تقديرها، فإن إمكانية رؤيتها تتحلل بالتراجع في النفس الجماعية تشكل خطرا، ليس على الفرد المنتخب وحسب ولكن أيضاً على كل أتباعه: يكون هذا الخطر مهدداً خاصة عندما يكون الهدف الضمني للحظوة، أي القبول العام، قد تم بلوغه. منذئذ، يتحول الشخص المنتخب إلى حقيقة جماعية، وهذه هي دائماً بداية النهاية. إن تجسيد حظوة جديدة، وبصورة حية، هو في الواقع فعل خلاقٌ لايمارسه الشخص المختار وحسب وإنما كل جماعته: يتميز المنتخب بأعماله العظيمة وتتميز الجماعة بامتناعها عن ممارسة السلطة.

وبمقدار ماتكون مقاومة التأثيرات المعادية ضرورية من أجل نصرة وحماية حالة الأشياء هذه يبقى العمل الجماعي خلاقاً. ولكن ما أن تختفي العقبات ويتم بلوغ القبول الجماعي، تخسر الحظوة من قيمتها البدائية وتصبح وزناً ميتاً. عندها عموماً يحدث انشقاق يعطي للعملية فرصة أن تتكرر.

وبما أن للشخصية أهمية مرموقة بالنسبة للحياة الجماعية، فكل ما يمكن أن يزعج تطورها يستشعر كخطر. ولكن الخطر الأكبر هو الانهيار المبكر للحظوة الذي يسببه إندفاع النفس الجماعية. وقد استعمل البدائيون من أجل تجنب هذا الخطر إحدى الوسائل الأكثر شيوعاً وهي

الحفاظ على السر المطلق. في الواقع، تتطلب ممارسة الفكر والشعور الجماعيان، ككل نشاط جماعي عموما، عناء أقل بكثير مما يتطلبه نشاط متفرد. وهذا ما يفسر المحاولة الكبيرة باستمرار من أجل إحلال وظيفة جماعية مكان وبدل تمايز للشخصية. إن تسوية وتحلل الشخصية المتمايزة التي كانت تحميها الحظوة السحرية (إنكار بطرس) يحتمان «خسارة النفس» عند كل شخص، لأن كل شئ يحدث كما لو أن وظيفة هامة ستكون من الآن فصاعداً محذوفة وملغاة. لذا يعاقب كل انتهاك للتابو بعقوبات ظالمة تعود لأهمية الموقف. وما دمنا نقارب هذه الوقائع من منظور السببية وحده، أي كاحياءات تاريخية وكانتقالات لتابو غشي المحارم[19]، فلن نتمكن مطلقاً من فهم معنى ومغزى كل هذه الإجراءات. أما إذا أضيف المنظور الغائي إلى الاعتبارات التاريخية تتضح كثير من الأشياء الغامضة سابقاً.

هكذا إذاً، يشكل التمايز الشديد عن النفس الجماعية ضرورة مطلقة، من أجل تنمية الشخصية، ويؤدي كل تمايز غير كاف إلى تحلل مباشر للفردي في الجماعي حيث يختلط ويضيع.

والحال أن الخطر قائم، يجب الإعتراف بذلك، في أن يؤدي تحليل اللاوعي إلى اندماج النفس الجماعية مع النفس الفردية، الأمر الذي لن يتأخر عن إثارة النتائج المحزنة التي ألمحنا إليها للتو: تكون هذه النتائج مؤذية لشعور الفرد الحيوي أو لأقاربه إذا كان يمارس بعض التأثير وبعض السلطة على محيطه. وهو سيحاول بلا تقصير، في حالة تماثله مع النفس الجماعية، فرض متطلبات لا وعيه على الآخرين. لأن التماثل مع النفس الجماعية يمنح شعوراً ذا قيمة عامة وشبه عالمية (وهذا ما كنا ندعوه أعلاه «التشابه مع الله»)، يقود إلى عدم رؤية النفس الشخصية مختلفة عن الأقارب وإلى غض النظر عنها وتجاوزها. وينبثق الإحساس بامتلاك قيمة

وحقيقة عالميتين عفويا سمن عالمية النفس الجماعية. ويقتضي الموقف والرؤيا الجماعية وجود النفس الجماعية ذاتها عند الآخر والآخرين. ويؤدي هذا من جانب الشخص إلى رفض قاطع وإلى استحالة حقيقية في أن يدرك الاختلافات الفردية والاختلافات ذات الطابع العام أيضاً، وهي ما يمكن أن يوجد في قلب النفس الجماعية، كاختلافات العرق[20] على سبيل المثال. إن استحالة أو رفض رؤية الفردي، الذي لا ندرك حتى وجوده، يكافئ بكل بساطة خنق الفرد، مما يدمر عناصر التمايز في قلب المجموعة الاجتماعية، لأن الفرد هو عامل التمايز بامتياز. إذ أن أكبر الفضائل وأسمى الإبداعات فردية[21]، كذلك أسوأ العيوب وأبشع الفظاعات.

كلما كانت الجماعة عديدة، تم تأكيد مجمل العناصر الجماعية الملازمة للجماعة على حساب الفرد بواسطة الأحكام المسبقة المحافظة، وشعر الفرد أيضاً أنه يتلاشى معنوياً وروحياً، وهذا ما يميت المنبع الوحيد الممكن للتقدم الأخلاقي والروحي للمجتمع. منذئذ يكون من الطبيعي أن يزدهر المجتمع وما يوجد من جماعي في الفرد فقط، أما كل ما يوجد من فردي فيه فمحكوم عليه بالتعتيم أي الكبت. وهكذا تصبح كل العوامل الفردية لا واعية، تسقط في اللاوعي حيث تحيا وتتحول وفق قانون محتوم[22] إلى نوع من السلبية المنهجية، يتجلى بنزعات تدميرية وتصرفات فوضوية. وتصبح هذه الميول فاعلة على المستوى الاجتماعي عند الفرد أولاً: يصبح بعض الأشخاص ذوي الطبع النبوي أداة جرائم مثيرة (قتل ملك... الخ...) ولكن يتم الإحساس بها عند الجميع بصورة غير مباشرة، كخلفية، من خلال تراجع أخلاقي محتوم للمجتمع.

من البديهي أن أخلاقية مجتمع ما، مقارب بكليته، تتناسب عكساً مع جموعه. إذ كلما ارتفع عدد الأفراد الذين يجتمعون، أمحت العوامل

الفردية، وأمحت أيضاً بالنتيجة ذاتها الأخلاق التي تقوم كلية على الشعور الأخلاقي لكل فرد وعلى حرية الفرد الضرورية لممارسته.

لذا فإن كل فرد، عندما ننظر إليه كعضو في المجتمع، يكون لا شعورياً أسوأ، مما يتصرف كوحدة تامة المسؤولية. لأنه عندما يذوب في المجتمع يتحرر من مسؤوليته الفردية الى حد ما، من مسؤوليته الفردية. وهذا يفسر كيف أن فريقاً هاماً يتألف من رجال ممتازين يساوي في كل نقاطه، من حيث الأخلاقية والذكاء، وحشاً هائلاً وغبياً وبليداً، نزقاً وبدون تمييز. كلما ازدادت ضخامة تنظيم ما أصبح فجوره وغباؤه الأعمى محتمان (الشيوخ رجال طيبون، مجلس الشيوخ حيوان متوحش) عندما يشجع المجتمع آلياً الصفات الجماعية في أعضائه الفرديين، يترك الميدان حراً لكل النواقص، حاصداً بثمن بخس كل من هو في وضع أن يحيا بصورة لا مسؤولة. منذئذ يصبح قمع القيم والعوامل الفردية أمراً محتماً. هذه العملية تبدأ منذ المدرسة وتستمر أثناء الحياة الجامعية. وهي تسم بطابعها كل ما يتعلق بالدولة من قريب أو بعيد. كلما كان الجسم الاجتماعي صغيراً كانت فردية أعضائه مضمونة وكبرت حريتهم النسبية وإمكانيات تحمل المسؤولية بوعي. خارج الحرية، لا يوجد أخلاقية. ويزول إعجابنا بالتنظيمات الضخمة عندما نستشف الوجه الآخر للقلادة المصنوع من تراكم وإبراز هائلين لكل ما هو بدائي في الإنسان، وتدمير محتم للفردية لصالح الهدرة[23] التي هي بشكل نهائي وحتمي أي منظمة كبيرة. لقد تحو ل قلب الرجل المعاصر، المصنوع طبقاً للمثال الأخلاقي الجماعي السائد، إلى «كهف لصوص»، وهذا ما يكشفه تحليل لاوعيه بصورة بينة حتى لو كان هذا الرجل غير مضطرب إطلاقاً. وبقدر ما يكون؛ متكيفاً[24] بشكل طبيعي مع محيطه، تعجز الحماقات الكبرى، بل الفظاعات الكبرى المقترفة من قبل مجموعته عن إزعاجه ولا تعكر في

الظاهر طمأنينة نفسه شرط أن يؤمن مواطنوه وأمثاله بالأخلاقية الرفيعة للتنظيم الاجتماعي السائد.

يمكن مقارنة تأثير اللاوعي على النفس الفردية بما أتينا على ذكره من تأثير المجتمع على الفرد. لكن، وكما تثبت لنا الأمثلة المذكورة: الأول غير مرئي والثاني جلي. لهذا لا يستغرب أن يكون الفهم معدوماً تجاه التأثيرات التي تمارس على الوعي انطلاقاً من العالم الداخلي، أو أن ينعت الأشخاص الذي يكونون مسرحاً لها بشكل جلي بغريبي الأطوار المرضيين أو حتى بالمجانين. وإذا صادف أن كان أحد هؤلاء الأشخاص عبقرياً حقيقياً، فلن يتم الإنتباه لذلك إلا بعد جيل أو جيلين. بقدر ما يبدو لنا ذلك الذي يغرق في أهميته عادياً وطبيعياً نكون مجردين من الفهم تجاه كل من يترك الدروب المطروقة، ويبحث عما لا تبحث عنه العامة، يحمله نزوعه خارج الأفكار العامة. ونحن مدعون لأن نتمنى للإثنين حس الفكاهة وهي الصفة الإنسانية التي يقول عنها شوبنهاور أنها إلهية حقاً، والتي تجعل الانسان قادراً على الحفاظ على نفسه في حالة من الحرية.

إن الغرائز الجماعية والبنى الأساسية للفكر والإدراك وشعور الإنسان، التي يكشف تحليل اللاواعي فعاليتها ـ تشكل توسيعات للشخصية الواعية بحيث أن هذه الأخيرة لن تتمكن من استقبالها وتحملها دون اضطرابات ملحوظة.

من الأهمية الكبرى إذاً في ممارسة العلاج أن لا ننسى أبداً تكامل الشخصية. لأن الفرد إذا استشعر النفس الجماعية أو فهمها خطأً كملكية شخصية أدى هذا التفسير الخاطئ إلى تكبيل شخصيته بحمولة لا يستطيع تجاوزها فتضل. ولهذا يجب إقامة تمييز بين المحتويات الشخصية ومحتويات النفس الجماعية بأكثر ما يمكن من وضوح.

وهذا التمييز أصعب مما يبدو عليه للوهلة الأولى، إذ تبقى المستويات الشخصية المنبثقة عن النفس الجماعية التي ولدتها متصلة بها بشكل حميمي. من هنا صعوبة الجزم أي محتويات يجب أن تدعى جماعية وأي أخرى شخصية. ولا يمكننا أن ننكر أن الرموز القديمة التي تظهر بشكل متكرر في الإستيهامات والأحلام هي عوامل جماعية. كل الغرائز الأساسية والبنى الأساسية للفكر والشعور جماعية، وكل ما تعارف الناس على اعتباره عالمياً أو عاماً هو جماعي، كذلك كل ما هو معطى ومفهوم ومصنوع أو مقال بصورة شائعة وجارية. وعند النظر إلى الأشياء عن قرب، لا نتوقف عن الاندهاش كم يتضمن علم النفس خاصتنا، والمدعو فردي، عناصر جماعية للغاية.

ولكن بما أن التفرد[25] ضرورة نفسية محتمة تماماً، فإن الوزن الساحق والكلي القدرة للجماعي، الظاهر بوضوح، يجعلنا نتوقع ما يجب أن نهبه من انتباه خاص لهذه النبتة الرفيعة المدعوة «فردية» حتى لا تصبح مسحوقة به تماماً.

يمتلك الكائن الإنساني ملكة المحاكاة التي لها فائدة كبيرة من وجهة النظر الجماعية، ولكنها من وجهة نظر التفرد ضارة أكثر مايمكن. ولا تستطيع الحياة النفسانية والاجتماعية للمجموعات الاستغناء عن المحاكاة: بدونها لا تنظيم للشعوب ولادولة ولانظام ممكن. إذ ليس القانون من يصنع النظام والبنية الإجتماعية ولكنها المحاكاة حقيقة، وهي فكرة يجب أن نضمنها الإيحائية، الايحاء والعدوى العقلية.

ولكننا نرى أيضاً يومياً أن آلية المحاكاة هذه يمكن أن تستخدم ـ وبمعنى أدق يمكن أن تستغل لأنها تكون عندئذ وسيلة استغلال ـ من أجل التمايز الشخصي. يتم ببساطة تقليد شخصية بارزة أو صفة أو نشاط نادر مما يؤدي خارجياً إلى تميز عن المحيط المباشر. ولكن ينتج عن ذلك ـ ويغرينا أن

نقول كمعاقبة ـ اشتداد التشابه مع المحيط الذي ينتقل إلى مستوى اللاوعي حيث يتجلى بصورة رباط قسري. وعلى العموم فإن المباشرة بمحاولة تمايز فردية بواسطة المحاكاة تكون بذلك مغلوطة ومزورة. إنها تفشل غالباً ويبقى الشخص عالقا في موقف مصطنع؛ يجد نفسه في المستوى الذي كان يوجد فيه سابقاً وكل ماحققه من مكسب هو عقم متفاقم.

يجب ألا ندخر عنائنا أو تفكيرنا من أجل اكتشاف مايوجد في الحقيقة من فردي في كل منا، وندرك على الفور كم أن استكشاف الفردية صعب لدرجة لاتصدق.

الحواشي:

1 ـ ولكن ماهي الأنا؟ يعر فها يونغ كالتالي: أعني بالأنا مركب تمثيل يشكل بالنسبة لي مركز الحقل الواعي ويبدو لي أنه يمتلك درجة عليا من الاستمرارية والتماهي مع نفسه. ولكن بما أن الانا هي مركز حقل الوعي فهي لاتختلط مع كلية النفس. إنها مركب بين مركبات أخرى عديدة. هناك مجال إذاً للتمييز بين الأنا والذات بما أن الأنا هي موضوع وعيي في حين أن الذات هي موضوع كلية النفس بما فيه اللاوعي. (ر.ك)

2 ـ انظر ليونغ «الإنسان الذي يبحث عن نفسه»، مذكور سابقاً.

3 ـ انظر ليونغ «نفسانية الخافية»، مذكور سابقاً.

4ـ فارست ـ الجزء الأول ـ مشهد غرفة العمل ـ ترجمة عبد الرحمن بدوي ـ سلسلة المسرح العالمي ـ 232 ـ الكويت ـ يناير 1989 وقد اعتمدنا هذه الطبعة العربية لجودتها وهي ترجمت عن الألمانية مباشرة.

5 ـ نلحظ في قلب الشخص ذاته تداخل هذين الموقفين أي قوة النشوة والاكتئاب وهو تداخل متزامن تقريباً لإنه زوج من الأضداد على الشخص الذي يواجه مشاكله أن يجد بينها طريقه الصحيح وقياسه الدقيق. (ر. ك).

6 ـ سيللا وشاريبد وحشان خرافيان يحرسان مضيق مسينا. يبتلع شاريبد كميات ضخمة من المياه ثلاث مرات يومياً ويبتلع معها السفن العابرة. أما تلك التي تتجنبه فتقع في فخ سيللا، وهو وحش له ستة رؤوس، فيلتهمها. لذلك تشير عبارة «الوقوع بين سيللا وشاريبد» إلى الوقوع بين خطرين لامفر من أحدهما (م).

7 ـ برميثيوس: يتحد ر بروميثيوس من عائلة من الآلهه، أحسن إلى الإنسان عندما سرق شعلة النار من الآلهة وخبأها في قضيب أجوف. جلب عليه هذا العمل الجريء نقمة الآلهة الذين قيدوه في قمة القوقاز. وقد أكل له أحد النسور كبده الذي كان ينبت باستمرار. ثم قام هيراقليس بقتل النسر وتحرير بروميثيوس. (م)

8 ـ يلمح يونغ هنا إلى واقع أن تطبيق الشخص للتحليل على علمه الفتي والجديد يؤدي إلى تصورات موضوعية حقيقية وصحيحة. ولكن تطبيقها خبط عشواء ومع نقص الخبرة قد يؤدي إلى تؤيلات تعسفية ومجانية وكذلك إلى إسقاطات مجردة من أي أساس. يجب أن نلجأ دائماً إلى خبرة محلل محنك لمعرفة تنوع النفوس الإنسانية

اللامتناهي ومن أجل التصدي كما يجب للتعميمات التعسفية (وهي تعسفية على مستوى الوعي وبشكل أشد عندما تكون المستويات اللاواعية معنية). بالتأكيد لاينفصل العمل التحليلي عن حد أدنى من التأويل، شرط أن يتم بعد تحصين أنفسنا بكل الاحتياطات الممكنة؛ وهي تتضمن قبل كل شيء: معرفة مفصلة بحياة الشخص وجمعاً دقيقاً لمضامينه الترابطية، الفكرية والانفعالية، حواراً وجدلاً ذاتياً ومواجهة حالة فردية مع فرضيات عمل واسعة. فالمحلل لايقدم شيئاً لم يتفحصه ويزنه مع محدثه بعناية وخطوة فخطوة.

هذه المجموعة من الاحتياطات والمحاذير لاتحرم الممارس المتنور من اكتشافات مفاجئة وغريبة عن كل مقدماته، وهي مقدمات تترك المواجهة الإنسانية مفتوحة. ولكن المستجد الخاضع للتحليل ينطلق مجرداً منها ليطبق علمه الجديد على الآخرين بطريقة منفلتة. أول ماينقص تأويلاته المتسرعة الدعم الاساسي للالتقاء مع كل ما يمكن أن تقدمه للمارس المجرب. (ر.ك)

9 - انظر لكارل غوستاف يونغ «الإنسان يبحث عن نفسه». مذكور سابقاً.

10 - A. Maeder - Psycholgische untersuchung an dementia praecox - kranken. Injahrbuch fur psychoanalytische und psychopathologische forschungen. 1910 - 2 - P.. 209 et ss

11 - يمكننا أن نجد الظواهر التي توجد عند الكائنات الطبيعية بدرجة خفيفة بشكل أكثر وضوحاً وبروزاً عند المرضى العقليين. عندما كنت طبيباً في عيادة الطب النفسي في زيوريخ جعلت أحد المستجدين يزور قاعات المرضى. ولم يكن قد رأى بعد منفى للمعتوهين. وقد هتف عندما انتهينا: «هذا رائع، عندكم هنا كل مدينة زيوريخ بشكل مصغر. اننا أمام خلاصة للسكان، كما لو أننا اخترنا من الأنماط الإنسانية التي نصادفها يومياً في الشارع أكثرها كلاسيكية ودلالة! كل غريبي الأطوار ومجانين المدينة في نماذجهم والأكثر ندرة وتعبيراً عن كل ظروف الحياة ومستوياتها». لم يحدث لي أن قاربت الأشياء من هذه الزاوية أبداً، ولكن هذا الرجل كان على حق في جزء كبير (يونغ).

12 - إن التحليل الذي يعمل ويناضل من أجل ترتيب وتمايز الانفعالات فيما يتّفق على تسميته علم النفس الإنساني - والذي غالباً مايبدو للوهلة الأولى كمستنقع كئيب - يشكل إذاً عملاً حضارياً بامتياز. (ر. ك)

13 - بروسبرين: آلهة الجحيم في الديانة الرومانية. (م)

14 - أنظر ليونغ «الأنماط النفسانية» - مذكور سابقاً. يدعو ليون دوديه L. Daudet هذه

العملية في كتاب HEREDO بالتلقيح الداخلي الذاتي، ولكنه يعني بذلك إنعاش نفس سلفية. (ر.ك)

15 - أنظر بلولر في كتابه عن الفصام والعته: Eugen Bleuler -Dementia praecox oder gruppe der schizophrene in handbook der Psychiatrie 1911.

16 - انظر ليونغ «مشكلات النفس المعاصرة»، مذكور سابقاً.

17 - انظر لجانيه «الأعصبة»:

P. Janet - les neuroses - Flammarion - Paris - 1909

18 - يبدو أن المعاش في الطفولة يضبط ويوجه الكائن نحو هذا الميل أو ذاك. (ر. ك).

19 - سيجموند فرويد - الطوطم والتابو - ترجمة بو علي ياسين - دار الحوار - اللاذقية 1983.

20 - إن التصحيح بأن استنتاجات ونتائج علم نفس يهودي في أساسه صالحة للجميع خطأ لا يغتفر. كذلك إن اعتقاد أحدهم أن علم النفس الصيني أوالهندوسي صالحاً وملزماً لنا فكرة خرقاء، وأن اتهامي بمعادات السامية بسبب هذا النقد لايقل تفاهة عن اتهامي بحكم مسبق بمعاداتي للصينية. بالتأكيد تمتلك الأعراق الإنسانية في أحد مستويات التطور النفسي الأكثر إيغالاً في العمق، حيث يستحيل إيجاد اختلافات بين الذهنيات الآرية والسامية والحامية والمنغولية، نفساً جماعية مشتركة. ولكن فروق أساسية في النفس تنشأ مع ظهور تمايز الأعراق. لهذا لايمكن أن تنقل عقلة الاعراق الغربية الى ذهنيتنا كليا دون أن نسبب لهذه الأخيرة ضرراً حساساً. ومع ذلك فهذا لا يمنع العديد العديد من الأشخاص الذين يعانون من ضعف فطري في طبيعتهم من احتذاء الفلسفة الهندوسية بشكل مصطنع (يونغ).

21 - C.G Yung. Present Buchet Chastel. Paris 1962. p.160

22 - لأنهم في لا وعيهم يتلوثون بالظل الذي يتلقّى كل ما هو سيء ومرفوض نفسانياً. (ر. ك)

23 - الهدرة: وحش مائي هائل.

24 - أنظر ليونغ الأنماط النفسانية - مذكور سابقاً.

25 - إن التفرد عملية تمايز تهدف إلى تطوير الشخصية الفردية ليس الفرد وحده فقط، إذ أن وجوده يفترض علاقات جماعية لذا فإن صيرورة التفرد لا تقود إلى العزلة وإنما إلى تماسك جماعي أكثر اتساعاً وعالمية. الأنماط النفسانية. مذكور سابقاً. (ر. ك).

الفصل الثالث

القناع، عنصر مكون للنفس الجماعية

نتناول في هذا الفصل مسألة توشك أن تؤدي إلى لبس كبير إذا ما نسيت أو أهملت. كنت أظهرت فيما سبق أن تحليل اللاوعي يدخل أولاً إلى الوعي محتويات فردية وشخصية؛ ولهذا اقترحت تسمية أجزاء اللاوعي المكبوتة، والتي يمكنها مع ذلك أن تصبح واعية، باللاوعي الشخصي. ثم بينت أن إلحاق طبقات أعمق من اللاوعي، وهي طبقات اقترحت أن تسمى باللاوعي الجماعي، يحتم اتساعاً للشخصية يؤدي إلى حالة تضخم.

وتأتي هذه الحالة العقلية الخاصة من مواظبة التحليل، كما حاولت أن أشير إليه من خلال المثال المذكور: إن بعض الصفات الأساسية والعامة وغير الشخصية، إرث الإنسانية جمعاء، تجد نفسها منضمة إلى الوعي بمتابعة التحليل، ممايحتم هذا تمدداً لامشروعاً ندعوه تضخماً، وهو مايجب أن نرى فيه نتيجة محزنة لعملية الوعي[1]. إن الشخصية الواعية جزء اعتباطي تقريباً من النفس الجماعية.

إن الشخصية الواعية هي مجموع المعطيات النفسية التي نشعر أنها شخصية. وصفة «شخصي» تعبر عن الإنتماء إلى شخص محدد. إن وعياً شخصياً فقط من حيث الأساس، يشدد بذلك وبشكل قلق علي حقوق الملكية والتأليف تجاه محتوياته العقلية، محاولاً بذلك خلق شمولية في مستوياتها[2]، أما فيما يخص كل المركبات الفكرية ـ الوجدانية التي لا

يتوصل الوعي إلى إحاطتها مع المجموعة فهو يحذفها وينساها أو يرفضها ويكبتها. ويوافق هذا من منظور ماعملية تربية ـ ذاتية، ولكنها تربية ذاتية اعتباطية وعنيفة جداً: علي الشخص أن يضحي بكثير من المكونات الإنسانية لصالح صورة مثالية عن نفسه، يرغب أن يقتدي بها. لذا فإن هؤلاء الأفراد الشخصيون جداً هم في الوقت ذاته حساسون جداً إذ يكفيهم أي شيء حتى يصطدموا بمظهر من مظاهر طبعهم الحقيقي (أي الفردي) الذي يرفضونه ويرفضون أن يعوه.

لقد أطلقت تسمية القناع على ذلك الجزء من النفس الجماعية الذي غالباً مايتطلب تحقيقه كثيراً من الجهود. إن لفظة القناع تعبر لحسن الحظ عما يجب أن تشير إليه، بما أن القناع أصلاً هو القناع الذي يرتديه الممثل ويشير إلى الدور الذي سيظهر فيه. وبالفعل، إذا جربنا أن نغامر، محاولين تبين مايجب اعتباره مواد شخصية عما يجب فهمه على أنه عناصر نفسية غير شخصية، فلن نتأخر عن الوقوع في حيرة كبرى. ني الواقع يجب أن نقول عن عناصر القناع، ما كنا نقوله أعلاه عن اللاوعي الجماعي، أي أنها عامة. وحده وضع القناع، من حيث أنه قطاع مقتطع بالمصادفة أو بصورة اعتباطية، قاد إلى اعتباره بمجمله كشئ فردي. والحال أن القناع، وكما تدل تسميته، ليس إلا قناعاً يخفي جزءاً من النفس الجماعية ويعطي في الوقت ذاته وهماً بالفردية؛ قناعا يدفع الآخرين ويدفعنا نحن إلى الإعتقاد بأن الكائن المعني فردي، في حين أنه في العمق يلعب ببساطة دوراً تعبر معطيات وضرورات النفس الجماعية عن نفسهامن خلاله.

عندما ننصرف إلى مهمة تحليل القناع ننزعه ونرفعه، فنكتشف أن ما كان يبدو فردياً هو جماعي في العمق: بعبارات أخرى لم يكن القناع إلاقناع إذعان عام للسلوك لجبرية النفس الجماعية. كما يجب أن ندرك، إذا ذهبنا إلى عمق الأشياء، أن القناع ليس حقيقياً، إنه لايتمتع بأية واقعية

خاصة، فهو مجر د تشكل اتفاقي بين الفرد والمجتمع ورد على التساؤل حول معرفة الشكل الذي يجب أن يظهرفيه الأول في قلب الثاني. فلان من الناس يحمل اسماً أو اكتسب صفة ويتحمل مسؤولية يمثلها ويجسدها: أحدهم هو هذا والآخر هو ذاك. بالتأكيد من الطبيعي أن لذلك معنى ومبرراً ما؛ على أية حال إن قناع الشخص مقارنة بفرديته، ليس إلا واقعاً ثانوياً أو حيلة بسيطة أو اتفاقاً غالباً ما يساهم الآخرون في تشكيله أكثر من الشخص المعني نفسه. ليس القناع إلا مظهراً، وربما يمكننا أن نقول في فورة إنه حقيقة ذات بعدين.

لكن التوقف عند هذه الاعتبارات يكون غير عادل إذا لم نعترف فوراً بأن شيئاً فردياً يكمن في الإختيار الفريد لقناع شخص ما وفي لا محدوديته كما يتم اختيارها.

على الرغم من التماهي الخاص للأنا الواعية مع قناعها، تكون الذات اللاواعية، أي الفردية بمعنى أصح، حاضرة دائماً، وهي لم تتأخر عن ممارسة تأثيرها في الاختيار الذي تحقق، إذالم يكن بصورة مباشرة فبصورة غير مباشرة على الأقل.

على الرغم من أن الأنا الواعية تتماهى أولاً مع القناع ـ ذلك التشكل الاتفاقي الذي يتقدم الفرد بواسطته إلى الجماعية وينشط فيها وفقاً له ـ لن يكون قمع الذات اللاواعية لدرجة التوقف عن الإحساس بها ممكناً. يتجلى تأثير الذات أولاً في الطبيعة الخاصة لعناصر اللاوعي من أجل تعويض وموازنة الموقف الواعي، كما يحدث مثلا في الأحلام. إن موقف الوعي الشخصي تماماً يحتم من جانب اللاوعي ردات فعل تكشف إلى جانب محتويات شخصية مكبوتة عن مشروع تطور فردي غالباً ما يعبر عن نفسه عبر حجب الاستيهامات الجماعية.

إن تحليل اللاوعي يوصل عناصر الشخصية والمواد الجماعية إلى الوعي

في وقت واحد. وأنبه إلى أن هذه النتيجة تبدو غير مفهومة بالنسبة إلى شخص غير متآلف مع مفاهيمي وتقنيتي. وهي بشكل خاص، حالة كل من تعود مقاربة اللاوعي من منظور النظريات الفرويدية.

ولكن إذا تفضل القارئ بالرجوع إلى مثال طالبة الفلسفة المذكور سابقاً فيمكنه أن يشكل فكرة تقريبية عما أريد قوله. لم تعِ المريضة في بداية علاجها أن ارتباطها بأبيها هو إعاقة لها وأنها تبحث، بسبب هذا التثبت الأبوي الفائض، عن رجل مشابه تدنو منه على المستوى الفكري. وكان يمكن أن لايكون هذا الأمر مدمراً لهذه الدرجة لو لم يمتلك وعيها بالتحديد خاصة رافضة بفرادة، وهو هوس الرفض الذي نصادفه لسوء الحظ بشكل شائع عند النساء اللواتي توجههن وظيفتهن الفكرية.

وبما أن مثل هذه الوظيفة تتملكهن، فهن يسعين دائما لأن يثبتن للآخر أنه مخطئ؛ إنهن ناقدات بامتياز ويمتلكن موهبة إطلاق وخزات مزعجة مدعيات تجسيد الموضوعية.

بالطبع يتميز مثل هذا الموقف بقدرته على إغاظة الرجال إلى أقصى حد، إنه يوقظ فيهم مزاجاً سيئاً، خاصة عندما ينصب النقد الأنثوي - وهذه هي الحالة غالباً - على نقطة ضعف حساسة كان يجدر تجنبها لصالح نقاش عاقل.

والحال أن البحث عن نقاط ضعف الشريك والتمسك بها من أجل إقلاقه أكثر من البحث عن نقاش بناء ومثمر، هي خصوصية مثل هذا الفكر الأنثوي. ولا يعود هذا الموقف لنية مقصودة في أغلب الأحيان بل ينطلق من غائية لاواعية وهي إجبار الرجل على أن يظهر متفوقاً حتى يتوفر لدى المرأة موضع إعجاب مشروع. على العموم، إن الرجل الذي لايلاحظ أن هذا الدور من النقاش يرمي إلى حشره في دور بطولي، يفوته تماماً

التقاط ذلك التسلسل النهائي. إنه يجد أن هذه المجادلات مقيتة فقط ثم يميل أكثر إلى تغيير طريقه بدلاً من المجازفة بالتقاء السيدة المذكورة، مما يجعل أن امرأة تمتلك هذه الطباع لن تهاجم غالباً الا هؤلاء الذين يستسلمون لها كلية، ولهذا السبب لن تستطيع أن تعجب بهم.

هذه الإيضاحات دفعت مريضتي إلى التفكير، ولم تكن حتى الساعة قد شكت مطلقاً بوجود اللعبة التي تحاك في داخلها. كان عليها في المقابل أن تعي الرواية الحقيقية التي دارت بينها وبين والدها منذ طفولتها وتتمثلها. وإن الوصف التفصيلي لحالة هذه المريضة التي أصبحت متواطئة مع أبيها لاشعورياً وفي الخفاء منذ طفولتها الرقيقة، خاصة بعد انفصاله عن زوجته، وكيف أصبحت بالتالي منافسة لأمها بصورة مبكرة جداً نسبة لعمرها، يقودنا بعيداً جداً.

لقد انكشف لنا كل ذلك بتحليل اللاوعي الشخصي للمريضة. وقد كان علي لحوافز مهنية ألا استسلم للقلق، فأصبحت بالتأكيد بطلاً من نوع ما وأبا ـ عاشقاً. وكان هذا التحويل وبحسب التقديرات الأولية يظهر كأنه يعبر عن محتوى من اللاوعي الشخصي. والحال أن دوري كبطل لم يكن مظهراً. في الواقع لقد حولتني مريضتي إلى شبح بسيط ولعبت هي، من جانبها، دورها التقليدي كأم ـ فتاة عاشقة ذات قلب كبير، تستوعب كل شيء وتتميز بسعة المعرفة.

بالطبع لم يكن كل ذلك إلا دور قناعها الذي بقي كيانها الحقيقي والواقعي، أي ذاتها الفردية، مختبئا خلفه. زد على أنه بتماهي المريضة مع دورها تماماً بقيت لاتعي نفسها بشكل كامل. كانت لاتزال تحيا مغلفة بضباب عالم طفولتها ولم تكن حتى ذلك الوقت، بمعنى دقيق، قد اكتشفت العالم الحقيقي.

ولكن، مع تقدم تحليلها وإدراكها لتحويلها، تجلت أحلامها التي كنت

أتحدث عنها في الفصل الاول. كشفت هذه الأحلام عناصر من اللاوعي الجماعي، تحررت بفضلها شيئاً فشيئاً من سيطرة عالمها الطفولي، واختفى الدور البطولي والحبكة البطولية التي جعلتني أقوم بتمثيلها. توصلت إلى أن تصبح نفسها، وأن تحيا قدراتها الخاصة وإمكانيتها الحقيقية. وعموماً، تسير غالبية حالات المعاودين الذين يواظبون ويتطورون بشكل كاف في تحليلهم بهذه الطريقة. ولكن أن يلتقى، أثناء تطور المريضة، اكتشاف الفردية وادراكها مع انبثاق صورة قديمة لله من أعماق، لا يشكل بأية حال حدثاً استثنائياً، بل على العكس، إنه حدث شائع جداً يخضع بحسب رأيي لأحد قوانين الحياة اللاواعية ولكن فلنعد بعد هذا الاستطراد الى موضوعنا.

بدءاً من اللحظة التي تصبح فيها المكبوتات الشخصية مقيمة ومنكشفة ومزالة تظهر عناصر الفردية وعناصر النفس الجماعية ممزوجة بشدة لتنوب عن الأستيهامات الشخصية المكبوتة سابقاً. وترتدي الأحلام وتجليات المخيلة التى تظهر عندئذ طابعا آخر. ويبدو أن العلامة الأكيدة للصور الجماعية هي مظهرها الكوني، أي وجود نوع من رباط داخلي يجمع صور الأحلام والإستيهامات إلى وقائع كونية كاللانهاية المكانية أو الزمانية السرعة أو الحركة أو تمدد كبير، صلات تنجيمية وتماثلات أرضية أوشمسية أو قمرية، تغيرات أساسية في مقاييس الجسم الخ... كما أن ظهور حوافز أسطورية أودينية أثناء الحلم يشهد على نشاط اللاوعي الجمعي. وغالباً مايعبر العنصر الجماعي عن نفسه بواسطة أعراض فريدة[3]، كأن يشعر المريض أثناء أحلامه أنه يعبر السماء كشهاب، أو أنه الأرض أو الشمس أو النجوم؛ أو يرى نفسه في أحلامه متمتعاً بضخامة لا نهائية أو ضآلة قصوى؛ أو يحلم الشخص أنه ميت وبأنه يوجد في أماكن مجهولة وغريبة عنه وبأنه مصاب بالتخليط الذهني أو الجنون الخ... كما

يمكن أن يظهر في تسلسل الأفكار هذا أحاسيس توهان ودوار، تحمل المعنى ذاته، وهي غالباً ماترافق أعراض تضخم نفساني.

إن إمكانيات التعبير التي تتوفر للنفس الجماعية هي من الغنى والغزارة بحيث تتركنا مرتبكين ومندهشين. إن تحلل القناع يؤدي إلى تحرر وانطلاق الخيال اللاإرادي الذي يبدو أنه النشاط النوعي للنفس الجماعية. وهذا النشاط يوصل إلى الوعي محتويات نفسانية لم يخطر ببالنا وجودها سابقاً. ولكن بقدر مايكتسب اللاوعي الجماعي من تأثير، ينحسر موقع الوعي المسيطر كقوة موجهة، يتحول شيئاً فشيئاً ممن يقود إلى ماهو مقاد، توجهه تدريجياً صيرورة لاواعية وغير شخصية. هكذا تجد الشخصية الواعية نفسها بيدقاً بين أخر على رقعة لاعب لامرئي، دون أن تلحظ جيداً مايحصل لها. وهذا اللاعب اللامرئي هو الذي يقود اللعبة التي يرتبط بها مسار المباراة وليس الوعي وقصدياته. وبهذه الطريقة وبانعطافات من هذا النوع يتحقق تحرر التحول الذي كان يبدو للوعي مستحيلاً وغير وارد.

يصبح الانطلاق الآلي لهذه العملية حتمياً كل ما ظهرت ضرورة تجاوز وتذليل صعوبة يتعذر حلها من حيث الظاهر.

بالطبع أؤكد أن هذه الضرورة لاتصادف في كل حالات العصاب، إذ ربما يكفي في معظمها المساعدة على تذليل صعوبات التكيف.

ولكن شفاء الحالات الحادة والثقيلة لا يتم دون تغيرات في الطباع وفي الموقف من مواجهة الحياة. فيما يتعلق بمعظم حالات المريضات اللواتي يراجعننا يتطلب تكيفهن مع حقائق وجودهن قدراً من الجهد بحيث يصبح التكيف مع اللاوعي الجمعي مهمة مؤجلة لفترة طويلة. لكن عندما يصبح التكيف مع العالم الداخلي حاجة ومشكلة، ينبثق في الحال من اللاوعي جاذبية فريدة لاتقاوم تؤثر بصورة نهائية على المحور العام للحياة الواعية. إن طغيان التأثير اللاواعي مضافاً إلى تحلل القناع وانخفاض قدرة

الوعي الموجهة، يحدث حالة من اختلال التوازن الذي اصطنع في حالة المعالجة التحليلية من أجل هدف علاجي، وهو حل صعوبة كانت تعيق كل تطور لاحق.

بالطبع يوجد عدد هام من العقبات التي يمكن تذليلها بواسطة نصيحة جيدة، أو تشجيع معنوي، وتفهم، أو بفضل ارادة طيبة من جانب المريض. ويمكن الحصول على شفاءات رائعة جداً بهذه الطريقة، دون أن يوجد مجال لذكر كلمة واحدة تتعلق باللاوعي.

في المقابل هناك صعوبات لاندرك أبداً ماهو الحل الممكن والمناسب لها. إذا لم يكن الأشخاص الموجودين في هذه الحالات قد أبدوا اضطرابات في توازنهم النفسي قبل العلاج، فمن المؤكد أن شيئاً منها سيظهر أثناء العلاج وغالباً دون أن نتمكن مطلقاً من اتهام الطبيب.

إذ يبدو أن الأشياء تحدث كما لو أن هؤلاء المرضى كانوا ينتظرون الإلتقاء برجل صالح يثقون به ومسموح لهم أن يركنوا إليه، حتى يستسلموا وينهاروا. إن خسارة مماثلة للتوازن تشبه من حيث مبدئها اضطراباً ذهانياً؛ أي أنها لا تتميز عن المراحل الأولية لمرض عقلي إلا بالواقع التالي: إن خسارة مماثلة للتوازن تزول فيما بعد وتتطور نحو حالة صحة أفضل، في حين أن بدايات مرض عقلي تؤدي إلى أضرار لا يمكن إصلاحها. ويشكل هذا النبذ للذات حالة رعب وانهياراً في مواجهة بلبلة تبدو بلا أمل. وتسبق هذه الحالة عادة جهود يائسة للإرادة من أجل تجاوز هذه الصعوبة. ثم تأتي الهزيمة التي تعلن انهيار الإرادة الموجهة حتى اللحظة، فتتحرر من جراء ذلك كتلة من الطاقة، تختفي من الوعي وتسقط في اللاوعي. الواقع أن العلامات الأولى لنشاط لا واع تنبثق في مثل هذه الأوقات (أحيلكم إلى مثال الرجل الشاب الذي حاول سرقة المرصد). هكذا وبشكل جلي تحرك الطاقة التي تترك الوعي اللاواعي. ويحدث

بالنتيجة تغير جذري لمعنى الأشياء والحياة وتحول تام في ذهن المريض.و بالفعل، يمكننا في حالة مريضنا الأخير أن نتصور بسهولة أن عقلاً بناؤه أصلب كان وجد في رؤياه استنارة مفيدة، تقوده إلى مقاربة ألمه الإنساني من منظور الأبدية، الأمر الذي كان من الممكن أن يرد إليه عقله السليم كنتيجة لذلك(4).

بهذا الشكل يمكن لصعوبة معقدة في ظاهرها أن تجد حلاً. ولهذا أعتبر أن فقدان التوازن قد يكون أمراً منقذاً، إذ بفضله يستبدل الوعي المنهزم بالنشاط الآلي والمرشد للاوعي. وهذا يرمي إلى توازن جديد، وهو هدف نستطيع بلوغه شرط أن يكون الوعي قادراً على تمثل المحتويات التي ينتجها اللاوعي، أي أن يتفهمها ويدمجها.

إذاً يوجد بالفعل عدة احتمالات ممكنة عند هذا المنعطف، والذي ذكرناه للتو هو الأمثل. ومنها احتمال آخر: إذا ابتلع اللاوعي الوعي ودمر الحيثيات الواعية أدى ذلك إلى حالة ذهانية. وأخيراً فالإمكانية الثالثة هي التالية: لا يمكن للاوعي أن يحقق مداً تاماً كما في الإحتمال الثاني دون أن ينشأ التفهم الخلاق للإحتمال الأول فيحدث عندئذ صراع يشل كل إمكانية تقدم وتطور.

هكذا إذاً نرى كل مايتعلق بإمكانية الوعي أو عدم إمكانيته على تفهم اللاوعي الجماعي. وتشكل مسألة تفهم اللاوعي الجماعي مسألة هامة هي موضوع الفصل التالي.

الحواشي:

1 - إن اتساع الوعي كنتيجة مؤسفة ليس ظاهرة خاصة بالمعالجة التحليلية. إنه ظاهرة تنشأ في كل مرة يواجه فيها الرجل معرفة أو علماً جديداً يرهبه ويسمره. «المعرفة تضخم الكبرياء» هذا ما كتبه بولس في رسائله إلى الكورنثيين، لأن التعليم الجديد كان قد فتن رؤوس بعضهم، كما يحدث دائماً. إن التضخم المستقل عن طبيعة المعرفة تسببه معرفة جديدة تستطيع أن تستحوذ على عقل ضعيف لدرجة أن يجد نفسه مسيراً بها، كأنه نام مغنطيسياً، لا يسمع ولا يرى شيئاً ويعتقد أنه قد اكتشف سر العالم. إن هذا الاختفاء للعقل النقدي لا يمر دون أن يؤدي إلى حماس متكبر ومدع للأنا.

والحال أن هذه الظاهرة ردة فعل عامة وعالمية، إذ أن واقعة تذوق ثمرة شجرة المعرفة تسبب السقوط في الخطيئة وتؤدي إلى الموت. سفر التكوين (الإصحاح الثاني - 17). بالتأكيد قد نعاني في البداية من صعوبة في فهم لماذا يعتبر تزايد الوعي الذي يترافق بحفنة كبرياء وببعض الادعاء خطيراً إلى هذا الحد. يمثل التكوين اكتساب الوعي على أنه خرقاً للتابو، وتحدث الامور كما لو أن الانسان قد تجاوز عن غير حق حدوداً قدوسة.

أعتقد أن سفر التكوين على حق من حيث أن كل خطوة نحو وعي متسع تؤدي إلى نوع من «الذنب البرميثي»: إن ارتياد معرفة جديدة يشبه سرقة النار، وهو يرتكب بحق الآلهة، مما يعني بلغة نفسانية أن عنصراً مرتبطاً بالقدرات اللاواعية ينتزع من هذا الاتصال الطبيعي ليخضع لاعتباطية الوعي. وبالمقابل فإن الإنسان الذي استغل هذه المعرفة الجديدة يتحول وعيه ويتوسع بحيث لا يشبه معاصريه أبداً. إن الترفع فوق الشرط الإنساني ولو للحظة يحقق رمزية «ستكونون شبيهين بالله» بشكل جزئي ويبتعد بالعملية ذاتها عن عامة الناس. وإن قلق الوحدة هو انتقام الآلهة. إنه يرقد كما تقول الأسطورة مكبلاً إلى صخور القوقاز وقد نبذته الآلهة والناس. (يونغ).

2 - إنه ما يشعر الذي الانسان بنقصه والحاجة إليه بشكل غامض (ر.ك)

3 - من السهل أن تلاحظ أن العناصر الجماعية لا تظهر في الأحلام في هذه المرحلة من التطور التحليلي فقط، فهناك عدد كبير من الحالات النفسية تنشط فعالية اللاوعي أثناءها. (يونغ)

4 - Theodore Flournoy - Automatisme teleologique antisuicide, un cas de suicide - empeche par une hallucination in archives de psychoiogie 1908 p. .113 - 137 C. G. Yung Psychologie der Dementia praecox, 1907 p.174

الفصل الرابع

محاولات من أجل استخراج الفردية وتحريرها من النفس الجماعية

1 - إعادة التشكيل النكوصي للقناع:

ليس أمراً بسيطاً أن نرى انهيار الموقف والبنى الواعية عند كائن إنساني. إنها نهاية حقيقية للعالم بشكل مصغر، إذ يتشكل لدى الشخص انطباع بأن كل العناصر التي كانت تؤلف حياته قد ارتدت إلى شكل من العماء البدئي. ويشعر أنه منبوذ وتائه ومقهور إلى أقصى درجة، إنه مثل مركب بلا دفة تتقاذفه هيجانات العناصر. هذا على الأقل ما يبدو أنه يحصل وانطباع الشخص عنه. ولكن التجربة تظهر أن الحقيقة مختلفة قليلاً: في الواقع، لقد ارتد الكائن الذي هجره وعيه إلى مستويات لاوعيه الجماعي التي استسلم لها والتي تتحمل من الآن فصاعداً تحديد الوجهة.

يمكننا مضاعفة الأمثلة عن هذه الحالات حيث ينبثق، في وقت حرج، فكر مخلص أو رؤيا أو صوت داخلي، له ما للإستنارة من قوة إقناع، يعطي للحياة الفورية والمستقبلية توجهاً جديداً. ربما يمكننا أيضاً أن نذكر حالات أخرى حيث يكافئ انهيار الوعي كارثة تدمّر الحياة، إذ ليس من النادر أن نتبين أن تفسيرات وقناعات مرضية تحل في عقل المريض وتتملكه في أوقات الذروة هذه، أو أن المثل التي تحركه تفنى، وهو ما لا يقل ضرراً.

يخلق الإحتمال الأول، أي الإستنارة المخلصة، حالة من الفضول النفساني أو حالة من الذهان؛ ويحتم الإحتمال الثاني حالة من التوهان والإنهيار الأخلاقي.

ولكن إذا دخلت المحتويات اللاواعية إلى الوعي وأغرقته، منتهزة بشكل ما الفراغ الحادث فيه، وحركته بقوة الإقناع التي تميزها، يصبح التساؤل المطروح هو معرفة كيف سيرتكس الفرد لهذا التكوكب الجديد تماماً. وأدع جانباً الحالة المثالية وهي حالة التفهم الدقيق للموقف[1].

هناك احتمالان ممكنان: يلتزم المريض في الإحتمال الأول بالمحتويات اللاواعية التي تنير عقله من الآن فصاعداً بكل قوى اقناعها. أي يؤمن بها. وفي الإحتمال الآخر يرفض أي تصديق لها ويستبعدها.

إن الإحتمال الأول هو الإحتمال الذي يحدد الزوران أو الفصام. أما الإحتمال الآخر فيجعل من المريض شخصاً فريداً، نبياً على طريقته، أو كائناً طفلياً يبتعد، من كثرة النكوص، عن جماعة أمثاله.

أما بالنسبة للحالة التي كنا نغض النظر عنها أعلاه، أي حالة الفهم الحساس، فهي مثالية، لأن هذا الفهم هو الذي يحتم إعادة التشكيل النكوصي للقناع. وإن هذه المعادلة، التي تتبدى تقنية جداً تجعل القارئ يفكر أن الأمر يتعلق بردة فعل نفسية معقدة نشأت في إطار المعالجة التحليلية. والحال أن الاعتقاد بأن التحليل هو الاطار الوحيد الذي تنشأ فيه ردة الفعل هذه هو أمر خاطئ. إذ يمكننا مشاهدة هذه العملية، وغالباً بشكل أفضل مما نراه في التحليل، في ظروف الحياة الأخرى وخاصة في لحظات الوجود التي يتدخل فيها القدر الغاشم كمصيبة مدمرة. بالتأكيد من حق كل شخص أن يخضع لضربات الحظ، ولكن الأمر يتعلق عادة بجروح تلتئم دون أن تترك إعاقات. إلا أني أشير هنا إلى تجارب معاشة مدمرة تحطم الكائن تماماً أو تجعله معاقاً بصورة دائمة. فلنأخذ مثال رجل

أعمال وجد نفسه يوماً ما، بعد أن انطلق في مضاربات جريئة، متورطاً في قضية إفلاس. إذا لم يستسلم للإحباط والاكتئاب، وحافظ على جرأته التي ستضيف إليها هذه التجربة لمسة التأني التي كانت تنقصه، يشفى جرحه دون أن يترك إعاقة. وعلى العكس، إذا خسر كل شجاعته وتراجع عن كل روح مبادرة وانصرف بجد إلى ترميم صورته الاجتماعية فقط، في إطار شخصية أكثر انحساراً، متحملاً ببساطة من الآن فصاعداً وبذهنية طفل خائف عملاً أدنى في وظيفة صغيرة هي حتماً دون مستوى إمكاناته، يكون في هذه الحالة - من أجل استخدام التعبير التقني - قد أعاد تشكيل قناعه بإجراءات نكوصية. كأن هذا الرجل، تحت وطأة الهلع، انزلق القهقرى إلى مرحلة سابقة من تطور شخصيته. لو حصلت هذه المرحلة في وقتها المناسب لكان تجاوزها منذ زمن بعيد؛ يجد نفسه الآن كأنه متضائل أو ضامر ويعطي الإنطباع بأن الأشياء تحدث مثلما كان عليها أن تحدث قبل التجربة الحرجة. يبدو الأمر وكأنه يصطنع تواضعاً كبيراً في حين أنه لم يعد قادراً في الحقيقة على أن يفكر في تجديد مبادرة جريئة.

ربما يكون سابقاً قد رغب بأكثر مما يستطيع أن يقوم به، ولكنه لا يجرؤ الآن أن يقوم حتى بما يقدر عليه.

إن مثل هذه التجارب المعاشة قابلة لأن تحدث في كل الظروف وفي كل مجالات الحياة بالأشكال الأكثر تنوعاً؛ لهذا السبب تحدث أيضاً أثناء معالجة نفسية. ويتعلق الأمر، هنا أيضاً، بتوسع للشخصية، بمبادرة جسورة ذات طبيعة داخلية تشبه المبادرات ذات الطبيعة الخارجية. وكما يظهر مثالنا عن طالبة الفلسفة، فإن النقطة الحرجة في العلاج هي التحويل[2] والتجربة المعاشة التي يحتمها. لكن كما سبق وقلت، يمكن أن يحدث أن يدور المريض لا شعورياً حول عقبة التحويل، وبما أن التحليل لم يرتفع في

هذه الحالة إلى مرتبة مسألة مركزية، تطلق مجموعة معقدة ودقيقة من الأفعال وردات الأفعال، يقدم تحليلها للمريض كثيراً من الإضاءات والإدراكات والإيضاحات، فلن يحدث أي شيء أساسي. بالتأكيد من الطبيعي أن يتمنى الطبيب الحصول على العديد من هذا النوع من المرضى بداعي الراحة. ولكن إذا كان المرضى المعنيون أذكياء اكتشفوا من أنفسهم وجود هذه المسألة.

إذا حدث التحويل كما في مثالنا الأول ـ مثال طالبة الفلسفة ـ تحول الطبيب إلى أب عاشق، وشعر بالتالي أن سيولاً من المتطلبات العديدة تنصب عليه؛ يصبح مجبراً بقوة الأشياء على أن يبحث عن وسائل وطرق تسمح له أن يجابه هذا العدوان حتى لاينجر هو ذاته في الدوامة، هذا من جهة، وحتى يخرج المريض منها دون أضرار من جهة أخرى. وبالفعل، يمكن للإنقطاع المفاجئ للتحويل أن يطلق نكسة لا تقل خطورة عن الأذى الأولي وربما أسوأ: لذا يجب مقاربة المسألة والتعامل معها بكثير من الرهافة والحذر.

تعتاش الإمكانية الأولى على أمل أن هذه الاستحالة التي يشكلها التحويل ستتوقف من تلقاء نفسها «مع الوقت». بالتأكيد، كل شئ ينتهي بالتوقف مع الزمن. ولكن، بما أن المهل المطلوبة يمكن أن تكون طويلة جداً، وتستمر الحالة أثناء كل ذلك محملة بمصاعب كبرى لكلا الطرفين، الطبيب والمريض، فمن الأفضل تماماً أن لا نعتمد كثيراً في هذا الخصوص على العامل المساعد أي «الوقت».

ويبدو أن النظرية الفرويدية للأعصبة تقدم من أجل مقاومة التحويل أداة أكثر تفوقاً: تفسر للمريض تبعيته على أنها تشكل حاجة جنسية طفلية تحل محل ومكان استخدام طبيعي ومنطقي للجنسية. وتقدم نظرية آدلر[3]، التي ترى في التحويل ميلاً طفلياً لإرادة السيطرة وتعبيراً عن

«حاجة الأمان»، فائدة مماثلة. تلتقي هاتان النظريتان جيداً مع الذهنية العصابية بحيث لا توجد حالة من العصاب لا نستطيع بذات الوقت أن نفسرها في ضوء كل منهما(4).

إن هذا الأمر الغريب جداً في ذاته، والذي يؤكده كل ممارس لا يحمل تصورات مسبقة، لا يقبل إلا تفسيراً واحداً وهو أن «الجنسية الطفلية» لفرويد و«إرادة السيطرة» لآدلر هما شئ واحد بذاته، رغم كل الخلافات التي تضع مدرسة فرويد في مواجهة مدرسة آدلر. هذا الشئ الواحد بعينه هو بكل بساطة قطعة طبيعية، معلماً من الطبيعة الفطرية البدائية، غير مضبوطة وهي أساساً غير قابلة للضبط، تظهر إلى الضوء في ظاهرة التحويل. إن الأشكال القديمة للتخيل والإستيهامات، التي تنبثق إلى الوعي شيئاً فشيئاً أثناء تطور التحويل وتحليله، تدعم هذا التصور دون الحاجة إلى أية براهين إضافية.

نستطيع أن نحاول بفضل هاتين النظريتين، أن نفسر للمريض كم أن متطلباته طفلية، مستحيلة وغير قابلة للتحقق... عساه يجد في حصيلة الأمر، إذا كان الحظ إلى جانبنا، الأرض الصلبة لسلوك منطقي. ولم تكن مريضتي الوحيدة التي لم تفعل شيئاً من ذلك. بالتأكيد، يستطيع الطبيب بمساعدة هذه النظريات أن يحاول، وهذا صحيح، إنقاذ ماء الوجه والإنسحاب من موقف مضن بإنسانية أكثر أو أقل. وبالفعل هناك مرضى لا يتعلل المجهود الإضافي تجاههم أبداً (أو على الاقل إن بذل مجهود إضافي من أجلهم يبدو غير قابل للتعليل أبداً)؛ ولكن يوجد أيضاً حالات، حيث تؤدي مثل هذه الطريقة في التصرف، وهي محاولة حقيقية لضرب التحويل، إلى ضرر عشوائي على نفس المريض. وقد استشعرت هذا الخطر بغموض في حالة طالبتنا، فاستغنيت بالتالي عن محاولاتي العقلانية لكي أعطي الطبيعة إمكانية أن تصحح بنفسها لغوها الخاص (أو ما يبدو أنه

كذلك)، على الرغم من الحذر الزاجر الذي لم أتوصل إلى إسكاته فيّ. وكما كنت قد بينت أعلاه، لقد اكتشفت، في هذه المناسبة وبهذا الظرف، عاملاً ذا أهمية لاتقدر، وأعني وجود تعديل ذاتي لا واع. لايكتفي اللاوعي بأن يرغب، يمكنه أيضاً أن يلغي رغباته الخاصة. وتبقى هذه المعرفة الجديدة، والهامة جداً لتكامل الشخصية، منيعة على الممارس الذي يتمسك بمفاهيم نظرية بالية، ويعتبر أن الأمر لا يمكن أن يتعلق على مستوى اللاوعي إلا بالطفالة. فتصبح منذئذ منيعة على مريضه الذي يتوقف فجأة على عتبة هذه المعرفة بلا نتيجة ويقول لنفسه: بالطبع لم يكن ذلك كله إلا لغواً؛ أنا حالم ذو نفس مريضة ومن الأفضل لي أن أدفن لاوعيي أو أن أرمي به من عل خافيتي مع كل ما يتعلق به[5]. سيعتقد أن المعنى الوحيد لما كان يتوق إليه بشدة لا ولن يمكنه أن يكون إلا لغواً. ويتعلم، بالتفاته إلى عبثية رغباته التساهل الصحيح وكذلك الإنقياد. ماذا يستطيع أن يفعل منذ الآن؟ يجهد للعودة إلى الحالة السابقة للصراع ويحاول، كيفما كان، أن يعيد تشكيل قناعه نكوصياً، وهو الذي جرد من كل التوقعات والآمال التي أزهرت فيه وأثارت حماسته أثناء التحويل. لهذا السبب يجد نفسه أصغر، أكثر ضموراً ومحدودية، وأكثر عقلانية من أي وقت مضى[6].

لايمكن القول أن هذا المخرج هو بذاته تعاسة لكل الأشخاص، إذ يوجد العديد من الأفراد الذين يرتاحون، بفعل قصورهم وقلة ذكائهم الملحوظة، لنظام معقلن أكثر منه للحرية. إن الحرية تشكل جزءاً من الأشياء الأكثر صعوبة. ومن يكتفي بالحل الخاطئ المذكور أعلاه يمكنه أن يقول مع فاوست:

«والكرة الارضية معلومة عندي بدرجة كافية. والتطلع إلى أعلى صار محجوباً عنا، وأحمق من يصوب نظراته محملقاً هناك، متصوراً أن هناك

أشباهه فوق السحاب! فليثبت إذن هنا وليلتفت حواليه، والعالم ليس مغلقاً أمام الماهر.

فما حاجته إذن إلى السبح في الأبدية. مايدركه يمكنه أن يمسك به. فليكيف نفسه مع يوم الأرض. فان وجد أشباح فليدعها وشأنها وليسلك هو طريقه»[7].

يكون هذا المخرج سعيداً إذا توصل المرء حقيقة إلى التخلص من اللاوعي بأن يطرح منه مقداراً من الطاقة بحيث ينجح في جعله غير فعال. إلا أن التجربة برهنت أن طاقة اللاوعي لايمكن أن تطرح منه إلا بشكل جزئي جداً: وبالفعل، يبقى اللاوعي فاعلاً وفعالاً، لسبب هام وهو أنه يحتوي ويشكل هو نفسه منبع اللبيبدو[8] الذي تنبثق منه العناصر النفسية التي تصنع حياتنا. الإعتقاد بأننا نستطيع، بفضل نظرية أو طريقة سحرية نوعاً ما، انتزاع اللبيبدو من اللاوعي بصورة نهائية، واستبعاد هذا الأخير واختصار الطريق وعزله عن التأثير، يكون إذاً وهماً. بالتأكيد يمكننا أن نعلل أنفسنا به لبعض الوقت، ولكن يأتي اليوم الذي نرى فيه أنفسنا مجبرين أن نقول مع فاوست أيضاً:

«لقد امتلأ الجو بالأشباح، ولا سبيل إلى الفرار منها. وساعات النهار ربما كانت حافلة بالسلامة والعذوبة، أما الليل فليفنى في نسيج من خيوط الأحلام. نحن نعود مبتهجين في الحقول النضرة الفتية، ويصو ت طائر، ماذا يصوت؟ سوء المصير»[9]!

تحتوشنا الخرافات في وقت مبكر وفي وقت متأخر: هذا سعد، هذا إعلام، هذا إنذار. وهكذا نبقى وحدنا، مروعين على هذا النحو. ـ الباب يقعقع، ولا أحد يدخل.

لا يمكن لأحد أن يطرح القوة الفاعلة والخلاقة من اللاوعي اعتباطياً. يمكننا على الأكثر أن ننخدع بذلك. إذ تسير الأمور بمثل ما أنطق به غوته سوسي:

«إذا لم تسمعني أية اذن، فلا بد مع ذلك من أن أسري في القلب، بشكل متحول، أحدث قهراً مروعاً»[10]

هناك ظرف واحد يستطيع أن يقاوم اللاوعي بفعالية وأن يرفع في وجهه حاجزاً، وهو حدوث نكبة خارجية محتمة. إلا أن كل من يمتلك معرفة باللاوعي، مهما كانت هذه المعرفة قليلة العمق، يميز، حتى في الألم المسبب خارجياً، ومختبئاً خلف واجهاته، الوجه ذاته والمظهر ذاته للمسائل والأشياء التي كانت سابقاً تشغل الشخص من الداخل، كما أن مأساة داخلية يمكنها أن تتحول وتتجسد في مأساة خارجية فتؤدي إلى حالة من الحاجة التي بقدر ما تسيطر في حقيقتها وحدّتها الأولين، وبلا تكلف، تستمر الإشكالية النفسية صامتة وكامنة[11].

«لهذا بعد أن أنهكت الأعاصير الجنونية للحياة الاجتماعية فاوست في نهاية الأمر، تلقى النصيحة التالية من مفيستو:

«حسناً! وسيلة لا يحتاج معها إلى طبيب وسحر: إذهب توا إلى الحقل، وابدأ في الحفر والحرث، واحصر نفسك وشعورك في دائرة محدودة جداً، وتغذ بطعام غير مخلوط، وعش مع القطيع كأنك من القطيع.

ولا تترنح عن تسميد الحقل الذي ستحده بسمادك»[12].

والحال أنه من غير الممكن، كما نعلم، تصنع الحياة البسيطة، لهذا السبب مازال من المستحيل، بمثل هذه التصنعات والحركات الخرقاء، تأمين راحة البال والطمأنينة وتجاهل بعض المسائل التي تميّز حياة فقيرة ومستسلمة بلا مقاومة لقدر متسلط ومتطلب. إن الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يحيا حياة مجردة وبسيطة هومن يحمل في ذاته ضرورة مثل هذا الوجود الملزم به بطبيعته، وليس من يقوم بمجرد استشفاف إمكانيته. يبقى الأول أعمى عن المسائل التي تعذب الثاني، لا يصاب بها، ولا تسمح له طريقة تفكيره حتى بالنظر فيها. لأنه لو استطاع أن يميز المسألة الفاوستية

ولو بصورة ملتبسة فلن يكون ذلك إلا من واقع حياته البسيطة. بالتأكيد، لاشيء يمنع هذا الشخص من أن يشغل مسكناً بغرفتين في الريف أو أن يحرث حديقته ويأكل جزراً نيئاً. ولكنه لو استطاع أن يخدع كل العالم من حوله فلن يستطيع أن يخدع نفسه التي ستضحك من هذه الخدعة وتسخر من هذا الغش. إن الشيء الوحيد الذي يمارس قوة شافية هو مانحن عليه في الحقيقة.

إن إعادة التشكيل النكوصي للقناع لا يناسب إلا شخصاً يرد فشل وجوده النهائي إلى حالة خاصة، وهي أنه أراد أن يصبح ثوراً رغم كونه ضفدعاً. يعود هذا المريض مع تضاؤل شخصيته إلى أبعاده الحقيقة، إلى مقاييسه ومهماته التي يستطيع تحملها.

ولكن الخضوع وتقليل الذات اللذين يؤدي إليهما هذا الحل، في كل الحالات الأخرى، ليسا إلا هروباً متخفياً لايمكن المحافظة عليه على المدى الطويل إلا على حساب خمود عصبي.

بالتأكيد، لايرى الشخص، من منظور وعيه، ولايلحظ في نمط حياته الجديد، أي شيء يشبه هروباً أو تورية لواجباته. يبدو له أن مانتج من هبوط خانع هو رد على استحالة مواجهة المسألة من موقعه. على العموم، إنه وحيد، وحيد جداً، بل يشعر أنه منبوذ وأن لاشيء في حياتنا الحديثة، أو تقريباً لاشيء، يمكن أن يقدم له دعماً منقذاً؛ ولاحتى علم النفس الذي يبدو له مضاداً! لأنه لايبدي له في البداية إلا مفاهيم اختزالية تشير أيضاً، إلى الخاصة الحتمية الطفلية والقديمة للمراحل التي مربها. هكذا يصبح علم النفس في نظره غير مقبول. ولن نستطيع أبداً أن نأخذ على المريض كونه لم يفطن إلى أن نظرية طبية يمكنها أن تساعد الطبيب على التخلص من عقبة بلباقة تنقص أو تزيد. إذا بدا أن النظريات الاختزالية التي أشرنا اليها أعلاه مكيفة بامتياز لطبيعة الأعصبة فذلك لأنها ذات فائدة فريدة للطبيب نفسه.

2 ـ التماهي مع النفس الجماعية:

لقد بينا للتو المصاعب والمخاطر التي تنبثق عندما يرتكس الكائن وفق الطريقة كلية العفوية التي أتينا على وصفها وذلك عندما يلقى عالم النفس. الإمكانية الثانية أو الدرب الثاني الذي يمكن للفرد أن يقصده يقوم على التماهي مع النفس الجماعية. وهذا يوازي قبول التضخم، ليس ضمنياً ودون إنتباه وانما بتبصر، ورفع هذا التضخم بشكل ما إلى مستوى منسق. أي أن الشخص الذي يتخذ مثل هذا الموقف يشعر منذ الآن أنه الممتلك السعيد للحقيقة الكبرى، للحقيقة الشهيرة التي علينا اكتشافها كما يتهيأ له، ولذلك النوع من المعرفة النهائية التي ينتظر منها أن تؤمن خلاص الشعوب. لايؤدي هذا الموقف بالضرورة إلى جنون العظمة في شكله التافه والمبتذل؛ يتبدى جنون العظمة هذا غالباً في شكل يعرف بالوحي النبوي، بالقدر الإصلاحي أو بالتوق إلى الشهادة. وإن خطر السقوط في التجربة ليس ضئيلاً بالنسبة للعقول الضعيفة التي غالباً ماتعاوض بجرعة من الغرور تتناسب معها عكساً. شئنا أم أبينا، إن ولوج النفس الجماعية ينتج في الفرد، بما يتيحه، تجديداً للحياة سواء كان الشعور الناتج ممتعاً أو مزعجاً. والحال أننا ننوي التقاط تجديد الحياة هذا والمحافظة عليه؛ تارة لأن مثل هذا الشخص يشعر أنه متحمس في كيانه الحيوي، وتارة لأن شخصاً آخر يتوقع منه إغناء واسعاً لمعارفه، وأخيراً لأن شخصاً ثالثاً يرى فيه مفتاحاً أو وسيلة تسمح له بتغيير الحياة. لهذا فكل الذين استشعروا القيم الكبيرة المختبأة أو المدفونة في النفس الجماعية لايريدون، لسبب أو آخر، أن يتركوها تفوتهم، وسيجهدون جميعا لأن يحتفظوا، بصورة أو أخرى، بهذا الاتصال الجديد، المثير أو الكاشف، الذي وجدوه مع الأسس البدئية للحياة[13].

من أجل ذلك، يبدو أن الطريق الأكثر مباشرة الذي يتكشف هو التماهي الذي يدعو إليه، بشكل جيد وكامل نوعاً ما، تحلل القناع الذي يذوب في النفس الجماعية ويندمج بها، ويتواحد مع هذه الدوامة التي تمتصه والتي يمكن أن تبتلعه، دون أن تترك منه حتى أي أثر للذكرى. يمكن لهذا التصرف السراتي أن يكون واقع كل خليقة ذات مستوى، إن هذه النظرة إلى الخلف، نحو المنبع، هي كالحنين إلى الأم، فطرية في كل فرد.

وكما بينت سابقاً بشكل مفصل، إن الحنين النكوصي للعودة إلى الوراء نحو الينابيع، والذي لم ير فيه فرويد، كما نعلم، إلا تثبيتاً طفلياً أو «رغبة غشي محارم» يحتوي قيماً كبرى وضرورة خاصة تظهر في الأساطير بواقعة نذكرها على سبيل المثال، وهي أن الأقوى والأفضل دائماً، أي البطل، هو الذي يستسلم وينقاد للحنين النكوصي، ويتعرض عن قصد لخطر أن يبتلعه وحش المادة الأمومية البدئية. إنه بطل لأنه وبالتحديد لايدع للوحش أن يبتلعه بشكل نهائي، بل يقهره، ليس لمرة ولكن مرات عديدة. وتكمن القيمة الحقيقية في الانتصار المتحقق على النفس الجماعية، في الاستيلاء على الكنز، على السلاح الذي لايقهر، الطلسم الثمين أوكل الأملاك العلوية التي اخترعتها الأسطورة. كل من يتماهى إذا مع النفس الجماعية ويتلاشى فيها - أي بلغة اسطورية، يدع للوحش أن يبتلعه - يجد نفسه بالجوار المباشر للكنز الذي يحرسه الأفعى، ولكن على حساب حريته بما في ذلك من ضرر أكبر عليه. إن من يعي سخرية هذا التماهي لايجروء على رفعه إلى مرتبة مبدأ. ولكن الخطر يكمن تحديداً في أن العدد الأكبر من الناس يعوزه حس الفكاهة الضروري من أجل الانتباه للسخري أو أنه يفشل عند هذه النقطة بالتحديد. يشعر معظم الأشخاص أنهم مأخوذون بنفس ملحمي،

يضخمهم نوع من الحمل المثقل بالمعاني، يمنعهم عن كل نقد فعال تجاه أنفسهم.

لا أريد أن أنفي بصورة عامة إمكانية وجود أنبياء حقيقيين؛ لكنني أفضل على أية حال، من قبيل الحذر، اعتماد موقف إرتيابي مراعاة لكل حالة خاصة. لأن قضايا النبوة خطيرة جداً حتى نجرؤ أن نتخذ موقفاً ونقرر بلا ترو اعتبار النبي المقصود أصيلاً. زد على ذلك أن كل نبيٍّ حقيقي يبدأ بالدفاع عن نفسه بحدة ضد الدور الذي نرغب لاشعورياً بأن نجعله يلعبه. كما أن وصول نبي بسرعة شديدة إلى شخصيته، وكما في طرفة عين، يجعل التفكير بإمكانية فقدان توازن نفسي في محله.

إذا كانت إحدى الإمكانيات أو الإغراءات التي تتقدم تكمن في السقوط في النبوة فإن إمكانية التحول إلى مريد أكثر رهافة، وتعد في الظاهر بأفراح أكثر مشروعية. بل إن هذا الإغراء يشكل كما يبدو تقنية مثلى لعدد هام من الأفراد. كما أن فوائده متعددة: إن «عبء الإحترام» ـ الذي ينبثق من مسؤولية النبي فوق ـ البشرية ـ يحيطه في المستقبل بهالة، أما التحول إلى (مغتبط في المهانة) فيشعر الفرد أنه مهان، يأخذ مكانه عند أقدام المعلم بتواضع، متحدياً نفسه أن يفكر بواسطة نفسه. يصبح الكسل الفكري فضيلة، ويستطيع على أية حال أن يتقلى تحت شمس هذا النوع من نصف الإله. وتنعم سلفية الإستيهامات اللاواعية وطفالتها بالأمر دون المخاطرة بتحطيم الكثير من الآنية، لأن كل المسؤولية ملقاة على عاتق المعلم. بتمجيده للمعلم، بحيث يجعل منه مساوياً للإله، يطل المريد برأسه قليلاً، دون الإنتباه لذلك كما يبدو، ويكون على الأقل قد تلقى الحقيقة الكبرى التي كان ينشدها ـ مع فشله في أن يكتشفها بنفسه ـ على أيدي المعلم ذاته. بالطبع، يجتمع المريدون

دائما، لاتجمعهم الصدفة أوالمحبة وإ نما تحركهم مصلحة مفهومة جيداً: كل منهم يتمنى، من خلال خلق جو واتفاق جماعي، أن يؤكد قناعته الخاصة بكسل، دون أن يكون عليه بذل أي جهود.

هكذا يؤدي موقف المريد إلى التماثل مع النفس الجماعية التي تبدو أكثر جدارة بالاحترام: لأن شرف النبوة وما يترتب عليه من مسؤولية خطيرة يعودان لشخص آخر؛ إنه يكتفي بحالة مريد بسيط، أي ينسحب من مستوى المسؤولية في الأساس، مشاركاً على أية حال في إدارة الكنز الكبير الذي اكتشفه المعلم. وهو يشعر بأهمية مثل هذه المهمة وعبئها ويعتبر أن التشهير بالمعادين، وكذلك بالباردين واللامبالين، ضرورة أخلاقية وفريضة علوية.يظن أنه مجبر على القيام بتبشيرات وتقديم النور الجديد للإنسانية.... كما لو كان هو النبي بشخصه. إن الكائنات التي تنزلق، كأنها تزحف، خلف حاجز قناع متواضع ووضيع هي التي تبرز بالتحديد لرعاية حياة العالم، إذ تشعر أن التماثل اللاوعي يلهب نفوسها ويملؤها. ذلك أن المريد، في حال كان النبي صورة بدئية للنفس الجماعية، هو أيضاً من المنظور ذاته أنموذجاً بدئياً.

وفي الحالتين، حالة النبي وحالة المريد، يحدث تضخم بالتماهي مع أحد مركبات النفس الجماعية. ومنذئذ، لا يمكن لاستقلال الفرد وتلقائيته ألا يصابا بالضرر من جراء ذلك. على أية حال إن الفرديات التي تمتلك قوة التطلع إلى التلقائية وقوة إمتلاكها نادرة. لذا ربما تكون الإستيهامات المرتبطة بوجود المريدين أفضل ما يمكن لهم أن يبلغوه. إن أفراح التضخم، الملازمة ضمنياً لهذه الحالة، هي على أية حال تعويض بسيط يعزي بفقدان الحرية على صعيد الروح. في المقابل لا يجب أن نقلّل من واقع أن حياة نبي، سواء كان نبياً بحق أو تصور بكل بساطة كونه كذلك، مليئة بالعذابات الخيبات والحرمانات. لذلك يمثل له

كورس المخلصين الذي ينشد «الهوشعنا»[14] قيمة تعويضية. كل ذلك مفهوم انسانياً لدرجة أننا يجب أن نندهش تقريباً لرؤية بعض الإلحاح النفساني وبعض المساعي الانسانية التي سمحت باجتياز هذا الحاجز وتجاوزه.

الحواشي:

1 ـ هذا ما يسعى إليه تدخل المحلّل إذا كان من حظ الشخص أو محيطه أن يمتلك حداً أدنى من الفهم الكافي لطلب مساندته. يرمي الحوار التحليلي الشائع في مثل هذه الظروف إلى مساعدة الشخص كي يتوصل الى تفهم يسمح له بتجنب التدهور إلى تفاعلات قصوى أو همجية ذهانية كارثية. وقد ظهر أن للوقاية دور هام في هذه الحالة. وبالفعل لقد أظهرت التجربة، حيث يمكن ان يفشل في مواجهة الظواهر التي تتجاوز إمكانيات فهمه، أن هذا الفهم يمكن للمريض أن يتطور من خلال عمل ثنائي شرط أن يكون المريض محظوظاً ويلتقي بممارس خبير بهذه المسائل وأن تتفق شخصيتاهما. (ر.ك)

2 ـ أنظر يونغ «نفسانية التحويل» (ر.ك) C.G Yung - Psycholgie du transfert

3 ـ Alfred Adler, le temperament nerveux.

4 ـ أنظر ليونغ ـ نفسانية الخافية ـ مذكور سابقاً.

5 ـ إنه موقف غريب عند المرضى الذين يراجعون المحلل آملين سراً أن يستطيع تخليصهم من لاوعيهم. ونجيب على هؤلاء المرضى بما يلي: إذا ذهبتم لاستشارة طبيب قلبي هل تطلبون منه أن يستأصل قلبكم أو أن يشفيكم من مرضكم القلبي.

6 ـ نصادف هذه العقلية عند عدد من المرضى الذين خضعوا بسرور متفاوت لتحليل فرويدي عندما كان هذا الأخير نصف نجاح ونصف فشل. (ر.ك)

7 ـ فاوست ـ الجزء الثاني ـ الفصل الخامس ـ المشهد الرابع.

8 ـ إن الليبيدو في ماهيتة الجنسية عند فرويد والإرادوية عند آدلر هو الطاقة النفسية بكل عمومية في المفهوم اليونغي مشتملاً بالتأكيد على المعنيين الفرويدي والآدلري والقابل لأن يتجلى بتبديات متنوعة الأشكال، بفضل كل مفاتيح الإنسان ومن خلال كل الإمكانيات التعبيرية دون أن ننسى أي منها.

انظر كذلك ليونغ «نفسانية الخافية» ـ مذكور سابقاً. و«تحولات النفس ورموزها» ـ مذكور سابقاً. (ر. ك.).

9 ـ فاوست ـ الجزء الثاني ـ الفصل الخامس ـ المشهد الرابع.

10 ـ فاوست ـ الجزء الثاني ـ الفصل الخامس ـ المشهد الرابع.

11 ـ هذا الواقع ـ من بين وقائع أخرى ـ يفيدنا عن الشفاءات العفوية والمفاجئة والغريبة

أحياناً عند إعلان حرب. ولقد تابعنا عدة حالات استمر الشفاء الظاهر أثناء كل فترة العداوات وعادت الحالة والأعراض العصابية مع عودة السلام عندما توقفت حالة الطوارئ الحيوية.

ولكن يونغ يصر على أن الشدة يجب أن تكون حقيقية وبدون تصنع لكي تكون فعالة ولو بشكل مؤقت. ويرد إلى ذهننا حالة مريض مدلل لأنه الطفل الوحيد لعائلة غنية وكان موضع اهتمام زائد، سعى لأن يعيش في استقلالية مصطنعة كطالب مكافح من أجل أن يشفي. وكان يأمل أن هذه القرار سيؤثر فيه بصورة سحرية مثلما يفعل إعلان الحرب على المرضى المذكورين أعلاه. وقد فوجئ وخاب امله عندما لم يحدث شيء من هذا القبيل. لقد استمرت الأعراض كما في السابق. وتفسير هذه الخيبة كان مع ذلك بسيطاً لأن بؤسه لم يكن حقيقياً وإنما تقليداً، رياضة ونزوة إضافية لطفل مدلل كان يعلم في أعماقه أن إرث العائلة الغني سيعود إليه يوماً ما وأن عائلته ستساعده في حال الحاجة الحقيقية والطارئة. (ر. ك)

12 ـ فاوست ـ الجزء الأول ـ مشهد حانة أورباخ.

13 ـ نذكّر هنا بملاحظة هامة لكانط: لقد جذب الانتباه في محاضراته عن علم النفس في (لايزغ 1789) إلى أن الكنز المخبأ في حقل التمثيلات المظلمة والذي يشكل القاعدة العميقة للمعارف الإنسانية لن نستطيع بلوغه. يتألف هذا الكنز، كما بينت في كتابي «تحولات النفس ورموزها»، من مجموع الصور البدئية التي تتجلى فيها الليبيدو والتي تشكل التمثيل الذاتي لليبيدو. (يونغ).

14 ـ الهوشعنا: عندما جاء يسوع إلى أورشليم خرج الأطفال لاستقباله وهم يحملون سعف النخل ويهتفون الهوشعنا وهي كلمة مشتقة من الآرامية أو العبرية وتعني الابتهاج والفرح. (م)

الباب الثاني

التفرد

الفصل الاول

وظيفة اللاوعي

يوجد درب يوفر إمكانية الوصول إلى مايتجاوز المقاييس النفسانية والمستويات العقلية والإنسانية الموصوفة في الجزء الأول في هذا العمل: إنه درب التفرد. ودرب التفرد يعني: الميل لأن يصبح الكائن فردياً بحق، وحيث أننا نعني بالفردية شكل وحدانيتنا الأكثر حميمية، وحدانيتنا النهائية والمحسومة، فالمقصود هو تحقيق الذات بأكثر مافيها من شخصي وعصي على كل مقارنة. يمكننا إذاً أن نترجم كلمة «التفرد» بتحقيق الفرد لذاته، تحقيق الذات[1].

إذا نظرنا إلى إمكانيات التطور الموصوفة في الفصول السابقة عن قرب، نرى ماتتضمنه في الحقيقة من اغتراب للفرد عن ذاته ومن فقدان جزئي للشخصية، تارة لصالح دور خارجي وتارة لصالح أهمية متخيلة أو خيالية تتراجع الذات في الحالة الاولى إلى الخلفية لصالح تكيف الفرد وبروزه في الإطار الاجتماعي؛ وهو مايحدث في الحالة الثانية بفعل التأثير الذاتي ـ الإيحاء لصورة أساسية. وفي الحالتين فإن الجماعي هو الذي يطغى ويسيطر. والحال أن استسلام الفرد بذاته لصالح الجماعي يعود لمثال إجتماعي: حتى انه يبدو كأنه فضيلة وواجباً تجاه المجتمع، رغم ما قد يسمح به من استخدامات استغلالية وأنانية. نقول أن الأناني هو الممتلئ بنفسه، وبالطبع فان هذا لاعلاقة له بفكرة الذات كما أستعملها هنا.

إن تحقيق الذات يقع على طرف نقيض من فقدان الفرد لشخصيته. وإن النظر إلى التفرد وتحقيق الذات على أنه الأنانية هو سوء فهم شائع تماماً؛ لأن العقول عموماً تفرق قليلاً جداً بين الفردانية والتفرد. تشدد الفردانية عمداً وتبرز الخصوصية المزعومة للفرد، في مواجهة الإعتبارات والواجبات التي في مصلحة الجماعة. وعلى العكس فالتفرد هو مرداف لإنجاز مهمات الكائن الجماعية بشكل أفضل وأكثر اكتمالاً، إنه اهتمام كاف بالخصوصيات التي تسمح بأن ننتظر منه أن يكون حجراً أكثر ملاءمة وأفضل توضعاً في البنيان الاجتماعي مما إذا بقيت هذه الخصوصيات مهملة ومقموعة. وفي النهاية، ماذا يجب أن نفهم بخصوصية كائن؟ إنها لاتعني مطلقاً غرابة جوهره أومركباته، وإنما تعني بشكل أساسي العائد الفريد لمزيج مركباته ودرجة تمايز وظائفه وقدراته اللامتناهية على التدرج والتقدم، علماً أنها ذات طبيعة عالمية. من خصوصية كل وجه إنساني أن يتضمن أنفاً وعيوناً الخ... لكن هذه العوامل العالمية متغيرة، وفي هذا التنوع يكمن مايحدد الخصوصيات الفردية. وهذا يعني أن التفرد لايمكن أن يكون إلا صيرورة تنجز المعطيات والمحددات الفردية، وبعبارات أخرى، مايجعل من فرد ما الكائن الذى يجب أن يكونه بنفسه، مرة وإلى الأبد. من هذا الواقع، لن يكون أنانياً أو متمركزاً حول أناه بالمعنى الإعتيادي للعبارة، ولكنه يحقق ببساطة طبعه ووجوده، وهو مايقع كما ذكرت أعلاه على طرفي نقيض مع الفردانية والأنانية.

وحيث أن الفرد الإنساني يتألف، كوحدة حية، من حشد ومجموعة من العوامل العالمية فهو جماعي تماماً ودون ظل من معارضة للجماعية. ولانستطيع أن نشدد على الخصوصية الفردية لكائن دون أن نناقض هذه المسلمة الأساسية للكائن الحي. ولكن بما أن العوامل، العالمية بذاتها،

لاتوجد ولاتتقدم لنا إلا بأشكال فردية، فإن أخذها بعين الإعتبار الكلي يحتم تبلوراً، فردياً إلى أقصى حد، تبدو بجانبه كل فردانية باهتة.

ليس للتفرد من هدف آخر غير تحرير الذات، من الأغلفة المزيفة للقناع من جهة، ومن القوة الإيحائية للصور اللاواعية من جهة أخرى. وما سبق أن قلناه يكفي لإيضاح ما يعنيه القناع نفسانياً. أما فيما يتعلق بالمنظور الآخر، أي بفعالية اللاوعي الجماعي، فإننا نتحرك في عالم داخلي مظلم وقاتم، تتجاوز صعوبة فهمه وإدراكه نفسانية القناع المتاحة لكل فرد بكثير. فكل فرد يعرف ماتعنيه عبارة «أخذ سحنة موافقة» أو «لعب دوراً في المجتمع» الخ. نريد بفضل القناع أن نظهر في هذا الجو أو ذاك، أو أننا نختبأ إرادياً خلف هذا القناع أوذاك؛ حتى أننا نبني لنفسنا أحد الأقنعة المعطاة، أقدر إذاً أن مسألة القناع لاتقدم صعوبات فهم كبيرة جداً.

لكن وصف العمليات الداخلية الدقيقة، التي تستحوذ على الوعي بكل قدراتها علي الإيحاء، بصورة مفهومة عموماً، هو على درجة من الصعوبة مختلفة تماماً، نستطيع بفضل الأمثلة المأخوذة من الأمراض العقلية والوعي الخلاق والتحولات الدينية أن نشكل عنها صورة بأقصى مايمكن من سهولة.

وتحتوي رواية ويلز H.Gwells «والد كريستين البرت»[2] وصفاً لمثل هذا التحول الداخلي يتميز بإخلاصه، كذلك رواية ليون دودية Leon Daudet «الهيريدو»[3]، كما أن عمل وليم جيمس W.James «التجربة الدينية»[4] يقدم حول هذا الموضوع مواد ومعلومات غزيرة بقدر ما هي ثمينة.

رغم أننا نصادف في عدد من مثل هذه الحالات من تحوّل الشخصية وجود عوامل خارجية تكيف التحول مباشرة أو تحدده على الأقل، يجب مع ذلك أن نلحظ ان العوامل الخارجية نادراً ما تكون عامل تفسير كاف يعطي فكرة عن نشأة التحول. يجب أن نعترف أن تحولات الشخصية

يمكن أن تنشأ انطلاقاً من دوافع داخلية وذاتيه كالآراء والمعتقدات دون أن تتدخل الظروف الخارجية أو دون أن تلعب دوراً هاماً. ونرى هذه القاعدة نفسها تقريباً في حالات تحولات الشخصية الخطيرة. إن حالات الذهان التي تشكل ردات فعل واضحة وبسيطة لحدث خارجي ساحق استثنائية، ولذا يتألف العامل الإمراضي الأساسي في الطب النفسي من الإستعداد المرضي، سواء كان وراثياً أو مكتسباً. وينسحب الأمر نفسه على غالبية الحدوس الخلاقة؛ إذ لن يغرينا أبداً أن نرى بين سقوط تفاحة ونظرية الثقالة لنيوتن، مجرد علاقة سبب بنتيجة. كذلك التحولات الدينية التي لا تنفصم عن الإيحاء أو عن عدوى المثال، تقوم بالنسبة لمعظمهم على خطوات داخلية تلقائية تبلغ أوجها في تحولات الشخصية(5).

تبدي هذه الصيرورات عموماً خصوصية أنها تجري بصورة خفية، أي أنها مسارات لاواعية تنبثق إلى الوعي شيئاً فشيئاً. والحقيقة أن لحظة الفيضان والإندفاع إلى الوعي قد تكون مفاجئة ولا متوقعة تماماً، بحيث يجد نفسه في لحظة مجتاحاً وغارقاً في محتويات شاذة إلى أقصى حد، غريبة تماماً من حيث الظاهر وغير منتظرة. هذا هو على الأقل الانطباع الذي يكونه الجاهل والذي يمكن أن يقاسمه إياه الشخص الواقع مسرحاً لها، لكن الأمر مختلف بالنسبة للطبيب الذي يعرف بماذا يجب أن يفكر أمام رعود في سماء صافية. والحقيقة أن التحضير لفيضان مماثل يستغرق عموماً سنوات عديدة وغالباً نصف حياة؛ يمكننا أن نكشف منذ طفولة المريض كل أنواع الفرادات التي تسمح بالتنبؤ بصورة رمزية تقريباً بالتطورات العقلية الشاذة.

على سبيل المثال أتذكر حالة مختل كان يرفض كل غذاء ويعترض بشدة على كل إطعام بواسطة الأنبوب الأنفي. وكان من الضروري الإستعانة بالتخدير من أجل إدخال الأنبوب. كان باستطاعة هذا المريض

أن يبتلع لسانه بصورة فريدة، وكان يستطيع أن يضغطه الى الخلف في بلعومه وهي ظاهرة لم أكن أتوقعها حتى اللحظة. وأعلمني المريض في إحدى لحظات الصفاء والهدوء بما يلي: عندما كان مراهقاً كان يتسلى بفكرة أن يعرف كيف يمكنه أن ينتحر حتى لو حاولنا منعه عن ذلك بكل الوسائل الممكنة والمتخيلة. فكر أولاً بالتوصل إلى ذلك بأن يحبس تنفسه. ولكنه تحقق أنه يعود إلى التنفس حتماً بعد أن يتوصل إلى حالة نصف إغماءة. فهجر إذاً هذه الطريقة وفكر بالتوصل إلى غاياته بالإمتناع عن الطعام. وكان هذا الإستيهام يرضيه إلى أن اكتشف أن هناك إمكانية لجعله يبتلع الأطعمة بالقوة من خلال الأنبوب. فبحث عندئذ عن وسيلة لسد طريق الوصول وهكذا أتته فكرة ابتلاع لسانه. لم ينجح في البداية بذلك، لذا أخذ يتمرن بانتظام بحيث يتوصل إلى ابتلاع لسانه تقريباً مثلما يحدث أحياناً أثناء التخدير، بالطبع بفعل ارتخاء تام واصطناعي لعضلة اللسان.

وبهذه الطريقة الغريبة كان مريضنا المراهق يستعد لذهانه. وبعد محاولته الثانية غرق في عته عقلي معند. يظهر هذا المثال، من بين أمثلة عديدة، أن الإجتياح اللاحق من قبل محتويات غريبة ليس مفاجئ أبداً، وإن بدا كذلك في الظاهر، بل على العكس إنه نتيجة تطور لاواع جرى على مدى سنوات عديدة.

وها نحن من جديد في مواجهة السؤال الأساسي وهو معرفة مما تتألف الصيرورات اللاواعية ومن أي طبيعة هي. بالطبع، طالما هي لا واعية لن نستطيع أن نعرف نقول شيئاً بخصوصها. ولكنها تتجلى من وقت لآخر، في بعض المناسبات، بأعراض وإنفعالات واستيهامات وتصورات وأحلام. بالإستناد إلى مثل هذه الملاحظات المجموعة بعناية نستطيع أن نصل إلى خلاصات لا مباشرة تتعلق بحالة وطبيعة الصيرورات والتطورات اللاواعية المسؤولة. على أية حال، لا يجب أثناء ذلك أن ننخدع ونستسلم لوهم أننا

كشفنا الطبيعة الحقيقية للصيرورات اللاواعية. فنحن لا نتجاوز أبداً مستوى الإفتراضات المقارنة التي تجعلنا نظن أن الأشياء تحدث «كما لو» «لا يستطيع أي مخلوق أن يسبر الدروب السرية للطبيعة» نقرأ مثل هذه العبارات تقريباً في فاوست، وهذا صحيح أيضاً فيما يخص يتعلق اللاوعي. على أية حال نعلم إن اللاوعي لا يستريح أبداً. إنه يبدو في نشاط مستمر، يعمل، وحتى عندما ننام نحلم أيضاً. بالتأكيد يدعي عدد من الناس بأنهم عموماً لا يحلمون أبداً؛ أغلب الظن أن لاشيء من ذلك، ويتأتى انطباعهم ببساطة من كونهم لا يحتفظون بأية ذكرى عن أحلامهم. والأفضل أيضاً أن الأشخاص الذين يتحدثون في نومهم لا يستطيعون غالباً أن يستذكروا الحلم المتعلق بتحدثهم، ولا حتى حقيقة أنهم حلموا. إن يوماً واحداً من الحياة اليومية لا يمر دون أن نرتكب هذه الهفوة أو تلك، دون تفقد ذاكرتنا كلمة أو أخرى تكون مألوفة لنا تماماً في أوقات أخرى، دون أن يتملكنا هذا المزاج أو ذاك ونحن نجهل السبب. إنما كل ذلك أعراض نشاط لا واع ينسج حبكته بصورة مستمرة ومتماسكة، يتجلى مباشرة أثناء الليل، ولا يخترق في النهار صلابة الوعي الضاغطة إلا في النقاط الأقل مقاومة وفي ظروف مناسبة.

تسمح لنا كل تجربتنا الحالية أن نؤكد أن الصيرورات اللاواعية تقع من الوعي موقع المعاوضة.

أستعمل عن قصد كلمة معاوضة وليس كلمة تضاد، لأن الوعي واللاوعي لايتعارضان بالضرورة وإنما يكمل أحدهما الآخر ويشكلان معاً مجموعة هي الذات، وكما يدل عليه التعريف إن الذات كيان يفوق الأنا تنظيماً. تحتضن الذات النفس الواعية والنفس الجماعية وتشكل بذلك شخصية أوسع، وتلك الشخصية هي نحن.

بالتأكيد نستطيع أن نتخيل أننا نمتلك نفوساً مجزأة وأن نتصورها.

هكذا نستطيع على سبيل المثال، أن نتلاقى دون صعوبات تحت ملامح قناعنا. ولكن ذلك يتجاوز إمكانياتنا وقدراتنا على أن نتميز كذات، لأن هذه العملية العقلية تفترض أن الجزء يستطيع أن يحيط بالكل. زد على أنه لا مجال أبداً لأن نأمل بلوغ وعي تقريبي للذات لانه مهما كانت القطاعات والمشاهد التي نستطيع إدراكها عن نفسنا هامة ومتمادية فستبقى حتماً كتلة غير محددة وكمية غير قابلة للتحديد من اللاوعي الذي يشكل هو أيضاً جزءاً لايتجزأ من كلية الذات.. بحيث تبقى الذات دائماً، مقداراً وكياناً فائق التنظيم.

تحتفظ الصيرورات اللاواعية التي تعاوض الأنا الواعية بكل العناصر الضرورية للتعديل الذاتي للنفس الكلية.

وعلى الصعيد الشخصي، إن ما ينبثق في أحلامنا هي الحوافز الفعالة التي تحركنا من حيث لا ندري، بمنأى عن حوافز الواجهة والتي نتجنب ادراكها؛ وقد تنبثق أيضاً معان حقيقية أو نتائج لبعض الوقائع وبعض مواقف الحياة اليومية التي فاتتنا، أو بعض الإتهامات التي نفضل إنكارها، أو بعض الانفعالات التي منعنا أنفسنا عنها، أو بعض الوجدانات التي حاولنا أن نطرحها من أنفسنا، أو بعض الإنتقادات التي حاولنا أن نتجنبها من نفسنا ومن الآخرين.

كلما وعينا ذاتنا بفضل المعرفة التي نكتسبها شيئاً فشيئاً وبفضل تعديلات السلوك التي تنتج عنها، رقت واختفت طبقة اللاوعي الشخصي المتوضعة كالطمي على اللاوعي الجماعي. يتولد شيئاً فشيئاً، بمتابعة هذا التطور خطوة خطوة، وعياً غير منحبس في عالم الأنا المسكين والشخصي والحساس بشكل ضيق، ليشارك أكثر فأكثر في عالم الأشياء المتسع. ويبتعد هذا الوعي المتسع شيئاً فشيئاً عن ذاك التشابك الأناني والمنفر من التمنيات الشخصية والتوجسات والآمال والطموحات، وكل الميول التي

يجب أن تجد في الكائن معاوضات أو حتى تعديلات، بفضل الميول الشخصية المتعارضة واللاواعية.

ويصبح هذا الوعي المتجدد بؤرة علائقية، وظيفة تمد جسراً نحو الموضوع وعالم الأشياء تُشرك الفرد وتدمجه في جماعة لا تذوب في العالم، جماعة يشعر فيها الفرد أنه ملتزم ومسؤول. وما يحدث عندئذ من تعقيدات إنسانية، عندما يصل الفرد إلى هذه المرحلة من تطوره، ليس صراعات مبتذلة لرغبات شخصية أنانية ولكنها صعوبات تعني أي شخص. على هذا الصعيد، يتعلق الأمر في النهاية بمشاكل جماعية تحرك اللاوعي الجماعي لأن المعاوضة التي تتطلبها ليست من مرتبة شخصية وإنما جماعية. نستطيع عندها أن نتحقق أن لاوعي الفرد لا ينتج محتويات صالحة للشخص نفسه وحسب وإنما لكثير من الكائنات أيضاً، وربما للجميع تقريباً.

مثال: لقد شرح لي الألجونيون، وهم سكان غابات الألجون العذراء[6]، أن هناك فئتين من الأحلام، الحلم الشائع للرجل العادي و«الرؤيا الكبيرة» وهي من نصيب الرجال ذوي الحظوة كالساحر أو زعيم القبيلة على سبيل المثال. لا تستحق الأحلام الشائعة اهتماماً خاصاً. ولكن ما أن يرى أحدهم «حلماً كبيراً» حتى يجمع القبيلة ليرويه للجميع.

ولكنني سألت: كيف يعرف الحالم ما إذا كان حلمه صغيراً أو كبيراً؟

أجابوني بأنه يدرك ذلك بنوع من الشعور الغريزي يجعله يحزر معناه ومغزاه الرفيع، ويكون مستولياً عليه لدرجة أنه لا يخطر بباله لحظة أن يحتفظ به لنفسه: يجب أن يرويه، يحركه الإفتراض الصحيح نفسانياً بأن هذا الحلم يمكن أن يحمل معنى هاماً للجميع.

يمتلك الحلم الجماعي عندنا أيضاً قيمة وجدانية تدفعنا إلى إبلاغه للآخرين. وبالفعل، تتأتى هذه الأحلام غالباً من صراع نشأ في حياتنا.

كما يجب أن نضع رسالة الحلم في سياق حياتنا وفي إطار العلاقات الواعية والمعاشة لأن لدى الحلم شيء يقوله عنها فالحلم لا يعاوض انحرافاً داخلياً شخصياً فقط وإنما يعاوضها هي.

إن صيرورات اللاوعي الجماعي لا تهتم فقط بالعلاقات الأكثر أو أقل شخصية لفرد مع عائلته ومجموعته الاجتماعية ولكن أيضاً بعلاقتة تجاه مجتمعه والإنسانية عموماً. وكلما كان الإفراط الذي يحدد رد الفعل اللاواعي عاماً وغير شخصي كان التبدي المعاوض هاماً وغير منتظر وقاهر. إنه لا يدفع إلى البوح الخاص فقط ولكنه يتطلب بشدة أن يعبر الشخص عن كشفه ومبادئه أمام الملء ويوحي له بأن يصفه بسلوك إيمائي معبر قدر الإمكان.

فلنظهر بالأمثلة كيف يعاوض اللاوعي العلاقات الواعية. لقد عالجت في الماضي رجلاً متكبراً بعض الشئ. كان يدير عملاً بالتعاون مع أخيه الأصغر. كانت العلاقات بين الأخوين متوترة جداً، وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية، من بين عوامل أخرى، لعصاب مريضي. لم أميز الحافز الحقيقي للتوتر بوضوح من خلال رواية مريضي. كان يجد الكثير من الأشياء ليكررها عن شخصية أخيه، دون أن يعطي عن مواهبه صورة مخادعة والحال أن هذا الأخ كان غالباً ما يظهر في الأحلام، بأدوار تذكر بصور بسمارك ونابوليون ويوليوس قيصر. وكان منزل الأخ يبدو في الأحلام كأنه الفاتيكان أو قصر يلدز.

ماذا يعني ذلك؟ من الواضح أن لاوعي المريض يشعر بالحاجة إلى الرفع من قيمة الأخ بشكل ملحوظ. لهذا خلصنا أنا ومريضي إلى أنه يعتبر في وعيه أن أخيه أقل قدراً منه وأكدت متابعة التحليل هذا الإستنتاج في كل نقاطه.

إليكم حالة أخرى: كانت امرأة مريضة تبدي هوى متحمساً لوالدتها،

وكانت تحيا مرتبطة بها بشدة. وكان لها بصدد أمها أحلاماً تظهر فيها الأم في جو غير مرض، متخذة ملامح ساحرة أو شبح أو زوجة أب تضطهدها. كيف نفهم ذلك؟.

الأمر بسيط جداً، لقد دللت الأم ابنتها الى أبعد حد، والحنان الذي منحته لابنتها دمر عندها، وكم كانت مندهشة لذلك، كل إمكانية للنقد؛ بحيث أن الفتاة لم تكن تستطيع أن تنتبه بشكل واع إلى التأثير المدمر الذي تمارسه والدتها عليها. ولهذا السبب كان اللاوعي يعبر عن نقد فظ معاوض موجه إلى الأم.

وقد حصل لي أنا نفسي مغامرة مماثلة كان لدي مريضة لا أحبذها كثيراً من الناحيتين الفكرية والأخلاقية، إلا أني رأيت الحلم التالي: رأيت قصراً مبنياً على رأس صخرة عالية، وفي أعلى أبراجه تنفتح شرفه تجلس عليها المريضة. بكل بداهة، كنت أبخسها حقها، وكان لا وعيي يضعها عالياً جداً من قبيل التعويض. ولم أتردد في أن أخبر مريضتي بهذا الحلم مباشرة وهو إطلاع كان له أفضل التأثيرات على علاجها.

من المعروف جيدا أننا غالباً ما نتصرف بصورة رعناء أمام أشخاص نسيء تقديرهم عن غير حق؛ بالطبع يمكن أن يحدث العكس أيضاً، كما حصل لأحد أصدقائي. لقد التمس، عندما كان طالباً شاباً، مقابلة مع الأستاذ اللامع فيرشو، وهو شهير لدرجة أننا كنا ندعوه بلا تكلف «صاحب السعادة». وعندما أراد صديقي وهو يرتجف من الإنفعال أن يقدم نفسه تمتم: «أنا أدعى فيرشو» فما كان من صاحب السعادة إلا أن أجابه بابتسامة خبيثة قائلا: «آه، وأنت أيضاً تدعى فيرشو؟!» ماذا حدث هنا؟ يرى لاوعي الرجل الشاب أن إحساسه الواعي بضياعه الخاص وبضعفه قد ذهب بعيداً جداً، وهذا الحافز هوالذي جعل لاوعي الشاب يستثير الهفوة التي قادته إلى تقديم نفسه لفيرشو نداً لند.

في هذه الحالة الأخيرة لا حاجة للعلاقات، لاسيما أنها شخصية، لأن تلجأ إلى معاوضات جماعية جداً. وأما الصور التي يستخدمها اللاوعي في المثال الأول المذكور، مثال الأخ، فإنها ذات طبيعة جماعية جداً[8]: إنهم بلاريب أبطال عالميون.

لانستطيع أن نحتفظ في هذه الحالة إلا بإمكانيتي تأويل: إما أن يكون الأخ الأصغر لمريضي رجلاً ذا منزلة رفيعة وأهمية جماعية كبيرة، أو أن مريضي، إن لم يكن الأمر على هذا النحو، يعاني من تقدير شخصي فائق ليس لأخيه فقط وإنما لأي كان أيضاً. لاشيء يشهد لصالح الفرضية الأولى في حين أن كل شيء يؤكد الثانية. وبما أن عجرفة مريضي لاتظهر ضد أخيه فقط وإنما نحو كل محيطه فقد لجأت المعاوضة بدورها إلى صورة جماعية.

وينسحب الأمر ذاته على الحالة الثانية: إن الساحرة صورة جماعية، وهذا ماقادنا إلى التفكير أن ارتباط المريضة الشابة الأعمى ليس موجهاً إلى والدتها شخصياً وإنما إلى كل محيطها الاجتماعي. وقد تأكد هذا الأمر لأن الفتاة الشابة كانت ماتزال تحيا في عالم طفلي حصراً حيث العالم مماثل للأهل.

تصور الأمثلة التي أعطيناها للتو علاقات ذات طبيعة شخصية، وهناك أيضاً علاقات غير شخصية تتطلب بالمناسبة معاوضات لاواعية. تظهر في هذه الحالات صور جماعية ترتدي بوضوح متفاوت طابعاً أسطورياً، إلا أن المسائل الأخلاقية والفلسفية والدينية هي التي تستثير في أغلب الأحيان معاوضات أسطورية بسبب المعنى العام الذي تتميز به. ونصادف في كتاب ويلز المذكور سابقاً معاوضة كلاسيكية. يكتشف السيد بريمبي، وهو من أبهت الشخصيات، أنه في الحقيقة عودة تجسد لسرجون، ملك الملوك لحسن الحظ جنّبت عبقرية الكاتب سرجون المسكين من السقوط

في لعنة السحري والمرضي، حتى أنه يتيح للقارئ أن يميز المعني التراجيدي والأبدي الوحيد لهذه العبثية المؤسفة. يعتقد السيد بريمبي، وهو صفر تام، أنه صلة الوصل بين كل القرون الماضية والأزمنة الآتية. لا يبدو أبداً فدية باهظة أن تكلف مثل هذه المعرفة حالة جنون خفيفة، شرط ألا يبتلع الوحش الذي يمكن أن تتحول إليه الصورة البدئية بريمبي المسكين نهائياً، وهو خطر كاد يستسلم له.

إن مسألة الشر والخطيئة هي عموماً إحدى مظاهر، علاقتنا اللاشخصية مع العالم. لذا فإن لديها أكثر من أي شيء آخر موهبة إثارة معاوضات جماعية.

على سبيل المثال، رأى أحد مرضاي في سن السادسة عشر، كعرض أولي لعصاب وسواسي حاد، الحلم التالي: رأى الحالم نفسه وهو يتبع شارعاً مجهولاً. كان الظلام دامساً. سمع خلفه خطوات تتبعه. أحس بالقلق قليلاً وأسرع خطاه. بدأ يركض. شعر أن أحداً سيمسك به التفت أخيراً فرأى الشيطان. أخذه رعب شديد، قفز قفزة كبيرة وبقي معلقاً في الهواء. تكرر هذا الحلم مرتين كما لكي يشدد على أهميته.

إن العصاب الوسواسي، لا يقدم كما نعلم، بوساوسه وطقوسه القهرية، المظهر السطحي لمسألة ذات طابع أخلاقي فقط ولكنه يكشف أيضاً داخلياً عن عالم لا إنساني بأكمله، عالم من الإجرام المضمر والشرور المتأصلة، تثور باقي الشخصية المنظمة بعناية ضد دمجها وتنتفض بصورة يائسة.

وبسبب هذه المجابهة بالتحديد يجب إنجاز العديد من الإيماءات مع طقس واحتفالية «صحيحين»، وهذه الدقة مفيدة بشكل ما من أجل موازنة كل الشر الذي يرقد في الخلفية ويهدد. لقد بدأ العصاب بعد الحلم الذي رويناه للتو. وكان يقوم، من حيث الأساس على مايلي: على المريض أن

يبقى، كما يعبر عن نفسه، في حالة «مؤقتة» من «عدم التلوث والنقاء»، بأن يحذف كل اتصال مع العالم ومع مايذكر بالخاصة العابرة للحياة، وجعله كأنه لم يكن، وذلك بواسطة أفعال استعطافية معقدة بجنون، وطقوس تطهر منجزة بعناية، وبالتقيد القلق بوصايا لاتحصى وتتجاوز تعقيداتها الوصف. وقبل أن تتشكل لدى المريض أية فكرة عن الوجود الجهنمي الذي ينتظره، أظهر له حله أن عليه، إذا كان يريد الإتصال مع الأرض أن يتوصل إلى معاهدة مع الشر.

لقد ذكرت في موضع آخر حلماً[9] يصف معاوضة مسألة دينية عند شاب يدرس اللاهوت. كل أنواع الشك الديني وصعوبات الإيمان كانت تعذب هذا الرجل الشاب وتمنعه من الإلتزام بمعتقده، كما يحدث غالباً للرجل المعاصر.

كان في حلمه مريداً عند المجوسي الأبيض الذي يرتدي رداء أسود. علّمه ذلك الأخير إلى نقطة معينة ثم قال له، عند بلوغ هذه الدرجة، إنه أصبح بحاجة لتعاليم المجوسي الأسود لكي يستمر بالتقدم. فظهر المجوسي الأسود عندئذ، لكنه كان يرتدي رداء أبيض.

كان الشاب يدعي أنه قد وجد مفتاح الجنة ولكنه يحتاج حكمة المجوسي الأبيض حتى يصبح قادراً على استخدام هذا المفتاح. يتضمن هذا الحلم مسألة الأضداد التي وجدت في الفلسفة الطاوية حلاً يختلف تماماً عن ذاك الذي اقترحته فلسفتنا الغربية. إن الشخصيات التي يستخدمها هذا الحلم هي صور جماعية غير شخصية، تعود إلى طبيعة المسألة الدينية العامة. وهو يشير، على عكس وجهة النظر المسيحية، إلى نسبية الخير والشر بصورة تذكر مباشرة بالرمز الطاوي المعروف: الين واليانغ.

لايجب أن نستنتج من أمثلة المعاوضة المذكورة أعلاه أنه كلما ضاع الوعي في مسائل عالمية خلق اللاوعي بدوره وصنع معاوضات ذات قيمة

مساوية. إذ يجب أن نشدد، إذا أمكن القول، على أن الاهتمام بمسائل غير شخصية مشروع أحياناً ولامشروع أحياناً أخرى. مشروعة هي تلك التدخلات في اللاشخصي عندما تستجيب لحاجة فردية عميقة وحقيقية؛ وعلى العكس فهي لامشروعة عندما ترد إلى مجرد فضول فكري أو عندما تشكل محاولات للهروب من حقيقة مؤلمة. ينتج اللاوعي عندئذ، في هذه الحالة الأخيرة، معاوضات محض شخصية وإنسانية، إنسانية جداً، تتابع الهدف الجلي بإعادة الوعي إلى عامية الحقائق اليومية. إن الكائنات التى تسبح بصورة لامشروعة في الوهمي، وتتوه في اللانهائي، وتسعد في عالم خيالي متحمسة له، عندها غالباً أحلام تافهة مضحكة تسعى بوضوح إلى تخفيف الجموح الزائد. هكذا تسمح لنا طبيعة المعاوضات بتقدير جدية ومشروعية وصحة التطلعات الواعية.

عديدون هم المفكرون الذي يرفضون أن يفترضوا ويقبلوا بأن اللاوعي يستطيع أن يمتلك أفكاراً عظيمة. يردون عليّ قائلين: «هل تعتقد حقيقة أن اللاوعي قادر على تشكيل نوع من النقد البناء لعقليتنا الغربية؟.» مما لاشك فيه أننا إذا قاربنا هذه المسألة من وجهة نظر فكرية، وكأن اللاوعي يمتلك قصديات واعية، لبدا الأمر عبثياً.

بالتأكيد يجب ألا نعزو خطأً نفسانية الواعية للاوعي. فاللاوعي يمتلك ذهنية غريزية ولا يعرف وظائف متمايزة؛ إنه لايفكر بالطريقة التي نفهم بها فعل التفكير. ويكتفي بأن يخلق صورة ترد، على حالة الوعي كالصدى، وهي صورة تكشف عن مشاعر كما تكشف عن أفكار ليست على الإطلاق أفكاراً عقلانية. إن مثل هذه الصور تقترب من رؤيا فنية أكثر من اقترابها من تفكير عقلاني.

ننسى بسهولة أن مسألة كتلك التي تتبدى في الحلم الأخير المذكور لاتجيب على تساؤل ذي طبيعة فكرية وإنما على تساؤل انفعالي بعمق.

والمسألة الأخلاقية تشكل لشخص عادي موضوعاً أخاذاً يمد جذوره في الصيرورات الغريزية الأعمق وفي التطلعات الأكثر مثالية. مثل هذه المسألة تحتم بالنسبة اليه قفزة حقيقية. يجب أن نندهش إذاً في حال انبثقت من أعماق طبيعته أجوبة وشهادات. الواقع أن كل شخص يحيا ضمنياً في فضاء حيث نفسانيته هي حتماً وبالضرورة مقياس كل شيء - حتى لو اتفق عرضاً أن الشخص المعني ليس صادقاً جداً واستطاع أن يدعي أن مسألة مماثلة لم تمسه يوماً ولم يلحظها يوماً. كل ذلك لن يستطيع أن يوقف عالم النفس الذي يجب أن يأخذ الأمور بموضوعية، كما تتبدى وكما هي، ودون أن تخضع لتشويهات الإفتراضات الذاتية.

نفهم من اللحظة أنه بمقدار مايمكن للكائنات الأكثر غنى وتمايزاً أن تنحشر في مسألة غير شخصية، يستطيع اللاوعي أن يجيب بنفس المقدار وبأسلوب مماثل. كذلك يستطيع الوعي أن يتساءل: «لماذا يسود هذا الصراع المخيف بين الخير والشر؟» يمكن للاوعي أن يجيب: «أنظر إلى الأشياء عن قرب، هذان القطبان ضروريان أحدهما للآخر وهما متضامنان؛ وإن بذرة الشر تختبأ في الأفضل، نعم في أفضل ماللخير، وفي الحاصل لايوجد أمر سيء لدرجة يمكن معها أن لاينتج عنه خيراً.

قد يتراءى للحالم أن هذا الصراع، الذي لا يقبل الحل في الظاهر، يعود للافتراضات التي يؤدي إليها شكل وعينا - المرتبط بالزمان والمكان - في الواقع يتضمن كل شكل من أشكال الوعي حسناته ومحدودياته. عندئذ قد يتكشف لنا بسهولة أن صور الحلم المركبة ظاهرياً هي التعبير المجازي عن نوع من العقل السليم الغريزي، أو التباشير الأولى لتشكيل أفكار منطقية كان يمكن لعقل أكثر نضجاً أن يتوصل إليها بدوره باجراءات واعية. على كل حال لقد اتخذت الفلسفة الصينية ومنذ زمن بعيد نظرية مشابهة. إن هذا التشكيل المجازي والفريد والملائم بشدة،

المعطى لفكر حلمنا، هو ميزة ذاك العقل الطبيعي والبدئي الذي يحيا في قلب كل منا والذي أمكن تعتيمه بوعي منمى في اتجاه واحد.

إذا قاربنا المعاوضات التي يخلقها اللاوعي من هذه الزاوية يؤخذ علينا عن حق أننا بمثل هذه الطريقة نحاكم اللاوعي من منظور الوعي بشدة. في الواقع لقد تصرفت كما لو أن اللاوعي ارتكس للمحتويات الواعية ببساطة، بصورة لا أدق منها حقا، ذكية ومتنوعة، ولكن كمالو أن المبادرة الشخصية تنقصه. في الحقيقة يجب ألا نخطئ: لاأريد أن يكون القارئ انطباعاً بأني مقتنع بأن ميزة اللاوعي الوحيدة هي كونه ارتكاسي في كل الحالات. على العكس، يبدو أن تجارب عديدة تثبت أن اللاوعي ليس عفوياً فقط، وإنما يستطيع أيضاً أن يسيطر على اتجاه العمليات. وعديدون هم الأشخاص الذين يمكثون في لاوعي مسكين ويغوصون فيه إلى أن يصبحوا من جراء ذلك عصابيين، ويجبرهم العصاب الذي يستثيره اللاوعي على الخروج من غفلتهم البليدة، على حساب كسلهم المتأصل الذي يستثير من فترة لأخرى مقاومات يائسة.

على أية حال، برأيي أننا نرتكب خطأً عندما نفترض أن اللاوعي يعمل بشكل ما وفق مخطط متبصر تقريباً، كما لو أنه يرمي إلى هدف أو يسعى لتحقيقه. لم أصادف أبداً مواقف أو عناصر أتت لتؤكد هذه الفرضية. يبدو أن الحافز الفاعل، في نطاق ما يمكن لنا ضبطه، هو البحث والمتابعة الغريزية لتحقيق الفرد لذاته.

لو كان الأمر صيرورة حيوية (تشبه قانوناً غائياً) لتحرك كل الأفراد الذين يتمتعون زائد بدفعة لا تقاوم نحو درجة من الوعي أعلى. والحال أن ليس في الأمر شئ من ذلك، كما يتجلى لنا. إن طبقات كاملة من السكان لا تبدي، رغم اللاوعي المعروف الذي يعيشون فيه، أي ميل للعصاب.

إن ضحايا هذا العصاب هم في الحقيقة، وبشكل متناقض، كائنات «ذات ماهية أعلى» مكثت طويلاً، لأسباب ما، في مستوى بدائي ولم تبلغ درجة طبيعية من التطور. لم تستطع طبيعتهم أن تواظب على المدى الطويل على خمود تراه شاذاً. ونظراً لوعيهم الضيق وآفاق وجودهم المحدودة كان يحصل عندهم إدخارات في الطاقة تراكمت لاشعورياً شيئاً فشيئاً من أجل أن تنفجر أخيراً بشكل عصاب أكثر أو أقل حدة.

إن هذه الآلية البسيطة لا تموه بالضرورة مخططاً. إن وجود دافع غريزي يميل إلى تحقيق الذات يبدو هنا تفسيراً كافياً تماماً. نستطيع أيضاً أن نتحدث عن نضج للشخصية.

غالب الظن أننا مازلنا بعيدين جداً عن قمة وعي مطلق. وبالنتيجة فمن المنطقي أن يكون كل فرد قادراً على الوصول إلى درجة وعي أعلى. لهذا من حقنا أن نفترض أن الصيرورات اللاواعية تلملم دائماً وحيثما تكون محتويات تأتي بها إلى الوعي الذي إذا استقبلها وتعرف عليها توسع محيطه وأفقه بشكل هام. يبدو الوعي من هذا المنظور كأنه حقل تجارب غير محدد وغير قابل للتحديد.

لو كان اللاوعي مجرد ارتكاس وانعكاس للوعي لكان مباحاً لنا أن نرى فيه «عالماً من الظلال النفسانية». لو كان الأمر كذلك، لكان الوعي المنبع الأساسي لكل المحتويات والنشاطات، ولما وجدنا في اللاوعي - في أفضل الحالات - إلا الصورة المنعكسة والمشو هة لمحتويات واعية، ولتوضعت الصيرورات الخلاقة في الوعي وأصبح كل فتح والهام وابداع مجرد لقيات لوعي يُنقِّب.

والحال أن الوقائع والتجربة يسجلان عكس ذلك. إذ يعرف كل كائن مبدع، لأنه عاش التجربة مرات عديدة، أن العفوية اللارادية هي العلامة الأساسية للفكر الخلاق. لأن اللاوعي ليس ببساطة عالماً إنعكاسياً من

الظلال، وإنما نشاط خلاق مستقل، يشكل حقل تجربته عالماً بذاته وحقيقة تؤثر علينا كما نؤثر عليها، وهذا يعني أن علينا أن ننجز إزاء عالم اللاوعي المسعى ذاته، وأن نحافظ إزاءه على ذات المسافة العلائقية التي هي إزاء العالم الخارجي. ومثلما تشكل الموضوعات المادية عناصر هذا الأخير، تكون العوامل النفسية في عالم اللاوعي مكافئات الأشياء.

إن فكرة شيئية نفسية ليست اكتشافاً حديثاً، بل إنها إحدى الانتصارات المبكرة والأكثر انتشاراً للإنسانية: لقد آمنوا بعالم أرواح يوجد فعلاً. ولم يكن اكتشاف عالم الأرواح بأية حال كاكتشاف النار. ولكنه كان ترجمة أو إدراكاً حقيقياً، وهو رغم كونه كذلك لا ينتمي بشئ إلى عالم المادة. وأنا أشك بوجود بدائيين لم يعرفوا التأثير أو الجوهر السحري، حيث كلمة «سحري» عبارة أخرى للتعبير عن البعد النفسي. يبدو أيضاً أن كل البدائيين تقريباً كانوا متآلفين مع الأرواح أكثر أو أقل[10].

إن «الأرواح» ظاهرة نفسية. فكما نميز جسمانيتنا الخاصة عن الأجسام الغريبة يميز البدائيون بين نفوسهم والأرواح (بما كانوا يمتلكونه من فكرة عن الروح) خاصة أنهم يستشعرون الأرواح غريبة وخاضعة لسيطرة أخرى. إنها موضوع إدراكات خارجية في حين أن نفسهم الخاصة (أو إحداها، اذا افترضنا عدداً منها ضمنياً) ليست موضوع إدراك حسي مدعى، رغم أنها تستشعر كأنها من طبيعة متآلفة بعض الشئ مع الأرواح.

بعد الموت، تتحول النفس، أو واحدة من النفوس المختلفة، إلى روح تستمر في الحياة بعد المتوفي. وغالباً ما تترافق هذه الظاهرة بتبدل الطبع الذي يصبح شريراً، وهو ما يناقض جزئياً فكرة خلود شخصي. كان الباتاك[11] يؤكدون أنه حتى الأشخاص الطيبون في حياتهم يصبحون أرواحاً مؤذية وخطرة. زد على أن كل ما يرويه البدائيون من مقالب تقوم بها الأرواح للأحياء، وبصورة أكثر عمومية، كل الصور التي يعطونها عن

«العائدين»، تعود في تفاصيلها إلى الظواهر التي تصفها التجارب الأرواحية.

إن «أرواح البدائيين» تجلّيات للمركبات اللاواعية[12]، بغض النظر عن الإتصالات الأرواحية للأرواح والتي نستطيع من خلالها أن نميز أنها تنبثق من نشاط جزئيات نفسية أكثر أو أقل تلقائية، وما يمنحه علم النفس الحديث من أهمية «لمركب الأهل» هو استمرار مباشر للتجربة البدائية، التي تعرف الفعالية الخطرة للأرواح الأهلية. إن الحكم الخاطئ الذي يرتكبه البدائيون، عندما يفترضون أن «الأرواح» تنتمي الى حقائق العالم الخارجي، يجد استمراره في الإفتراض الضمني والشائع للمحدثين ـ الصحيح جزئياً ـ والذي يعتبر الأهالي بلحمهم وعظامهم مسؤولين عن مركب الأهل. كان هذا الافتراض يمتلك أهمية تفسير علمي في نظرية الصدمة القديمة لعلم النفس الفرويدي وما بعدها. وقد اقترحت في وقتها عبارة إيماجو الأهل[13] من أجل التخفيف من هذا الخلط الكامن.

بالطبع لا يعي الكائن الساذج أن أقرب الكائنات التي تحيط به وتؤثر عليه تستثير عنده صورة تنتمي إلى الكائنات الخارجية جزئياً، في حين أن ماتبقى منها يتألف من مواد تصدر عن الكائن نفسه. هذه الصورة الضمن ـ نفسية أو الإيماجو تصدر إذاً عن انتماء مزدوج: تأثيرات الأهالي من جهة وردات الفعل النوعية للطفل من جهة أخرى؛ إنها إذاً صور لاتنتج نموذجه إلا بصورة مشروطة. بالطبع لايمتلك الكائن الساذج أدنى قناعة بأن أهله هم كما يتمثلهم لنفسه وأنهم يتطابقون مع الصورة الداخلية مسقطة لاشعورياً، وما أن يتوفى الأهل حتى تستمر الصورة فعالة وديناميكية كما لو كانت روحاً موجودة بذاتها. يتحدث البدائيون عندئذ عن أرواح الموتى التي تعود لتلاحقهم في الليل (العائدون)؛ والمحدثون يطلقون على ذلك عقدة الأب والأم.

كلما كان حقل الوعي عند كائن ما محدوداً، تبدّت له محتوياته النفسية (متخيلاته) بطابع البرانية، أي أنها خارجية بالنسبة إليه، على سبيل المثال بشكل تسلط سحري أو أرواح متسلطة على كائنات حية (وسيجد الآخرون أنهم منذئذ مزودون بقدرات هي في نظرهم فوق طبيعية)؛ هكذا ينشأ السحرة والمشعوذون.

وفي مستوى أعلى من التطور، حيث تمثيلات النفس موجودة أصلاً، لا يتم إسقاط المتخيلات كلها (مادامت كذلك، فإن الأشجار والحجارة ذاتها تتحادث مع بعضها) وإنما يقترب هذا المركب أو ذاك من الوعي إلى درجة أن لايستشعره غريباً عنه بل منتمياً إليه بالذات. على أية حال لن يصل شعور الإنتماء هذا إلى مزج ودمج المركب المقصود في محتويات الوعي الذاتية. يستمر المحتوى العقدوي بين اللاوعي والوعي كما في تدرج الضوء[14].

بالتأكيد يستشعر الفرد أن هذا المحتوى ينتمي للوعي أو يقيم معه علاقات من الإلفة والقربى، ولكنه مازال وجوداً تلقائياً يمكنه أن يجابه الوعي وألا يطيع القصديات الذاتية بالضرورة. وقد يبدو المركب فائق التنظيم نسبة للوعي مشكلاً في أغلب الأحيان مصدر إلهام وتنبؤات أو معلومات فوق طبيعية. يشكل مثل هذا المحتوى النفسي، من وجهة نظر نفسانية، مركباً تلقائياً بشكل جزئي غير مندمج تماماً مع الوعي. وإن النفوس البدائية، الباوالخا المصريتين، مركبات من هذا النوع. يبدو هذا المركب في مستوى أعلى، وخاصة عند الشعوب ذات الثقافة الغربية، بشكل مؤنث دائماً (الأنيما والنفس)، ومن نافلة القول أن لذلك أسسه ونتائجه العديدة التي يؤدي إليها.

الحواشي:

1 ـ لايتصور القارئ أنها وصفة سهلة. إنه تطور دقيق جداً وكأنه قدر، عقباته كثيرة، وبشكل خاص نقائصنا ومحاباتنا لأنفسنا ورغد العيش الذي نظن أننا سنوفره لأنفسنا فكلها ممنوعة بعنف لامثيل له. (ر. ك).

2 - Christina Albertas Father. londres et Newyork

3 ـ نشرت في باريس عام 1916.

4 - Varieties of religious Experience, londres et Cambridge, 1902. trad. franaisc de F. Abouzit. 1906.

5 ـ انظر ليونغ «الدين في ضوء علم النفس». مذكور سابقاً.

6 ـ على الضفاف الجنوبية والغربية لجبل ألجون في كينيا وقد زارها يونغ عام 1926. (ر.ك)

7 ـ هو القصر القديم لسلطان تركيا. (ر. ك)

8 ـ وكما أشرنا في الحاشية الأولى للكتاب يبدو أن الأمور تحدث على الشكل التالي: عندما يريد اللاوعي أن يعبر عن محتوى ما يحدث الأمر وكأنه يبحث في مستودع بدائله (وهو مجموع المواد التي يقدمها له المعاش والذاكرة والذكريات) عن صور تمثل بأقرب صورة ممكنة ومناسبة وبموائمة مدهشة مايجب تمثيله. وهذا صحيح لدرجة أننا نحتاج لعدد كبير من الجمل والتلميحات لكي نعبر بلغة الوعي عما يعبر عنه اللاوعي بمفرادته المصورة والدقيقة رغم قدمها، في صورة وحيدة مؤثرة.

9 - C. G Yung. Psychologie et Education, trad. de Yves le Lay, Buchet - Chastel, Paris, 1963 p. 93 etss; les Racines de la conscience, trad de Yves Le Lay, Buchet - chastel, Paris, 1971, p. 11 etss: "Des archetypes de l'inconciet collectif".

10 ـ يجب ألا يغيب عن بالنا، فيما يخص الروايات التي تنفي ذلك، أن الخوف من الأرواح يمكن أن يكون شديداً بحيث يقود إلى إنكار الخوف ذاته وقد لاحظت هذا الأمر شخصياً عند الألجونيين.

11 - J. Warneck, "Die Religion der Batak", in Religion sur kunden der volker, ed. J. Bohmer, Leipzig, 1909.

12 - C.G Jung. "Fondements Psychologque de la croyance aux esprits", Enrgetque psychique.

13 ـ لقد حصل هذا التعبير على حق المواطنة في التحليل الفرويدي في حين استبدله علم النفس التحليلي بعبارات «الصور البدئية» أو «النموذج البدئي للأهل» (ر.ك)

14 ـ هذه الحالة كثيرة الحدوث أثناء التحليل النفسي.

الفصل الثاني
الأنيما والأنيموس

تبدي أرواح الأب والأم، من بين كل الأرواح الفاعلة، الأهمية الكبرى عند البدائيين. لذا تحولت عبادة الأجداد، المنتشرة عالمياً والموجهة أساساً لتهدئة «العائدين»، في مرحلة أعلى من الحضارة، إلى مؤسسة أخلاقية وتربوية بشكل أساسي (كما في الصين مثلاً). وبديهي أن الأهل هم أقرب الكائنات إلى الطفل وأكثرهم تأثيراً عليه. لكن المراهق يتجاوز هذا التأثير عند سن البلوغ. ويثبت نفسه، في عملية تحرره بالمواجهة؛ إنه يسعى إلى التقليل من الآثار المتلقاة، أي إنه يكبت ويتخلص من العقابيل النفسانية لتربيته. وتصبح «المتخيلات الأهلية» مرفوضة أكثر ومكبوتة خارج الوعي. حتى أنها تصبح بسهولة مثقلة بدلالة محقرة بسبب التأثيرات القهرية التي تنبثق عنها والتي غالباً ما تستمر. تساعد هذه الظروف على تثبيت المتخيلات الأهلية في برانية نفسانية حيث تبقى غريبة.

والحال أن المرأة بالنسبة للرجل البالغ، هي التي تحل في المستقبل مكان الأهل كتأثير من المحيط المباشر. المرأة رفيقة الرجل. إنها جزء من حياته وهي خاصته. فهي تتقاسم معه وجوده واهتماماته بما إنها نسبياً من ذات السن، لاتتجاوزه لا بالسن ولا بالسلطة ولا بالقوة الفيزيائية، ولاتشكل عوامل تأثير هامه، تتبلور، كعامل الأهل، في إيماجو ذات طبيعة تلقائية نسبياً؛ مع ذلك فهذه الإيماجو على عكس إيماجو الأهل، يجب ألاتكون منفصلة وإنما مرتبطة بوعي الرجل.

تشكل المرأة، بنفسانيتها المختلفة عن نفسانية الرجل مصدر معلومات عن فصول لايمتلك بخصوصها أية نظرة أو تمييز، كما يمكن أن تكون مصدر إلهام له؛ لأن قدراتها الحدسية المتفوقة غالباً تمنحه وسائل إنذار. أما عاطفتها المتمحورة حول الخصوصيات الشخصية فترشده إلى دروب تبقى عادة مغلقة على عاطفة الرجل قليل التوجه والإنجذاب نحو المستويات الشخصية. وما يقوله تاسيت Tacite[1]. عن المرأة الجرمانية يوافق وجهة النظر هذه تماماً.

هنا بالضبط يكمن واحد من المنابع الرئيسية للصفة الأنثوية للنفس المذكرة؛ ولكن يبدو إنه ليس الوحيدة. الحقيقة أنه لا يوجد رجل مذكر تماماً بحيث يكون مجرداً من أي ملمح أنثوي. بل على العكس، الواقع أن رجالاً ذكوريين جداً يمتلكون حياة عاطفية وحميمية رقيقة جداً (بالتأكيد يحمونها ويخفونها بأفضل ما يمكنهم على الرغم من أننا نخطئ إذ نرى فيها ضعفاً أنثوياً).

يبدو من المقبول تماماً أن كبت كل ملمح أنثوي عند الرجل بقدر ما يمكن هو فضيلة، كذلك بالنسبة للمرأة، إذ إن النوع المسترجل، غير محبذ، حتى الآن على الأقل. إن كبت الرجل ميوله وملامحه الأنثوية يحتم تراكم هذه الحاجات والمتطلبات في اللاوعي. فتصبح إيماجو المرأة ـ الموجودة في نفس الرجل ـ المتلقي الطبيعي لها. لهذا يستسلم الرجل غالباً، عند اختيار محبوبته، لتجربة إغواء امرأة تشبه على وجه التحديد الطبيعة الاستثنائية لأنوثته اللاواعية إلى أقصى حد. يتطلع بذلك إلى إيجاد رفيقة تستطيع أن تتلقى بأقل ما يمكن من الأضرار إسقاط نفسه. رغم أن مثل هذا الاختيار غالباً ما يعتبر ويستشعر على أنه الحالة المثلى، ينتج عنه أن الرجل قد يتزوج بهذا الشكل التجسيد المرئي لأعظم نقيصة. (هنا يكمن تفسير عدد من الزيجات المتنافرة والمفاجئة!).

إذ يبدو أن أنوثة الرجل الخاصة، إلى جانب تأثير المرأة، هي التي تفسر واقع أنثوية المجموعة المركبة التي تدعوها نفسه.

لسنا هنا بصدد تلك «الصدف» اللغوية التي تجعل من الشمس في الألمانية مؤنثة في حين أنها مذكرة في لغات أخرى. إن الدليل على أنوثة النفس المذكرة يقدمه لنا الفن على مر العصور وفوق ذلك التساؤل الشهير: هل للمرأة نفس؟ إن معظم الرجال الذين يمتلكون أدنى حس نفساني يلتقطون ما رمى إليه ريدر هاجار R.Haggar[2] عندما تحدث عن تلك التي يجب أن تطاع، وما هي الأوتار التي تهتز فيهم عندما يقرؤون الوصف الذي قدمه بيار بونوا P.Benoit لانتينيا[3] وهم يعلمون أي نوع من النساء يجسد بطريقة أفضل ذاك الجانب من طبيعتهم يستشعر بغاية الوضوح مهما كان سرياً.

من المؤكد أن الانتشار الواسع والنجاح الذي تلاقيه مثل هذه الأعمال، يدل على أنه عمل فوق فردي يكمن في أنيما الرجل الأنثوية هذه، وهو ليس ذا وجود عابر مرده بعض الوحدانية الفردية، بل على العكس، إنه يمتلك شيئاً نموذجياً غرس جذوره العميقة في مكان ما بعيد عن الروابط السطحية المرئية التي ألمحت إليها للتو. إن تشديد ريدر هاجار في «هي» وبيار بونوا في «اتلانتيد» على الطابع التاريخي للشخصيات التي تجسد الأنيما جعل منهما دون لبس محتمل ممثلي هذه الفكرة الحدسية.

نعلم أنه لاوجود لتجربة إنسانية ـ كما أن أي تجربة غير ممكنة ـ دون إضافة استعداد ذاتي. ولكن مم يتألف وأين يكمن هذا الاستعداد الذاتي للتجربة؟. إنه يتكون من بنية نفسية فطرية هي العامل الذي يسمح للرجل عموماً أن يقوم بمثل هذه التجربة ويحياها. هكذا، فإن كل طبيعة الرجل تفترض المرأة وطبيعتها فيزيائياً ونفسياً. إنه نسق حي مكيف قبلياً وفقاً

للمرأة ومتمحور على المرأة بنفس الطريقة التي تجعله مهيأً لأن يحيا في عالم يلتقي فيه الماء والنور والهواء والملح وماءات الكربون..... إلخ.

إن شكل وطبيعة العالم الذي يولد فيه الكائن ويكبر فطريان وممثلان فيه بشكل صور مُضْمَرَة. وبذلك، فالأهل والمرأة والأولاد والولادة والموت كلها فطرية فيه بشكل استعدادات نفسية مسبقة الوجود، بشكل صور مضمرة. من البديهي أن هذه المجموعات ذات الطبيعة الجماعية هي صور الأهل والمرأة والأولاد عموماً، بعيداً عن الاستعداد الفردي المسبق.

يجب أن ننظر إلى هذه الصور الفارغة على أنها فارغة مالم تؤثث بمحتويات تحددها التجربة المعاشة، ولهذا فهي تبقى لاواعية ولامرئية[4]. وهي لن تكتسب شدة وبالتالي تأثيراً على الشخص، وفي النهاية وعياً، إلابتلاقيها مع معطى معاش. يحدث عندئذ، في مكان شبه هندسي، نقطة تقاطع بين الاستعداد الداخلي والملموس الخارجي كنقطة حرجة. إذ يتيقّظ الاستعداد اللاوعي، تحت هذه الصدمة الكاشفة، للحياة.

هذه الصور المضمرة هي تراكم للتجارب التي عاشتها سلالة الأجداد، إنها ليست التجارب نفسها وإنما الراسب البنيوي. هذا على الأقل ماتسمح لنا معارفنا في حالتها الحالية أن نفترضه. (يجب أن أعترف أنني لم أجد بعد أية دلائل قاطعة تثبت الانتقال الوراثي للصور - الذكرى). ومع ذلك فإني لا أستبعد إطلاقاً إمكانية أن يوجد على هامش الرواسب الجماعية التي لا تحتوي أية خصوصية فردية بعض الذكريات الفردية والموروثة أيضاً.

يكمن في لاوعي الرجل، بشكل موروث، صورة جماعية عن المرأة يستطيع بواسطتها مقاربة الماهية الأنثوية. إن هذه الصورة الموروثة هي ثالث منبع هام لأنوثة النفس المذكرة.

وكما سبق للقارئ أن فهم، لايتعلق الأمر أبداً بمفهوم فلسفي أو ديني

عن النفس وإنما بالقبول النفساني لوجود مركب نفسي نصف واع يمتلك وظيفة تلقائية بشكل جزئي.

بالطبع يمتلك هذا الاستنتاج نقاط اتصال مع مفهوم فلسفي أو ديني عن النفس، بذات المقدار الذي يتصل فيه علم النفس مع الفلسفة أو الدين. ومع ذلك فالقوة هي في أن أمنع الأول والثاني من أن يدعيا وصف مايجب أن يعنيه النفساني بهذه العبارة.

إن ميزة الخلود الشخصي الذي تمنحه التصورات الدينية للنفس بكل سرور، لا تشكل في نظر العلم إلا دليلاً نفسانياً مرده فكرة تلقائية النفس. ولاتترافق النفس في التصورات البدائية مع صفة الخلود الشخصي بشكل دائم، ولا مع صفة الخلود بذاتها. وإذا تجاهلنا هذه الأخيرة التي تعتبر إحدى الأفكار العصية على الفكر العلمي، نتساءل ماذا يعني «الخلود»؟ يشير الخلود، في المفهوم النفساني، أولاً وبكل بساطة إلى فعالية نفسية تخرق كل حدود الوعي إن تعبير «مابعد القبر أو الموت» مرادف نفساني لـِ «ماوراء الوعي». إضافة إلى أنه قد يمتلك أي معنى آخر بما أن الخلود مطمح دائم للإنسان الحي الذي لايستطيع، تحديداً لأنه حي، أن يفيض في الحديث عما يقع في الـ «ماوراء».

بالطبع إن تلقائية مركب النفس تدعم وتعزز تمثل كينونة لامرئية شخصية تحيا في الظاهر في عالم مختلف عن عالمنا. وبمقدار مانستشعر أن فعالية النفس هي حيوية كائن مستقل لا يرتبط بجسمانيتنا العابرة الخاصة، يقوى بسهولة تمثيل هذا الكائن على أنه في المطلق يوجد بذاته، ربما في عالم أشياء لامرئية.

على أية حال، لا نرى منذ الآن، دون تفسير آخر، لماذا تكون لامرئية كائن مستقل مرادفاً لخلوده في الوقت ذاته. إن صفة الخلود تنشأ بلا شك من واقع آخر سبق ذكره، وهو المظهر التاريخي الفريد للنفس. ريدر هاجار

أعطى إحدى أفضل التوصيفات التي أعرفها عن هذه الخاصة في «هي». عندما يقول البوذيون أن التقدم على طريق الكمال بفضل الاستبطان والتأمل يحدث تذكر واستذكار لتجسدات سابقة، فهم يعودون بلا شك إلى المعطى النفساني الأساسي، مع ذلك الفرق الذي يعزون بموجبه المركب التاريخي ليس للنفس ذاتها وإنما للذات.

ان عزو الخلود حدسياً وشاعرياً (وتقليدياً أيضاً) لنفس نفصلها عن الأنا الموافقة، هو انفصال تؤكده المزايا والقدرات الأنثوية للنفس المذكرة[5]، ويتفق تماماً مع الموقف العقلي الإنبساطي كما ساد حتى الآن في الغرب.

ويكون منطقياً أن يحدث عندنا في الغرب، بفضل تعميق لثقافة العقل الاستبطانية المهملة حتى الآن، تحول يقرب حياتنا العقلية من شكل الروح الشرقية. فتمر صفة الخلود من الكينونة الملتبسة للنفس (صورة الانيما) إلى الذات. لأن التقدير الفائق للغرض الخارجي، المادي بشكل أساسي، يستثير في داخل الرجل تكوكباً لصورة روحية وخالدة (بالطبع من أجل غاية تعويضية وتعديل ذاتي). في الحقيقة، لا يلازم العامل التاريخي الأنموذج البدئي للأنوثة فقط وإنما كل النماذج البدئية عموماً، أي كل عناصر الجسد والعقل الموروثة. إن حياتنا في الأساس هي ذات الحياة التي تتوالى منذ الأزمنة السحيقة. على أية حال، إنها لا تمثل بما نعنيه هنا طابعاً مرحلياً، لأن المسارات الفيزيولوجية والنفسانية التي تشكل حياة الإنسان منذ مئات وآلاف السنين هي ذاتها المستمرة دائماً، وهي تمنح الشعور الداخلي الحدس الأعمق باستمرارية أبدية للحي. إن ذاتنا كخلاصة لنظامنا الحي، لا تحتوي تراكم ومجموع كل حياتنا المعاشة فقط بل هي المادة الأولية والذرة والمنبع والطينة الخالقة لكل حياة مستقبلية، تغني بصيرتُها الإحساس مثلما تُغنَى المعرفة بالماضي التاريخي. وتُستخلص فكرة الخلود بشكل

مشروع من هذه المعطيات النفسانية الأساسية ومن هذه الأسس المتوجهة بآن واحد نحو الماضي والمستقبل.

يجهل العالم الشرقي في مفهومه عن الأشياء والعالم فكرة الأنيما كما عرضتها؛ ويجهل أيضاً، وذلك منطقي، فكرة القناع. وليس الأمر مجرد صدفة، إذ يوجد كما ألمحت أعلاه علاقة تعويضية بين القناع والأنيما.

إن القناع مجموعة معقدة من العلاقات بين الوعي الفردي والمجتمع؛ وهو مكيف للغايات المخصصة له، يرتديه الفرد أو ينزلق فيه، أو يتملك هو الفرد ويستحوذ عليه من حيث لا يدري. إنه محسوب ومنظم ومصنع بهذا الشكل لأنه يرمي إلى خلق انطباع ما عند الآخرين من جهة، وإلى إخفاء وتورية وتمويه طبيعة الفرد الحقة من جهة أخرى. إن من يتماهى مع قناعة لدرجة البقاء في جهل عميق لذاته هو الوحيد الذي يمكنه أن يدعي أن إخفاء الطبيعة الحقيقة غير مجد. كذلك إن من يجهل الطبيعة الحقة للأشخاص المحيطين به هو الوحيد الذي يتخيل أن إعطاء انطباع ما لكائنات محيطه غير مجد.

ينتظر المجتمع، وعليه أن ينتظر، من كل فرد أن يتحمل ويؤدي الدور الممنوح بأفضل صورة ممكنة. هكذا على سبيل المثال، يتوقع المجتمع من قسّ أن يتحمل واجبات مهمته دون اعتراضات، وأن يكون في شخصية القسّ على أفضل وجه في كل الأوقات والمناسبات. هذا ما يتطلبه المجتمع كنوع من الضمانة والتأمين: أن يبقى كل شخص في مكانه وينحصر في مجاله: فهذا سكاف وذاك شاعر. لم يتوصل أحد لأن يكون أحدهما والآخر معاً. زد على أنه يبدو من غير المرغوب أن يكون أحدهما الإثنين معاً لأنه يصبح مشبوهاً بسرعة: إن في ذلك أمراً مقلقاً. لأن مثل هذا الرجل لا يوافق المقياس الاعتيادي، إنه يختلف عن الآخرين ويستثير التحدي. يصفونه في العالم الجامعي بأنه «هاوٍ» وفي عالم السياسة بأنه

«رجل ذو ردات فعل غير متوقعة» وهو من وجهة النظر الدينية وبالنسبة للمتدينين «عقلٌ حرٌ» وباختصار، يعتبره المجتمع المقتنع بأن السكاف الذي ليس بشاعر أبداً، هو الوحيد الذي يصنع الأحذية وفقاً للمواصفات الفنية، شخصاً قليل الجدية ومستهتراً ومتهماً بالتقصير وعدم الاستعداد. لذا من المهم جداً في الحياة العملية أن تبدو الشخصية تحت سمة واحدة لأن المجتمع الذي لا يعرف إلا الرجل المتوسط يعرف أن هذا الأخير عليه أن يركز على اهتمام واحد لينجز شيئاً مفيداً، وأن توزعه بين اهتمامين، كثير عليه أصلاً.

من المؤكد أن مجتمعنا مبني انطلاقاً من مثل هذه النمط. فليس مستغرباً إذاً أن يكون ضروري لأي شخص يريد الوصول أخذ ذلك بعين الاعتبار. والحال أن لا أحد يمكنه كفرد أن يلبي هذه الرغبة تماماً، وبالتالي فكل يجد نفسه في مواجهة حتمية مع ضرورة بناء شخصية اصطناعية. إن متطلبات امتثالية لاتصدم وأخلاقاً حميدة تقدم مساهمتها في صناعة قناع لائق ومقبول.

وينمو خلف هذا القناع ما ندعوه «الحياة الخاصة». وإن هذا الانقسام للوعي، المعروف جيداً، إلى أخوين سياميين يختلفان عن بعضهما إلى حد الإضحاك يمثل عملية نفسية عميقة لا يمكن أن تبقى دون نتائج على اللاوعي.

إن تشكيل قناع يخضع للمعايير الجماعية التي يوافقها يشكل تنازلاً ضخماً للعالم الخارجي وتضحية حقيقية بالذات، تجبر الأنا مباشرة على التماهي مع القناع بحيث يوجد حقيقة أفراد يعتقدون أنهم ما يمثلون. ولكن «غياب الروح» الملازم لهذا الموقف ظاهري فقط إذ لا يقبل اللاوعي بتاتاً مثل هذا الانتقال لمركز الثقل. وعندما نتفحص حالات مماثلة بعين ناقدة نكتشف بسرعة أن حياة خاصة تعاوض الواجهة الباهرة. لقد اشتكى

(القس دروموند) يوماً من أن «المزاج السيء هو عيب الأشخاص المتدينين». بالطبع إن من يسمح لنفسه ببناء شخصية فائقة التقدير ولائقة جداً يحصد في المقابل أمزجة انفعالية نزقة. كان بسمارك يعاني من نوب دموع هستيرية؛ وتفيض مراسلات فاغنر بالتفاصيل عن شرائط الحرير في مبذله؛ وكان نيتشه يكتب الرسائل إلى «لاما العزيز» وكان غوته يتحادث مع إيكرمان.

و قد تطرأ أحداث أكثر حساسية من هذه النقائص التافهة ومن هفوات رجال عظماء. لقد تعرفت مرة على رجل رائع، جدير بالاحترام من كل النواحي - كان يمكننا بسهولة أن نقول عنه أنه قديس. أمضينا معاً ثلاثة أيام كنت أرقبه خلالها خلسة دون أن أتمكن من اكتشاف أقل نقيصة فيه تميز معظم الفانين. شعرت من خلال هذا الاتصال أن إحساساً بالدونية يكبر في داخلي ويصل إلى أحجام مهددة، وبدأت أفكر بجدية بضرورة تحسين نفسي إلى أن أبدت زوجته في اليوم الرابع رغبة باستشارتي... ومنذ هذا اللقاء وجدت نفسي من وقت لآخر في مواقف مماثلة، ولكني لم أدع نفسي أتأثر بمظاهر القداسة. لأني فهمت وتعلمت أن رجلاً يتماهى مع قناعه يستطيع، دون انتباه منه، أن يدع كل عناصر نفسانيته التي تزعجه والتي يرغب بالتخلص منها تسيل وتنزلق إلى زوجته، فتجسدها وتحياها دون أن يلحظ ذلك، وتدفع ثمن تضحيتها بنفسها، دون أن تمتلك وعياً واضحاً لأسباب ما يحدث لها، عصاباً ثقيلاً.

إن هذه التماهيات مع الدور الاجتماعي تشكل مصدراً وفيراً للعصاب. إذ لا يستطيع الرجل أن يرتهن لصالح شخصية اصطناعية دون أضرار ودون أن يُعاقب على ذلك بشدة.

إذ إن أقل استثارة للإنسان الداخلي وأقل نبذ من الإنسان الخارجي لمثل هذا الاجراء يحتم في كل الحالات التافهة ردات فعل لاواعية، وأمزجة

ووجدانات ومخاوف وتمثيلات موسومة، ونقائص وعيوب. إن الرجل الذي يقدم نفسه في الحياة الاجتماعية على أنه «الرجل القوي» و«الرجل الحديد» غالباً مايشبه الطفل في حياته الخاصة وفي مواجهة مشاعره وحالات نفسه: إن الانضباط الذي يبديه والذي يتطلبه بشكل خاص من الأخرين يُنتقض ويُهان على المستوى الخاص بشكل مخجل وكاريكاتوري. إن «ذهابه إلى العمل» و«جاهزيته المهنية» و«إخلاصه لواجبه» لها في إطار منزله وجهاً سوداوياً. وعندما ننزع القناع تبدي أخلاقيته الرسمية المثالية، سحنة فريدة. ونستند هنا إلى الأفعال أكثر منها إلى حركات المخيلة. اضافة إلى أن نساء هؤلاء الرجال يستطيعون إعلامنا الكثير عنهم على مسؤوليتهن؛ أما فيما يتعلق بغيريتهم الشهيرة... فأطفالهم في موقع جيد عموماً لكي يعرفوا قيمتها.

بمقدار مايدفع العالم الفرد إلى التماهي مع قناعه، وبمقدار مايستسلم هو لهذه الإغراءات، يخضع للتأثيرات التي تنبثق عن العالم الداخلي، ويكون في أغلب الأحيان ضحية لها. يقول لاوتسو إن «الأعلى يرتكز إلى الأسفل». عندما يتماهى الفرد مع قناعه ينبجس التناقض من داخل نفسه ويؤثر على الأنا، ويحدث كل شيء كما لو أن اللاوعي يقمع الأنا بقدرة تساوي تلك التي يجذب بها القناع هذه الأنا، وكأن الخضوع للمحرضات الخارجية ولاغراءات القناع يعني ضعفاً مماثلاً في مواجهة القوى الداخلية وقدرات اللاوعي. وبينما يتحمل الفرد دور شخصية قوية وفعالة في علاقته مع العالم، ينمو في أعماقه ضعف أنثوي في مواجهة كل التأثيرات التي تنبثق من اللاوعي. يصبح ميالاً أكثر فأكثر إلى نزوات وأمزجة ونوب هلع، وقد يطال الأمر جنسيته التي تتأنث (وهو مايمكن أن يصل إلى حد العجز).

هكذا إذاً يعاوض ضعف إنثوي تماماً داخلياً، وبشكل متزايد، القناع

وصورة الإنسان المثالية التي يرغب ويسعى لأن يكونها. وكلما لعب خارجياً دور الرجل القوي تحول داخلياً إلى نوع من الكائن المؤنث أدعوه أنيما؛ ذلك أن الأنيما هي التي تنبري عندئذ لمواجهة القناع[6]. والحال أن الجو انية تبقى مظلمة ولامرئية على الوعي المنبسط؛ وفي المقابل كلما تماهي الفرد مع قناعه أكثر أصبح أقل إدراكاً لنقائصه الخاصة. عندئذ نفهم أن الأنيما، القطب المواجه للقناع، تستمر مختبئة في الظلمة الكلية، في ليل لايستطيع الوعي اختراقه.

لهذا السبب يتم اسقاط الأنيما آلياً، وهي عملية تمرر البطل تحت خف زوجته. وإذا تنامت قدرة هذه الأخيرة بشكل ملحوظ، كما يحدث عادة، ومارست على الرجل تسلطاً مطلقاً، استعملت هذا الازدياد في الطاقة الكامنة بشكل سيء، فهي لاتعرف ماتفعل بها وتتخبط فيها. فتنمي عندئذ مركب دونية ينم استتباعاً عن سلوك ذي طبيعة أدنى، ويقدم للرجل في المقابل الدليل المرحب به على أنه ليس البطل الذي تنقصه المكانة والقدرة في الحياة الخاصة، وإنما هي زوجته بكل تأكيد. وتسترد هذه الأخيرة بغض النظر عن ضعفها أي تفاهتها ذلك الوهم الذي غالباً ما يُعزّي قلب النساء وهو أنها تزوجت بطلاً. إن هذه اللعبة المتبادلة وهذا الأخذ والرد للأحلام هو مانسميه عادة: فحوى حياة.

مثلما هو ضروري للكائن أن يتعلم التمايز عن المظهر الذي يجسده في عيونه هو من أجل التفرد وتحقيق الذات، كذلك من الضروري، لهدف مماثل، أن يعي النظام العلائقي الخفي الذي يصل بين أناه ولاوعيه وبالتالي أنيماه. من أجل أن يتمكن من التمايز عنها. لأننا لانستطيع التمايز عن شيء لاواع.

فيما يخص القناع، من السهل نسبياً أن نجعل شخصاً ما يدرك بوضوح أنه ووظيفته شيئان مختلفان.

أما فيما يخص الأنيما، فعلى العكس، لانتوصل إلى التمايز عنها إلا بصعوبات كبيرة وببذل جهود ضخمة، لأنها بالتحديد خفية ولاتميز بصعوبة.

بدءاً تمتلك الحكم المسبق بأن كل مايصعد من الداخل ينبثق من الأسس الأكثر حميمية ويشارك بحظوة ماهيته الخاصة. ربما يسلم «رجلنا القوي» بأنه ينم في حياته الخاصة عن غياب للانضباط مقلق قليلاً ولكنه سيتابع قائلاً لنا إن ممكن ضعفه هنا بالضبط وهو يعلن تمسكه به بطريقة ما. يوجد في هذا الموقف إرث ثقافي لايجب أن نستهين به.

إذا اعترف رجلنا القوي أن قناعه المثالي هو المسؤول عن أنيماه غير المثالية على الإطلاق، تتحطم مثله وتصبح صورته عن العالم مشوشة وتتحول إلى لغز بالنسبة إليه. فيتملكه شك في مواجهة مسألة الخير والشر والواقع الأكثر خطورة أيضاً وهو أن الأمر يصل به إلى حد التشكيك بصلاحية إرادته الطيبة. عندما نفكر كم من الافتراضات التاريخية القوية تشرط مفهومنا الأكثر خصوصية عن الإرادة الطيبة نفهم أن من الأفضل لنا، في اتجاه المفهوم العام عن الأشياء، السائد حتى الآن، أن نتهم أنفسنا بضعف شخصي بدلاً من التعدي على مُثُل جليلة.

والحال أن العوامل اللاواعية هي معطيات تمارس قدرات لاتقل ضبطاً عن القوى والمقاييس التي تضبط حياة المجتمع؛ والأولى لاتقل جماعية عن الثانية.

وعندئذ، مثلما أستطيع أن أميز ما تتطلبه وظيفتي وتنتظره مني عما أريده أستطيع كذلك أن أتعلم التمييز بين ما أريده وما يميل لاوعيي الى فرضه علي.

بالطبع لن نتوصل بداية إلى القبض إلا على المتطلبات المتعارضة التي تنبثق عن الحياة الداخلية والحياه الخارجية، فتشعر الأنا إنها محشورة بين

هذه المتطلبات المتعارضة كأنها بين المطرقة والسندان. ولكن في مواجهة الأنا، وأكثر تحديداً على هامش الأنا وإلى جانبها ـ تلك الأنا التي غالباً ما تكون مجرد لعبة تتأرجح حسب رغبة المتطلبات الخارجية ـ يوجد إلحاح آخر يصعب تحديده وإيضاحه ونميل إلى تسميته «الضمير الأخلاقي».

ومع ذلك فأنا مضطر للعودة عن هذه التسمية (وذلك أمر مؤسف للغاية لأننا إذا أخذناها بأفضل ما تعنيه فهي تشير بالتمام إلى ذلك الإلحاح الذي كنت أحدثكم عنه. وبالفعل لقد وصف سبيتلر Spittler بحس فكاهي ملحوظ ماحدث للضمير الاخلاقي(7). لهذا فمن الأفضل بكثير نبذ هذا التعبير بسبب تقارب معناه الهجين. ويفضل تمثيل هذه اللعبة التراجيدية وهذا التعارض التراجيدي للأضواء الموجودة بين الداخل والخارج (وهو مايشير: كتاب أيوب وفاوست ويصفانه بشكل رهان مقدس(8) قائلين إن المقصود حقيقة هي الطاقة الملازمة لكل صيرورة حيوية وأن تعارض الأضداد هذا حتمي من أجل التنظيم الذاتي. مهما تنوعت هذه القدرات المتضادة في مظهرها كما في غائيتها، فهي بعد كل ذلك تبغي في الحقيقة حياة الفرد؛ إن هذه القدرات تتأرجح انطلاقاً من مركز وتجعلها الحياة تتأرجح معها.

وتحديداً لأن هذه الميول المتضادة على علاقة إحداها بالأخرى بشكل سري وخفي، فهي قابلة لأن تتفق على حل وسطي أو حول اتفاق ما ينبثق بالضرورة، إرادياً أو لاإرادياً، من الفرد نفسه، ومن المؤكد أن لديه تنبؤاً حدسياً به. كل فرد يمتلك شعوراً بالذي يجب أن يكونه بما يمكن أن يكونه. إن تجاهل هذا الحدس والانفصال والابتعاد عنه يعني سلوك طريق خاطئ والتورط في درب الضلالة والانتهاء بالمرض(9) بعد فترة تقصر أو تطول.

تتأتى أفكارنا الحديثة عن الشخصية والشخصي من كلمة قناع، ومن المؤكد أن الأمر ليس مجرد صدفة. مثلما أستطيع أن أقول إن أناي شخصية أو أنها تشكل شخصية، استطيع كذلك أن أقول عن قناعي إنه شخصي وأن بامكاني التماهي معه أكثر أو أقل. بالتأكيد إذا تماهيت مع قناعي إمتلكت شخصيتين، شخصية أناي وشخصية قناعي. لايجب أن يبدو لنا هذا الواقع أكثر فرادة مما ينبغي، بما أن كل مركب تلقائي، حتى لو كانت تلقائية نسبية يمثل خصوصية أنه ينبثق على شاشة العمق العقلي مشخصاً.

نستطيع أن نلحظ هذه الظواهر بأسهل مايمكن في التجليات المسماة «أرواحية» كما في الكتابة الآلية على سبيل المثال. إن الجمل المكتوبة هي تصريحات شخصية دائماً، تستخدم صيغة الأنا، كما لو أن وراء كل مقطع من الجملة شخصية كتبته. لهذا يفكر المنطق الساذج بالأرواح على الفور. نستطيع مشاهدة وقائع مماثلة، في إهلاسات المرضى العقليين وبشكل أوضح مما نشاهده في جمل الكتابة الآلية ـ وغالباً مايكون الأمر عندئذ أفكاراً أو مقاطع من أفكار تظهر علاقتها وانتماؤها إلى شخصية المريض الواعية دون صعوبة أو غموض.

إن ميل المركبات التلقائية نسبياً إلى الأنبثاق مشخَّصَةً هو الحافز الذي يبدو القناع من أجله مشخصاً، بحيث أن الأنا تبدأ بالشك والتساؤل، وقد انخدعت بسهولة، عن شخصيتها «الحقيقية»[10].

كل ما ذكرناه للتو عن المركبات التلقائية عموماً وعن القناع خصوصاً ينطبق كذلك على الأنيما: فهي أيضاً شخصية ولهذا يتم إسقاطها على المرأة بسهولة. وبشكل أكثر تحديداً يجب أن نقول إن الأنيما تكون دائماً مسقطة مادامت لاواعية، لأن كل ماهو لاواع يتم إسقاطه.

إن الأم هي الوعاء الأول عملياً لصورة النفس عند الرجل؛ فيما بعد،

تقدم النساء اللواتي يحركن مشاعر الرجل، سواء كان ذلك بصورة سلبية أو ايجابية، انعكاساً حياً لأنيماه. ولأن الأم هي الإناء الأول لصورة النفس، يشكل تحرر الإبن وانفصاله عن أمه منعطفاً تطورياً هاماً ودقيقاً، وذا أهمية تربوية. لذا نجد عند البدائيين عدداً كبيراً من الطقوس التي تنظم كيفيات هذا الانفصال. إن بلوغ سن الرشد والانفصال عن الأم لايكفيان من أجل إتمام انفصال الفرد عن أمه بفعالية، وبالنتيجة عن طفولته. لابد من كل أنواع المسارات الذكورية النهائية الخاصة جداً، واحتفالات تعلن ولادة جديدة.

ومثلما يصبح الأب، بحمايته للطفل من أعباء الحياة الخارجية أنموذجاً للقناع، تقدم الأم لطفلها حماية له من الأخطار التي تنبثق من عوالم النفس المظلمة. لهذا يُلقّن المسار في المسارات الذكورية عن الأشياء الماورائية مايجعله في وضع يسمح له بالاستغناء عن حماية الأم[11].

إن المراهق الذي يكبر في المدنية الحالية يجد نفسه محروماً ـ على الرغم من كل البدائية الباقية فيه ـ من هذه الإجراءات التربوية التي كانت في الحقيقة جديرة بالاهتمام.بنتيجة لذلك يتم اسقاط الاينمة المستريحة بشكل ايماجو الأم على المرأة دفعة واحدة. فيصبح الرجل ما إن يتزوج طفلياً وشاعرياً، تابعاً ومستعبداً، وفي الحالة المعاكسة ثائراً، مستبداً، حساساً، منهمكاً بشكل دائم بميزة التفوق الذكوري الذي يدعيه. بالطبع هذا الموقف الأخير هو انقلاب للأول. لم يجد الرجل الحديث أي شيء يحل محل الحماية التي كانت الأم تعنيها وتقدمها في مواجهة اللاوعي. لهذا يقولب مثاله عن الزواج لاشعورياً، بحيث تكون زوجته مقادة إذا أمكن إلى تحمل دور الأم السحري. يبحث الرجل غطاء الحماية الذي يقدمه الزواج المثالي عن حماية الأم في أعمق أعماقه، يمد بذلك يد

المساعدة لغريزة التملك عند المرأة بشكل خطير. إن خوفه وقلقه، في مواجهة الظلمات المغلقة وقوى اللاوعي المفاجئة، يمنحان المرأة طاقة لامشروعة ويشدّان الزوجين في «رابطة حميمية» لدرجة أنها تهدد دائماً بالإنفجار من شدة التوترات الداخلية. إلا إذا اتخذ الرجل، على سبيل الاعتراض، موقفاً معاكساً في مواجهة هدرة المرأة الفائقة. فهذا يقود ومع ذلك إلى النتائج ذاتها.

برأيي أن هناك ضرورة اليوم لأن يتمايز بعض الأشخاص عن قناعهم وعن أنيماهم أيضاً وأن يدركوا الاختلاف بين أناهم وقناعهم وأنيما هم بشكل واضح.

بما أن وعينا موجه بالأساس - وفقاً للنمط الغربي - نحو العالم الخارجي وهو مجرد متلق لما يرد منه، فان عناصر العالم الداخلي تغرق في الظلام وتبقى في الظل. يمكننا أن نتجاوز هذه الصعوبة بسهولة إذا حاولنا، بجهد متواصل وعقل نقدي، أن نراقب ونستخلص المواد النفسية التي تتبدى في الحياة الخاصة، لا في الحياة الرسمية. ومع ذلك فمن عادتنا اسكات ذاك الجانب الآخر من أنفسنا بعفة صارمة (فنحن غالباً ما نرتجف حتى أمام زوجاتنا لفكرة أنها يمكن أن تخوننا)، وكما لو أن نقائصنا تكشفت للتو فليس أمامنا إلا الاعتراف بها والتوبة عنها. إن الحل الوحيد والطريقة التربوية الوحيدة المعتمدة في أيامنا هي قمع وكبت نقائصنا بقدر ما يمكن، أو على أية حال، توريتها عن أعين الجمهور. وأثناء ذلك، نستمر برؤية أحلامنا تتبدد.

سأتخذ مثال القناع من أجل تفسير وتوضيح ما يجدر في الحقيقة ان نفعله. لقد اخترت القناع لأنه بالنسبة لنا نحن الغربيين مرئي وشفاف، في حين أن ما يتعلق بالأنيما يبقى في الظلمة. عندما تعترض الأنيما قصديات الوعي بإلحاح مقلق، مستثيرة حياة خاصة تتعارض مع بريق القناع

ومذهباته بصورة مؤلمة، تحدث الأمور، مع الاحتفاظ بكل النسب، وكأن رجلاً ساذجاً، لا يمتلك أدنى فكرة عن القناع وضرورات الحياة الاجتماعية يقترف في العالم أكثر الحماقات إزعاجاً.

في الواقع هناك كائنات تمتلك إلا قناعاً في طور النمو أو هي بلا قناع بالمرة «كنديون يجهلون أخلاق الأوربيين الرفيعة» إنهم مثل أشخاص سيئي التربية ينزلقون بزلة واحدة إلى الحماقة، بريئون تماماً من الأولى كما من الأخرى (إذا لم نقل مسالمين)؛ إنهم خطاة لا يندمون، تملؤهم همهمات شاعرية لدرجة أننا لا نستطيع أن نحقد عليهم؛ إنهم مثل أطفال مؤثرين؛ وفيما يتعلق بالنساء، فهن مخلوقات يدعو نقص فطنتهن للقلق، يخرقن العادات والتقاليد ويمثلن دور كاسندرا[12]، نسئ فهمهن دائماً، لا يعلمن ما يفعلن، ويفترضن دائماً أننا يجب أن نغفر لهن؛ إنهن كائنات تنفي نفسها بعدم رؤيتها للعالم وباستبداله أحلامهن. إننا هنا أمام حالات تظهر لنا النتائج التي يؤدي إليها قناع مُهمَل وتسمح لنا برؤية ما يجب فعله من أجل مداواة مثل هذه التقصيرات. لأن مثل هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون تجنب الخيبات وكل أنواع الآلام أو مشاهد العنف التي يوشك أن يقعوا ضحياها، إلا بتعلم التكيف مع العالم والسلوك الذي يمكن اتباعه فيه. يجب أن يتعلموا أن يفهموا أن في العالم عوامل وأشخاصاً يحكمونهم من بعيد. يجب أن ينتبهوا لما يفعلوه وما تعنيه أفعالهم بالنسبة لغيرهم الخ... ويشبه الأمر، عند أي شخص طوّر قناعه بصورة شائعة، الخطة التربوية لحضانة أطفال.

أما إذا قلبنا منظورنا، وجابهنا شخصاً يمتلك قناعاً براقاً مع الأنيما ومشاكلها، وأخذنا الكائن المجرد من القناع الذي وصفناه للتو كنقطة مقارنة. نرى أن الأول طفلي أعزل في مواجهة الأنيما مثلما الثاني في مواجهة العالم. والثاني متآلف مع عالم أنيماه مثلما الأول مع العالم.

بالطبع يمكن أن يكون استخدام هذين الفردين لمعارفهما تعسفياً وهو كذلك على الأغلب.

تبدو إمكانية وجود حقائق داخلية عند من تحد مستويات القناع حياته ويتماهى معه غير قابلة للادراك تماماً. فهو يتبدى مغلقاً وعصياً على هذا البعد من التفكير، مثلما هو الكائن الذي يتمتع بأنيما قوية أمام حقيقة العالم، هذا العالم الذي لا يمثل له أكثر من باحة للتسلية الممتعة بل الخيالية. والحال أن قبول المعطيات التي تشكل الحقائق الداخلية بلا تحفظات هو الشرط الأول الضروري لكل مقاربة جادة لمسألة الأنيما.

في الواقع، إذا بدا لي أن العالم مجرد ظهور متلاش، فمن المؤكد أني لن ألتزم بالجهود الجدية الضرورية لأن أقيم معه نظام العلاقات والتلاؤمات الضرورية المعقد. كذلك فيما يتعلق بالقطب المعاكس، فإن الفكرة التي تعتبر العالم «مجرد حلم أجوف» تدفعني لأن أرى في تجليات أنيماي مجرد نقائص بلهاء عديمة الفائدة.

وعلى العكس، إذا اتخذت وجهة النظر التي تقول إن العالم هو في الخارج وفي الداخل. وإن مرتبة الحقيقي تنتمي إلى الداخل كما إلى الخارج، أكون مضطراً، إذا أردت أن أبقى منسجماً مع نفسي، لفهم التعارضات التي تنبثق والاضطرابات التي تنشأ من عالمي الداخلي على أنها أعراض تكيّف غير كاف مع شروط هذا العالم.

لا يكفي النسيان والكبت المعنوي لمداوات الخيبات والصدمات التي تلقاها كائن شديد السذاجة في العالم، كما لا يكفي احتساب هذه «النقائص» بخضوع من أجل تجنب نتائجها. إذ أن لكل نقيصة أسبابها وحوافزها وقصدياتها وعواقبها التي تستطيع الإرادة والتفهم أن يتدخلا فيها. نأخذ مثالاً ذلك الرجل الذي يمتلك سمعة مشرفة لا غبار عليها والمعروف عنه أنه محسن بينما تعيش زوجته وأولاده في الخشية بسبب

طباعه المتقلبة اللامتوقعة وثورات غضبه. فما هو الدور الذي تلعبه الأنيما في حالة من هذا النوع؟

من أجل مراقبته يكفي أن ندع الظروف لمسارها الطبيعي: تبتعد زوجته وأولاده عنه داخلياً ويصبحون غرباء عنه: فيتشكل حوله نوع من الفراغ، وبالطبع تكون ردة فعله عندئذ الشكوى وإشهاد السماء على قساوة قلب عائلته، ويتصرف إذا استطاع بصورة أكثر ضرراً وتطرفاً من قبل: يصبح اغترابه عندئذ تاماً. واذا لم تنبذ كل الملائكة الحارسة رجلنا الذي لا عيب فيه يتحقق بعد فترة من عزلته. ويبدأ في عزلته بالبحث عما أدى إلى الانفصال ثم إلى فهم أسبابه والإعتراف بأنه مسؤول عنها جزئياً وربما يتساءل مندهشاً أي شيطان ذاك الذي استحوذ عليّ؟ دون أن يشعر كل ما يعنيه هذا التشبيه. على أية حال فذلك كاف لإطلاق مشاعر الندم والتوبة والوعود المتبادلة بأنه سيتحسن وينسى، أي باختصار كل ما يلزم لكي ينطلق الكبت ومضخاته بتكاليف جديدة تقود إلى المنعطف القادم. من الواضح أن الأنيما تحاول أن تفرض انفصالاً بين هذا الرجل وعائلته. بالطبع إن هذا الميل للانفصال ليس في صالح أي من الشركاء. تتسلل الأنيما بين هذا الرجل وعائلته كعاشقة غيورة تريد أبعاد هذا الرجل عن خليته العائلية وبالطبع يمكن لمركز اجتماعي متطلب أو منصب شرفي لائق ممارسة التأثير ذاته؛ نفهم عندئذ أين تكمن قدرة الاغراء. ولكن من أين تنهل الأنيما قدرتها الجاذبة والساحرة عندما تكون هي محرضة النوب! إذا فكرنا قياسياً لما يحدث للقناع والأرباح الحقيقية والمزايا الخارجية التي يستسلم لها فيجب أن نقول لأنفسنا: لابد أن في الخلفية قيماً أو بعض الحوافز الأخرى الهامة والمؤثرة، مثل وعود ضمنية وساحرة. ولكن يجب أن نحترس في مثل هذه النظورات من عادات التفكير المعقلنة. كأن نفترض على سبيل المثال أن الرجل الذي بلا عيوب تجذبه امرأة اخرى. زد

على أن هذه الحالة ممكنة، بل يمكن استخدامها من قبل الأنيما التي تجد فيها وسيلة ولا أقوى للوصول إلى هدفها. ويجب أن لانأخذ هذا «التدبير» على أنه غاية في ذاته. فرجلنا الذي بلا عيوب ولاغبار عليه تزوج بشكل سليم وفق القوانين ويستطيع كذلك أن يطلق بذات الطريقة، وهو مالن يغير شيئاً أبداً في المسألة الاساسية: لأن هذه المسألة المستمرة معه أوفيه تكون بكل بساطة قد غيرت إطارها فقط.

حقيقة الأمر أن هذا النوع من الترتيب غالباً مايستخدم ليقود انفصالات كامنة إلى نهايتها... وأيضاً من أجل تعتيم وتأخير الحلول الحقيقية.

فمن المنطقي أكثر إذاً ألا نفترض أن إمكانية فاضحة لهذه الدرجة تمثل الهدف النهائي الذي يبحث عنه الانفصال. على العكس يبدو ضرورياً ومشاراً به أن نبحث عن الحوافز المختبئة التي يمكن أن تكون منشأ الميل الانفصالي للأنيما.

تقوم الخطوة الأولى من هذا البحث على ما أرغب أن أدعوه «تجسيد الأنيما» يليها المنع القطعي لأن نرى في الميل إلى الانفصال تعبيراً عن ضعف الأنا الشخصي(13).

وعندما يتوطد كل ذلك نستطيع أن نطرح السؤال التالي على الأنيما بشكل ما «لماذا تبحثين عن هذا الانفصال؟» إن طرح السؤال بهذا الشكل له فائدة كبيرة. في الواقع هكذا يتم الاعتراف والقبول بشخصية الأنيما وتصبح العلاقة بين الأنا والأنيما ممكنة. وكلما كانت هذه العلاقة حميمة وشخصية كان ذلك أفضل.

بالطبع تبدو هذه الجدلية تافهة ومضحكة لمن تعود على طريقة تفكير فكرية وعقلانية صرفة. ومن المؤكد أن سعي أحدهم لإقامة نوع من الحوار مع قناعه الذي يعلم أنه لايشكل بالنسبة اليه إلا مكثف وسائله العلائقية

تجاه المجتمع أكثر من عبثي. ولكنه عبثي لمن يمتلك قناعاً بالتحديد. والحال أن من لايمتلك قناعاً يكون في هذا الصدد مشابهاً في كل النقاط للإنسان البدائي الذي لايضع إلا قدماً واحدة في ما ندعوه بشكل شائع عالم الحقائق في حين يضيع الأخرى في عالم الأرواح الذي يتضمن بالنسبة إليه حقيقة مطلقة.

والحال أن رجلنا الذي لا عيب فيه أوربي معاصر من العالم اليومي، أما في مايخص عالم الأرواح فهو في سوية طفل من العصور الباليوليتية. لهذا يجب أن يمر بنوع من المدرسة الأمومية لعصور ماقبل التاريخ من أجل أن يكتسب فيها أفكاراً سليمة وصحيحة عن عوامل العالم الآخر وقدراته. لهذا من الجيد أن ندرك صورة الأنيما كشخصية تلقائية وأن نوجه لها أسئلة شخصية.

يجب أن نرفع هذا الحوار مع الأنيما إلى سوية تقنية حقيقية. ونعلم أن كل فرد يمتلك خصوصية وقدرة أن يتحدث مع نفسه. وكلما غرق الكائن في صراع مغلق توجه إلى نفسه، بصوت عال أو منخفض، بالسؤال التالي (وهل من شخص آخر يسائله؟):

«ماذا علي أن أفعل؟» حتى أنه يجيب نفسه (وهل من أحد غيره يعطيه إجابة؟). لن يزعجنا أبداً في ما ننويه من سبر لأسس طبيعتنا بأعمق مايمكن أن نحيا وفقاً لتشبيه.

يجب أن نقبل قدرتنا على التحادث مع أنفسنا، تماماً مثلما يفعر الزنوج مع «ثعبانهم»، كرمز للتخلف البدائي الذي يميزنا أو للتلقائية الطبيعية التي نحمد الله أنها مازالت حاضرة فينا.

بما أن النفس ليست وحدة أبداً، وإنما تتكون من تجمع مركبات متناقضة. فلن نجد أبداً صعوبة في التحقق من أن الانفصال ضروري للمجابهة الجدلية مع الأنيما. وكل مهارة هذا الحوار الحميم تقوم على أن

ندع الشريك الخفي يتحدث ويحرر محضراً، وأن نضع نوعاً ما في تصرفه آليات التعبير بشكل مؤقت دون أن يقيدنا القرف الذي نستشعره عادة تجاه أنفسنا أثناء هذه العملية التي تبدو لعبة عبثية بلا حدود، ودون أن نستسلم للشكوك التي تهاجمنا بخصوص صدق كلام المتحدث الداخلي.

إن هذه النقطة بالتحديد هامة جداً تقنياً: فنحن معتادون على التماهي مع التفكير الذي ينبثق منا لدرجة أننا نفترض ضمنياً أننا صنعناه. وتبعاً لمتناقضة مضحكة، يجب أن نلحظ أن الأفكار المفاجئة أكثر والعجيبة أكثر هي التي توحي لنا غالباً بأكبر مشاعر المسؤولية الذاتية. إذا امتلكنا وعياً أكبر للقوانين الكونية والثابتة التي تخضع لها الاستيهامات الأكثر غرابة نكون في وضع أفضل لأن نعتبر هذه المحتويات العقلية مجريات موضوعية أو شيئاً ما كأحلام لاندعي مع ذلك أنها لقيات إرادية وقصدية. بالتأكيد إن محاولة اعطاء «الجانب الآخر من أنفسنا» فرصة فعالية نفسية قابلة للإدراك يتطلب إثباتاً للموضوعية وغياباً للأحكام المسبقة نادرين.

لقد تقلص الجانب الآخر من الوعي، نظراً للميل الطبيعي الذي يدفعه إلى الكبت، الى مجرد التبديات والتجليات اللامباشرة والعرضية والانفعالية في أغلب الاحيان، وذلك قبل مجيءالعصر التحليلي. ولم تكن نتف من محتويات اللاوعي التفكرية أو التصورية تطفو على السطح إلا في الأوقات التي يسيطر فيها وجدانه. ومن الطبيعي أن هذه الظروف تؤدي في أثرها إلى نتيجة لاتنفصل عن أي انفجار وجداني؛ إذ تتماهى الأنا وقتياً مع المضامين المعبر عنها بعنف، مع احتمال إلغائها ما أن يمر الوجدان. بالمناسبة، كل مايمكن أن ينبثق وننطق به أثناء وجدان باعصاب باردة، نرى فيه بالتأكيد عناصر مغامرة مجنونة. ولكننا نعلم أننا سننساها بسرعة بل إننا نميل إلى إنكارها. بالطبع يجب أن نأخذ آليات النفي والتحقير بعين الاعتبار إذا كنا نتطلع إلى موقف موضوعي.

إن عادة الوعي في اعتراض مسار العناصر الداخلية وتصحيحها ونقدها وتعديلها قوية جداً. ويقوي هذه العادة، عموماً، الخوف الذي لانريد أن نعترف به لأنفسنا وللآخرين ـ الخوف من بعض الحقائق التي إذا اعترفنا بها نسفت وجهة نظرنا الاعتيادية عن الأشياء، الخوف من اكتشافات خطيرة على كسلنا وعطالتنا، باختصار الخوف من كل الأشياء التي تحث العديد من الكائنات على تجنب البقاء وحدها مع أنفسها. نقول إن ذلك دليل أنانية أو إن الاهتمام بالنفس مرضي، نقول لأنفسنا إننا أسوء المجتمعات «الوحدة تجعل الفرد كئيباً» ـ عديدة هي الشهادات اللامعة التي تقيد طبيعتنا الإنسانية، وهي تميز عقليتنا الغربية. ولكن من يتخذ وجهة النظر هذه لن يتصور أبداً السعادة الملتبسة التي يجب أن يشعر بها الأشخاص الآخرين بأن يتخيل برفقة هؤلاء الجبناء غير القادرين حتى على تحمل انفسهم.

لقد انطلقنا من اعتبار أننا غالباً ما نفشي حقائق الجانب الآخر لاإرادياً أثناء حالة وجدان. لذا يشار باستخدام أوقات الانفعال هذه لإعطاء الجانب الآخر فرصة التعبير عن نفسه. لهذا نستطيع أن نقول إننا يجب أن نثقف أنفسنا في فن التحدث مع أنفسنا أثناء وجدان، واستخدام هذا الآخير كإطار للحوار كما لو أنه محاور يجب أن ندعه يتجلى بغض النظر عن أي فكر نقدي. ولكن ما إن ينجز ذلك، وتكون العاطفة قد أفرغت سمها، علينا وزن أقواله كما لو يتعلق الأمر بأثباتات أطلقها كائن قريب وغال علينا. من جهة أخرى يجب ألا نتوقف أثناء الطريق، يجب مواجهة الفرضيات والفرضيات المضادة إحداها مع الأخرى إلى أن يؤدي الحوار إلى النور ويوصل الشخص إلى حل مرض. والشعور الذاتي هو الوحيد الذي يستطيع أن يقرر في ما يخص هذا الحل. بالطبع إن المواربة مع أنفسنا والبحث عن مهارب في نقاش مماثل لن يفيدنا في شيء. وتفترض هذه

التقنية لتربية الأنيما نزاهة وموالاة متشددة تجاه نفسنا ورفضاً للاستسلام بصورة مبكرة لفرضيات تتعلق بالرغبات وبالعبارات المنتظرة من الجانب الآخر.

يجب أن نتوقف أيضاً عند هذا الخوف الذي مازلنا، نحن الغربيين، ننميه فيما يتعلق بالجانب الآخر. وبالفعل يجب أن نعترف ـ بغض النظر عن كونه حقيقة موجودة ـ أن هذا الخوف ليس مجرداً من الأساس.

لانجد صعوبة في فهم خوف الطفل والبدائي أمام أسرار العالم الفسيح. والحال أنه ذات الخوف الذي نستشعره في الجانب الداخلي من كياننا حيث مازلنا نشبه أطفالاً تتلعثم. هكذا نستشعر هذا القلق من الجانب الآخر كانفعال ووجدان دون أن نشك بأنه خوف من عالم مازال خفياً علينا. ونمتلك نحو هذا الأخير، علي الأكثر، أحكاماً مسبقة أو نظرية بسيطة أو تمثيلات خرافية.

والحقيقة إننا لا نحسد على موقفنا: إذ لانستطيع أن نلفظ عبارة اللاوعي بوجود بعض الأشخاص وإن كانوا مثقفين دون أن نتهم بالتصوف. والحال أنه لا بد من الاعتراف بأن هذا الخوف من الجانب الآخر يكون له أسسه بمقدار ما تزعزع المعطيات التي تتأتى منه مفهومنا العقلاني عن الأشياء مع ضماناته الأخلاقية والعلمية التي نتعلق بها بعاطفة شديدة (تحديداً لأنها ملتبسة). لوكنا نستطيع أن «نجزم بها» لكانت الصيغة المضخمة «لاتحرك ساكناً» الحقيقية الوحيدة المقبولة.

يقودني هذا إلى أن أشير صراحة الى أنني لا أنصح أحداً بالانصراف الى التقنية التي وصفتها للتو، كما لو أنها مفيدة بل ضرورية. لا أستطيع أن أنصح بها إلا الاشخاص المجبرين على استخدامها تحت ضغط الضرورة القاسية أي الذين يحتاجونها حقيقة. إن درجات الوعي والنضج عديدة كما نعلم. وهناك حقائق لن تصبح صحيحة إلا بعد

غد، وأخرى كانت حتى الأمس غير صحيحة، وأخيراً فهناك حقائق لن تصبح صحيحة أبداً.

أستطيع على أية حال أن أتصور كائناً ينصرف الى هذه التقنية مدفوعاً بنوع من الفضول المقدس، مراهقاً يسعى على سبيل المثال لاكتساب أجنحة، ليس لأن قدميه مشلولتان بل لأنه يحن إلى الأجواء العالية. لكن البالغ الراشد الذي رأى العديد العديدمن الأوهام تذوب في نار الحياة، لن يتنازل لما يشعر أنه إهانة داخلية إلا مدفوعاً ومجبراً: فهو يجد أن الاستسلام مرة أخرى لمسارات مخاوف الطفولة ذل كبير. فلنعترف أنه ليس من السهل عليه أبداً أن يشعر أنه جالس بين كرسيين: كرسي عالم نهاري تزعزعت مثله وأفرغت قيمه وآخر لعالم ليلي تحركه استيهامات خرقاء.

إن وجود قدم في هذا العالم وأخرى في ذاك موقف صعب الاحتمال لدرجة تدفع أي كائن لأن يمد يديه اليائستين صوب بعض الأمان، حتى لو كان أماناً ناكصاً كالذي تمثله الأم التي تحمي طفلها من مخاوف الليل والظلمة. كل من يشعر بكرب يحتاج لدعم ومساندة. لهذا سبق للعقل البدائي أن خلّف أو أفرز عقائد دينية يجسدها السحرة والكهنة، استجابة لهذه الضرورة النفسانية التي لا أ شد ولا أعمق. تترجم عبارة لاخلاص خارج الكنيسة - حقيقة مازالت صالحة... على الأقل لهؤلاء الذين يستطيعون اللجؤ إليها. أما الذين لا يستطيعون العودة إلى إيمان طفولتهم التقليدي فليس أمامهم إلا امكانية التعلق بكائن آخر. وهو مايبدو لي أنه يشكل تبعية هي في ذات الوقت على أكثر مايمكن من التواضع والتكبر، ومن الضعف والقوة. عندئذ ماذا تقول للبروتستانتي من هذا المنظور؟ لم يعد عنده لا كاهن ولاكنيسة، لم يتبق له إلا الله... ولكن إلهه ذاته يبدو متذبذباً وملتبساً.

ويتساءل القارئ مندهشاً ماذا يجب أن ننتظر من الأنيما حتى تتطلب مواجهتها مثل هذه الجهود في التطمين وإعادة التطمين. أريد أن أنصح قارئي بدراسة تاريخ مقارن للأديان وإحياء القصص التي يجدها فيها والتي تبدو للقارئ العادي كأنها ميتة، وذلك بملئها بتلك الحياة الانفعالية التي يستشعرها المؤمنون الذين يعيشون دينهم. هكذا يكون القارئ انطباعاً تقريبياً عما يحيا ويوجد في «الجانب الآخر»، إذ لم تولد الديانات القديمة برموزها القاسية والطيبة الساخرة والموقرة في سماء صافية، وإنما خلقت في هذه النفس الإنسانية وبها، كما كانت منذ الأزل وكما تحيا حالياً في كل منا.

إن هذه الأشياء كلها ببنيتها الأساسية ونماذجها البدئية تحيا فينا وتستطيع في أية لحظة أن تنقض علينا بقدرة انهيار مدمرة أو بشكل إيحاء كثيف لايمتلك الكائن المنعزل أمامه لاحول ولاقوة. إن آلهتنا المرعبة لم يلحقها إلا تغيير في الإسم وتسمياتها الجديدة إيديولوجية.هل يجرؤ أحد أن يدعي أن البلشفية أو الحرب العالمية مع سلسلة كوارثها كانا اكتشافين بارعين؟ خارجياً نحن نعيش في عالم حيث يمكن لقارة أن تنهار في أي وقت، لقطب أن يتحرك، لوباء أن يتفشى، كذلك نعيش داخلياً في عالم يمكن أن تقع فيه كارثة مماثلة، بالتأكيد بشكل إيديولوجيا فقط، مع الفكرة كنقطة انطلاق، ولكن هذا الشكل لايقل خطورة ومباغتة. أن اللاتكيف مع كوننا الداخلي نقص قابل لأن يؤدي إلى نتائج لا تقل ضرراً عن الجهل والعجز في العالم الخارجي.

من جهة أخرى، لقد توصل جزء ضئيل فقط من الإنسانية، سكن في شبه جزيرة آسيا المكتظة ويطل على المحيط الأطلسي، ويدعي التمدن، نتيجة احتكاك غير كاف مع الطبيعة، إلى فكرة أن الدين هو اضطراب عقلي غريب ذو هدف غير قابل للتفسير. وإذا نظرنا إلى هذا الجزء من

الإنسانية من بعيد، من قلب أفريقيا أو التيبت، لظهر العكس، إنه يقلب الأشياء ويسقط على الشعوب التي مازالت سليمة الغرائز «الاضطراب العقلي» الفريد الذي لا يعيه.

تؤثر علينا عناصر العالم الداخلي ذاتياً بصورة أقوى كلما كانت لاواعية. كما أن من يرغب بتحقيق تقدم في ثقافته الخاصة (ألا تبدأ الثقافة عند الفرد المنعزل؟) من الضروري تجسد فعاليات الأنيما فيه من أجل أن يحاول اكتشاف المحتويات النفسية التي في منشأ الفعاليات الغامضة للنفس. يكتسب الشخص بهذا الشكل تكيّفاً؛ وحماية ضد القوى الخفية التي تحيا في داخله. بالطبع لا يتحقق هذا التكيف دون تنازلات لضرورات وشروط العالمين الداخلي والخارجي. إذا أخذنا متطلبات العالمين الداخلي والخارجي بعين الاعتبار وتحملنا صراعهما برزت ملامح الممكن والضروري.

للأسف، لم تجد عقليتنا الغربية حتى الآن، نتيجة لنقص ثقافتها من هذا المنظور، فكرة أوتسمية للتعبير عن وحدة الأضداد في منتصف الطريق. هذا العامل الأساسي للتجربة الداخلية كما يعبر عنه على سبيل المثال «طاو» الصينيون. يشكل مثل هذا الاتحاد للأضداد الواقع الأكثر فردية والإنجاز الأقوى والأكثر عالمية للحياة فينا، ومن جانبها.

لم أقارب حتى الآن فيما تقدم من وصف إلا النفسانية المذكرة. الأنيما مؤنثة، إنها مجرد تشكل من النفس المذكرة وصورة تعاوض الوعي المذكر. أما عامل المعاوضة عند المرأة فيرتدي، على العكس، طابعاً مذكراً ولهذا دعيته أنيموس. وبما أن وصف مانعنيه بالأنيما لم يكن أصلاً مهمة سهلة فمن المؤكد أن الصعوبات تزيد عندما يتعلق الأمر بوصف نفسانية الأنيموس.

أن يعزو رجل ردات فعل أنيماه لأناه بسذاجة ودون أن يخطر له أن

فكرة التماهي بشكل مقبول مع مركب تلقائي أمر مستحيل، يشكل سوء فهم يتكرر في علم النفس الأنثوي بصورة أكبر أيضاً. إن هذا التماهي مع مركب مستقل هو الذي يفيدنا من حيث الأساس عن الصعوبة في فهم وتطبيق مسألة الأنيما والأنيموس، حتى لو تجاهلنا الأبعاد المجهولة والظلمة التي تحيط بها. ننطلق دائماً من فكرة تبسيطية تعتبر أننا السيد الوحيد في منزلنا. يجب أن يتآلف تفهمنا أولاً مع فكرة أن كل شيء يحدث، حتى في حياة نفسنا الأكثر حميمية، كما لوأننا نعيش في غرفة مسكن يبدي على الأقل أبواباً ونوافذ تفتح على عالم تؤثر أشياؤه وموجوداته علينا دون أن نستطيع ادعاء امتلاكها. عديدون هم الأشخاص الذين تقدم لهم هذه الإمكانية صعوبات كثيرة. وهم يعانون في قبولها من ذات الصعوبة في فهم وقبول حقيقة أن قريبهم لايمتلك بالضرورة ذات النفسانية التي يمتلكونها.

ربما يعتقد القارئ أن هذه الملاحظة الأخيرة مبالغ فيها شيئاً ما لأننا نمتلك عموماً وعياً بالتنوعات والاختلافات الفردية. ولكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن نفسانيتنا الواعية الفردية تنبثق عن حالة بدئية من اللاوعي وبالتالي من اللاتمايز وهي حالة أشار إليها ليفي برول L.Bruhl باسم «المشاركة السرانية». ينتج عن ذلك أن إدراك الاختلافات إكتساب إنساني متأخر، وأنه لا يعني على الأرجح إلا جزءاً صغيراً نسبياً مأخوذاً من كتلة أكبر بكثير ولا نستطيع تحديد امتداد هويتها البدائية. يشكل التمايز ماهية الشرط الذي لا غنى عنه للوعي. لذا يبقى كل ما هو لاواع لا متمايز وينطلق كل ما يجري لا شعورياً من اللاتمايز: يبقى انتماء أو لا انتماء العناصر المسؤولة إلى الذات غير محدد تماماً. لا نستطيع أن نحدد قبلياً ما إذا كانت تكمن في أو إذا كانت تنطلق من كيان الشريك أو ترقد عند أحدنا أو كلينا. كما أن الإحساس يشكل في هذا الموضوع مبدأ توجه غير كاف.

من الخطأ أن نعزو للنساء انطلاقاً من ذات الواقع وعياً أدنى من وعي الرجال: إن وعيهن يختلف فقط عن الوعي المذكر. ومثلما تعي المرأة في أغلب الأحيان بشكل واضح، أشياء وظروفاً يعاني الرجل في خضمها من صعوبة كبيرة في رؤية وتلمس طريقه، كذلك يوجد مجالات من التجربة والمعاش يشعر الرجل فيها أنه على راحته تماماً بينما تبقى بالنسبة للمرأة غارقة في ظلمات اللاتمايز: حتى أن المرأة لا تميزها أبداً؛ يتعلق الأمر بمجالات قلّما تثير اهتمامها.

بصورة عامة، تبدي العلاقات الشخصية في نظر المرأة فائدة وأهمية أكثر من المعطيات أو العلاقات الموضوعية. أما المجالات الواسعة للإقتصاد والسياسة والتقنية والعلم وكل المجالات التي انهمك فيها العقل المذكر وأبدع فتبقى بالنسبة لوعي المرأة في الظلام، في حين أنها تؤسس في المقابل وعياً متسعاً للعلاقات الشخصية يفوت الرجل عموماً تنويعاتها اللامتناهية.

لذا هناك ما يدعو لأن نتوقع في لا وعي المرأة بنى ومظاهر تختلف أساساً عن تلك التي يبديها لاوعي الرجل. ولكي نصف باختصار ما يحقق الاختلاف بين الرجل والمرأة من هذا المنظور، أي ما يميز الأنيموس في مواجهة الأنيما، نقول: إن الأنيما هي مصدر الأمزجة والنزوات، والأنيموس هو مصدر الآراء. ومثلما تنطلق التغيرات المفاجئة في مزاج الرجل من خلفيات مظلمة كذلك ترتكز الآراء الشديدة والعظيمة للمرأة على أحكام لا واعية مسبقة وأفكار قبلية. غالباً ما تمتلك آراء الأنيموس صفة قناعات صلبة ليس من السهل هزها أو مبادئ ذات ملمح لا يمكن المساس به أو قيمة معصومة ظاهرياً. إذا أخضعنا هذه الآراء للتحليل نصطدم أولاً بأحكام اللاوعي المسبقة التي تحركه والتي علينا اعتراضها: أريد أن أقول إن المرأة تشعر وتفكر بالآراء اللاذعة التي تطلقها كما لو أن

هذه الأحكام المسبقة موجودة فعلاً. في الحقيقة، هذه الآراء لا حافز لها ولا هي ثمرة عملية تفكير؛ إنها توجد جاهزة كما لو أنها مسبقة الصنع وجاهزة للاستهلاك؛ إنها توجد في كيان المرأة العقلي، وهو يصيغها ويكررها لأن لها في عقلها طابعاً من الواقعية وقوة الإقناع الفوري بحيث لا يمكن أن يخطر لها أبداً فكرة إخضاعها لإمكانية شك بسيط.

ربما يغرينا أن نفترض أن الأنيموس، على غرار الأنيما، يتشخص بملامح رجل. ولكن التجربة تظهر أن ذلك ليس صحيحاً إلا بصورة مشروطة.إذ يتدخل عند المرأة، بصورة مفاجئة، ظرف يحتم موقفاً نفسانياً يختلف بشكل أساسي عن موقف الرجل: إذا ظهرت الأنيما عند الرجل بملامح امرأة أو شخصية، فان الأنيموس عند المرأة يتبدى ويظهر بملامح متعددية.

تخضع البطلة في رواية ويلز «والد كريستين البرت» المذكورة سابقاً حتى في أتفه أفعالها، لمرجعية أخلاقية عليا تملي عليها ما يجب أن تفعله بصورة جافة ومحددة وبقساوة تامة ونقص مخيلة مطلق. ويدعو ويلز هذه المرجعية «بمحكمة الضمير»، وهي مجلس يتألف من قضاة ممارسين، إنه نوع من الكلية المقدسة الأخلاقية التي تطلق مراسيم وأحكام، وكل هذا مرده تشخيص الأنيموس.

يشبه الأنيموس مجلساً من الآباء أو من حاملي السلطة الآخرين يحيكون ويطلقون من منبرهم أحكاماً «منطقية» لاتمس. لكننا إذا نظرنا إلى هذه الأحكام عن قرب نرى أنها أساساً تجميع لكلمات وآراء تراكمت منذ الطفولة في عقل الفتاة، صغيرة ثم مراهقة وقد تنتهي بعد استخلاصها واختيارها وجمعها، إلى تشكيل شرعة أو مدونة من الحقائق

التافهة ومن الأسباب والأشياء «كما يجب». إن تقنين المنطقي يعود إذاً إلى مخزون من الأحكام المسبقة؛ ما إن نفتقد حكماً واعياً مناسباً وصالحاً

(وهي الحالة غالباً في تعقيدات الحياة) حتى نستنجد بترسانة لا تنفذ من الآراء المتباينة حيث نجد ذاك الذي يناسب الموقف المعطى. تظهر هذه الآراء أحياناً بالشكل الذي نتفق على تسميته «بالعقل السليم» وأحياناً أخرى بشكل مبادئ هي شعارات التربية المتلقاة. وتقول المرأة على سبيل المثال: «هكذا كان الأمر دائماً» أو «ولكن الناس جميعهم يقولون....»

بالطبع يتكرر إسقاط الأنيموس مثل الأنيما، ولكن على من وماذا يتم إسقاطه؟. أكثر الرجال قابلية لإسقاط الأنيموس عليهم، أي المناسبين لأن ينفعوا كوعاء لإسقاط الأنيموس، يجب أن يكونوا بحيث ترى فيهم المرأة التي تعاني من إسقاط طبعة جديدة وحية للرب الطيب وللرجال الذين يعرفون ويفهمون كل شئ؛ وقد يتعلق الأمر بمجددين مجهولين يتمتعون بمفاتن بلا غية كبيرة حيث يقع الإنسان الإنساني جداً وبشكل متكرر في شباك مصطلح ضخم من نوع «المعاش الخلاق»، فإذا لم نر في الأنيموس إلا نوعاً من الوعي الجماعي المحافظ نكون قد وصفناه بشكل غير كاف: فالأنيموس، على عكس كل آرائه التي قننها الاستخدام، مجدد يشهد على ضعف غريب تجاه المصطلحات المجهولة والصعبة الفهم وتجاه الكلمات الكبيرة، يضاف إلى ما تستشعره المرأة قبيحاً بشكل استثنائي وهو التفكير[14].

يعتبر الأنيموس عاشقاً غيوراً على غرار الأنيما لدرجة أنه يغير الرأي الذي يكونه كائن حقيقي عنه، وهو رأي لن تخضع أسسه القابلة للنقد تماماً، إلى أي نقد. إن آراء الأنيموس جماعية دائماً، وهي لكونها كذلك تقع على طرفي نقيض من البعد الفردي البعد الذي يتطلبه تقديرها الفردي. إنها تشكل من المرأة إلى الرجل شاشة تشبه في كل نقاطها الشاشة التي تمررها الأنيما من الرجل إلى المرأة بكل توقعاتها وإسقاطاتها.

بمقدار ما تكون المرأة جميلة تتسم آراء أنيموسها نحو الرجل بشئ

طفلي ومؤثر يحثه على اتخاذ موقف موجه سمح ومرب أبوي، ولكن في حال لم يتأثر الجانب العاطفي عند الرجل بسحر المرأة المعنية ولم يستقطب السحر الأنثوي الاستعداد العاطفي عند الرجل فهذا يعني أنه يتوقع من المرأة كفاءة ومساعدة صالحة وليس ضعفاً مؤثراً وغباءً علنياً[15]. عندئذ تكون الآراء الجاهزة لأنيموس المرأة مقلقة للرجل بدرجة كبيرة، خاصة بسبب نقص أساسها: يسمع الرجل من فم المرأة آراءاً كثيرة لمجرد حب الرأي، وهي آراء تصيغها غالباً من أجل أن تقول شيئاً فقط. عموماً، عندما تصل الأمور إلى هذا الحد، يصبح الرجال حادين، ومن المؤكد أن الأنيموس يحتم تدخل وتورط الأنيما (بالطبع العكس صحيح أيضاً) مما يجعل كل متابعة للنقاش بلا أمل.

يستثير الأنيموس عند النساء المثقفات حججاً وبراهين تسعى لأن تكون منطقية ودقيقة ولكنها تقتصر في أغلب الأحيان على ما يلي: تتحول نقطة ثانوية إلى موضوعة أساسية على حساب تناقض في المعنى أو يتعقد نقاش واضح بذاته إلى أقصى حد بإضافة وجهات نظر جديدة لا شأن لها البتة بالنقاش الدائر. إن مثل أولاء النسوة يلاحقن ومن حيث لا يدرين هدفاً واحداً: وهو إقلاق الرجل وإخراجه عن طوره، علماً أن الهدف اللاواعي للعملية، من خلال النقاش ـ الشجار، هو دفعهن أكثر من الناحية النفسانية نحو أنيموسهم واخضاعهن لقدرته الكلية. وقد صرحت لي امرأة من هذا النمط في إحدى المرات بما يلي: «لسوء الحظ، أنا دائما على حق».

إن السبب الوحيد لهذه التبديات المتنوعة والمتكررة بقدر ما هي مكروهة، هو انبساط الأنيموس. يهدف الأنيموس إلى جعل العلاقة بين الأنا المؤنثة واللاوعي ممكنة، دون أن يتدخل بوظائف الاتصال الواعية[16]. وعندما نواجه موقفاً خارجياً معطى يمكن استدعاء مجهود التفكير الواعي،

بدلاً من الاستسلام للآراء الجاهزة كلية والتي تخطر ببالنا مدججة من رأسها إلى أخمص قدميها.

يجب أن تكون الوظيفة الملهمة للعقل الأنثوي المجال المفضل للأنيموس في مواجهة المواقف الداخلية تاركاً لمحتويات اللاوعي أن تنبثق.

إن تقنية المواجهة بين الأنا الواعية والأنيموس هي من حيث المبدأ ذاتها كما في حالة الأنيما مع الفرق بأنها ليست أبداً استيهامات ونزوات ولكنها آراء يجب أن تنظر المرأة إليها بعين ناقدة، لا لتكتبها لكن لتدرس أصولها وتلج خلفياتها المظلمة حيث تصادف صورها البدئية، بصورة موازية تماماً لما يحدث عند الرجل في مواجهته مع الأنيما.

إن الأنيموس طريقة لتكثيف كل التجارب التي راكمتها السلالة الأنثوية إلى جانب الرجل؛ وإلى ذلك فالأنيموس كائن خلاق أيضاً، مادة أولية، ليس بمعنى الخلق الذكوري ولكن بمعنى أنه يخلق شيئاً نستطيع تسميته الكلمة الملقحة. مثلما يدع الرجل عمله ينبثق انطلاقاً من عالمه الداخلي الأنثوي كمخلوق بكليته، كذلك يقدم عالم المرأة الداخلي المذكر بذوراً خلاقة في حالة استثمار للجانب المؤنث من الرجل. وهذا هو منشأ «المرأة الملهمة» التي تخفي في داخلها إذا نشأت بشكل سيء إمكانية أن تصبح أسوء النساء المسترجلات ـ فهي تهد الجبال باسم المبادئ الكبيرة ومماحكاتها ـ أو يصبح أنيموسها لئيماً ورذيلاً حقاً كما قالت لي مرة إحدى مريضاتي.

تعاني المرأة التي يتملكها أنيموسها من خطر فقدان أنوثتها الأم أو شخصيتها الأنثوية المتكيفة، مثلما يوشك الرجل أن يصبح في الحالات المماثلة متأنثاً.

تتبدى مثل هذه التحولات والانقلابات النفسانية لجنس كائن عندما تنحرف وظيفة مقدر لها أن تكون داخلية نحو الخارج. بالطبع، يكمن

حافز هذا الانقلاب في اعتراف غير كاف، أي في اللاإعتراف بالعالم الداخلي الذي يوازن العالم الخارجي بصورة تلقائية ويفرض من أجل التكيف متطلبات لا تقل أهمية عن متطلبات هذا الأخير.

أما تعددية الأنيموس التي تتعارض مع الشخصية الواحدة للأنيما فهي واقع فريد يجب أن نفهمه بالترابط مع الموقف الواعي. فموقف المرأة الواعي عموماً يخصها شخصياً أكثر بكثير من موقف الرجل.

يتألف عالم النساء من آباء وأمهات، أخوة وأخوات، أزواج وأطفال؛ يبدو لهن خارج دائرتهن أن العالم يتألف من عائلات مماثلة تتقارب وتتلاطف ولكنها مع ذلك ومن حيث الأساس لاتهتم إلا بنفسها. وعلى العكس فعالم الرجل هو الشعب والدولة والأعمال وتقاطعات المصالح الخ... والعائلة بالنسبة له هي ببساطةٍ حلقة في السلسلة، وسيلة نحو هدف، إحدى أسس الدولة، وزوجته ليست الزوجة بالضرورة، على أية حال إنها ليست الزوجة بالمعنى الذي تعبر عنه هي بقولها «زوجي». إن العالم أكثر قرباً إلى الرجل من الشخصي، لذا يتشكل عالمه من تنوع وعوامل مترابطة. في حين أن المرأة ما إن تنظر إلى ما يتجاوز زوجها حتى تشعر أن رؤيتها للعالم تصطدم بنوع من الضباب الكوني الذي تضيع فيه.

تتسم أنيما الرجل بسبب هذه الظروف ومن قبيل المعاوضة بخصوصية شديدة، في حين يعبر أنيموس المرأة عن نفسه بتعددية لامحدودة. وبينما يرى الرجل عبر مخيلته طيف؛ سيرسه وكاليبسو(17) المرهف التفصيل والمليء بالمعنى يطفو أمام عينيه، يعبر أنيموس المرأة، على العكس، بشخصية من مثل الهولندي الطائر أو بطيف آخر يتهادى على بحار الكرة، هيولي الشكل يتعذر إمساكه.

تشبه صورتا، الأنيما والأنيموس، شخصيتا الظلمة والتضاد الضوئي، حراس الخلفيات المعتمة، (ونستطيع أن نقول عنها إنها في الحقيقة «حارسا

العتبة إذا استعملنا الإصطلاح المبجل عند الثيوصوفيين»[18] ويمتلكان مظاهر لاتنفد يتطلب وصفها مجلدات.

إن تعقيداتهما وتراكباتهما غنية مثلما العالم وتمتد على العالم بأكمله على غرار تابعهما الواعي أي القناع ذات التنوع اللامتناهي.

يقع الأنيموس والأنيما على حدود التدرج العليا للكائن وهذا بالضبط ما يسمح لنا أن نعتبر المركب التلقائي الذي يشكله كل منهما وظيفة نفسانية تغتصب (أوهي ما زالت تتملك) طابع شخصية بفضل التلقائية التي تتمتع بها ونقص تطورها النفساني. ولكننا نستشف منذ البدء إمكانية تدمير تشخّصها بتحويلها بفضل عملية الوعي إلى نوع من العبارة التي تقود صوب الوعي. مازال الأنيما والأنيموس مركبين مشخّصين لأننا لا نستخدمها كوضعين بشكل واع وقصدي وطالما هما في الحالة يجب أن نتقبلهما ونعترف بهما كشخصيات مجزأة مستقلة نسبياً. لا يمكنهما أن يندمجا مع الوعي طالما هو يجهل محتوياتهما. يجب أن تقود المجابهة محتوياتهما إلى النور، وعندما يتقدم هذا العمل بشكل كاف ويكتسب الوعي معرفة كافية بصيرورات اللاوعي التي تتبدى وتنعكس في الأنيما تستشعر هذه الأخيرة كوظيفة بسيطة.

بالطبع لا أنتظر من كل قارئ أن يفهم بدون صعوبات ما أعنيه بالأنيما والأنيموس، ومع ذلك فآمل أن يكون قد فهم أن الأمر لا يتعلق بأفكار ميتافيزيائية وإنما بمعطيات خبرية نتوصل مع بعض الصعوبات الى التعبير عنها بلغة عقلية مجردة. لقد تجنّبت بقدر ما يمكن لغة مجردة جداً. لأنه في هذه المجالات التي مازالت حتى الآن مغلقة على تجربتنا نسعى إلى إيصال القارئ لأن يستخلص صورة حية عن الإمكانيات الحقيقية للتجارب أكثر من البحث عن صيغة فكرية مفضلة. لأن لا أحد يستطيع فهم هذه المعطيات حقيقة ما لم يحياها بنفسه. لهذا جهدت في تحديد

إمكانيات القيام بتجارب من هذا النوع وإظهار الدروب التي تقود إليها أكثر من بناء مفاهيم فكرية تبقى بالتأكيد، ما لم تؤثث وتملئ بتجارب معاشة، كلمات فارغة.

إن الأشخاص الذين يحفظون الكلمات عن ظهر قلب، ويعتقدون أن من السهل عليهم تصور التجارب التي تنقصهم، ويعتقدون أنه مسموح لهم إبداء رأيهم بحسب مزاجهم وطبعهم سواء كان موافقاً أو نقدياً، هم لسوء الحظ كثيرون. والحال أننا في ما وصفناه للتو، أمام طريقة جديدة لمقاربة الأشياء ومجال جديد تماماً من التجربة النفسانية (رغم أنه قديم قدم العالم) ولا نستطيع بناء نظرية بخصوصه إلا عندما يكون عدد كاف من الباحثين والإنسانيين قد جربوا وتأملوا المعطيات النفسانية موضوعنا. إننا نكتشف الوقائع أولاً والنظريات ثانياً وهذه الأخيرة تنشأ دائما من النقاش بين عقول كفوءة.

الحواشي:

1 ـ تاسيت TACITE مؤرخ لاتيني ولد في روما (55 ـ 120 ب. م) وله كتاب بعنوان «جرمانيا» La Germanie وهو المشار إليه هنا.

2 ـ Rider Haggard, she, 1887; Elle, trad. de Rene Lecuyer, Cres, Paris 1930.

3 ـ Picrre Benoit, L'Atlantide 1919.

4 ـ إننا هنا أمام مسألة إنسانية عامة مؤرّقة وآسرة في آن واحد. مؤرقة لأن الفرد أثناء حياته عليه أن يستبدل عالمية الصور الداخلية المضمرة يبعض الأسماء والوجوه والرؤوس والخيارات. وهذا يبرر متطلبات الإطلاق التي نوجهها صوب الآخر جزئياً لأن كل منا يبحث لأن يجد في الآخر مطلق صورته المضمرة. وهي مسألة آسرة لأن هذه الصورة المضمرة لا تكتسب قوة الحياة إلا إذا ارتبطت بمعاش عيني. هكذا يستمر الصراع كاملاً، فالصور المضمرة حيث يمكن أن تضيع كل امكانيات الحياة لا تصبح معاشة إلا إذا تجرّدت من إضمارها واتساعها. وهي لا توافق على هذا الحذف ـ الذاتي إلا بعد انهزامات عديدة. إنها مسألة الالتزام والانخراط؛ إن الطبائع المتناغمة (الاشخاص المؤتلفي الميول) يبدأون بها سريعاً بينما تسبب للأشخاص المنقسمين (الفصاميين) مأساة تتميز بازدواجية عنيفة وتمزّقات رهيبة. هكذا يقلل المتناغمون من أهمية الازدواجية وإمكانياتها الكامنة بينما يقلل الفصاميون من أهمية الالتزام والإبداع الذي يعنيه قبول الواقع المعاش. (ر. ك).

5 ـ يثير هذا المقطع بعض صعوبات الفهم لأن الكاتب يشير هنا إلى مفهومه الشهير عن الذات ولكنه لا يتحدث عنه بشكل مطوّل إلا في الفصول الأخيرة. ونذكّر القارئ إلى أن يونغ يعني بالذات مركزاً جديداً للشخصية الكلية، يتمدد ويتبلور أثناء التحليل وخاصة في نهايته. إن التوازن الجديد للشخصية يقوم حول هذا المركز الجديد الذي يوازن الأنا واعتباطياتها. ولا يقصد هنا بالذات كينونة فلسفية أو مفهوماً نظرياً صرفاً: إن الذات مفهوم نفساني خبري أعاد يونغ اكتشافه تجريبياً. بالطبع هذا لا ينفي أبداً أن الذات كمفهوم نفساني وبنيوي وديناميكي أساسي يتضمن ارتباطات فلسفية غنية، كما لا ينفي أنها مادة مقارنة في مجالات متنوعة

وهو ما يؤكد القيمة النظرية والعملية الهائلة لهذا المفهوم. (ر.ك).

6 ـ يفعل الإنسان، بتجسيده للكمونات المؤنثة، العناصر النفسانية الجنينية بشكل طبيعي. لهذا تتجسد الأنوثة فيه عندئذ بخصائصها المميزة الطفولية والدونية والمذمومة. (ر.ك).

7 ـ Carl SPITTELER, Prometheus und Epimetheus, Jena 1915; trad. francaise de Charles Baudoin, Delachauxet Niestle, Neuchatel et Paris, 1943.

8 ـ أنظر ليونغ «الإله اليهودي» ـ ترجمة نهاد خياطة ـ دار الحوار ـ اللاذقية.

9 ـ يبدو أن لهذا الرباط السري الخفي بين الميول المتضادة أهمية لا يجب إساءة تقديرها. فهو يجمع المتضادات في أزواج متعارضة ولولاه ما وجدنا في الفرد إلا تجمعاً لقوى ظرفية ممز قة وفوضوية. إن هذا الرباط يجمع القوى والبنى في أزواج من العوامل المتعارضة، بالتأكيد ممزقة ولكنها أيضاً مكو نة وموازنة.

وكثيرة هي الأشياء التي ترتبط بطبيعة هذا الرباط بين القوى المتعارضة التي تسكن الكائن. إذا ضعف هذا الرباط لسبب ما أو كان ضعيفاً بطبيعته انقسم الكائن العقلي إلى محتويات لا ترتبط ببعضها: إنه اللاتماسك والجنون وعالم الفصام. وإذا كان هذا الرباط شديداً وتنقصه المرونة والليونة سبب صلابة نفسية وقساوة في السلوك والتفكير وخطر التحجر الذي يدفع بسهولة في اتجاه الهوسي. (ر.ك).

10 ـ بالتأكيد هذا هو السبب الذي يبدي الشخص بسببه حساسية تجاه كل ما يتعلق بقناعه (ر.ك).

11 ـ يمكننا انطلاقاً من هذا التصور أن نحاول تصوير دور الأب ودور الأم. الأب هو نموذج تمثيل مشروع أمام العالم. إنه رباط الإبن مع العالم الخارجي، فهو المدافع والمنتصر والمثبت لنسب الابن. أما الأم فهي المرضع التي تقدم الحماية في وجه قوى العالم الداخلي المظلمة، تجسد بفضل الحب الذي تقدمه لابنها القبول اللامشروط. هكذا يمنح الأب الكائن الذي يكبر شرعيته رغم الفردية والانعزال الفردي ويؤمن أبدية استمرار الإحساس بالانتماء إلى المجموعة. وانطلاقاً من هذه الصورة يمكننا أن نتخيل الأضرار البنيوية التي بسببها عوز الأب أو الأم أو الاثنين معا. (ر.ك).

12 ـ كاسندرا هي إحدى شخصيات الميثولوجيا الإغريقية. لقد منحها أبولون موهبة التنبؤ بالمستقبل شرط أن تهب نفسها له. ولكنها تهربت منه فحكم عليها بألا

يصدق أحد تنبؤاتها.

13 ـ لأن هذا الميل يعود للأنيما وليس للأنا (ر.ك).

14 ـ يبدو أن علينا استثناء النساء اللواتي يجعلن من التفكير وظيفتهن الرئيسية. (ر.ك).

15 ـ قد تشعر القارئة ببعض الصدمة أمام أحكام يونغ القاسية قليلاً ولكننا يجب أن ننتبه إلى أنه يقصد النساء اللواتي يستسلمن لأنيموسهم فقط. (ر.ك).

16 ـ ينسحب الأمر ذاته على الأنيما التي يجب أن تتصدر العلاقات بين الأنا المذكرة واللاوعي دون أن تتورط أبداً في العلاقات ولكن هذه الصيغة تفترض ركودة الأنيما والأنيموس أو امتلاك الشخص لوعي عال إزاءها. فبدون هذا كل ما يبقى لاواع وفعال يتم اسقاطه ويأخذ الأنيموس والأنيما بنسج أوهامهم في قلب العلاقات المعاشة في الحياة الملموسة. وهذا صحيح لدرجة أن الكتاب يستوحون مواد مسرحياتهم من هذه المواقف. وبالفعل نستطيع أن نعبر عن معظم الخلافات التي تتخلل العلاقات بين الرجل والمرأة بشكل كاريكاتوري كما يلي: يبحث الرجل عن تحقيق وتجسيد الأنيما في النساء ومن خلالهن، لأن الأنيما تفيض منهن جميعاً. في حين أن المرأة، على العكس، تبحث عن تجسيد لأنيموسها بتركيز تعدديته على رجل واحد، فهي تريد أن ترى في رجلها الرجل الذكي والرياضي والحساس والفنان والمتفهم والبطل والعامل والحالم والحكيم.. وسيكون عليها أن تعترف يوماً أن هذا الرجل الذي يعيش إلى جانبها يحتوي على نواقص عديدة.

17 ـ سيرسه وكاليبسو: إن سيريه هي الساحرة في ملحمة الأوديسة اليونانية وقد دفعت برفاق كوليس ليشربوا شراباً مسحوراً فتحولوا إلى خنازير. أما كاليبسو فهي حورية من شخصيات الأوديسة أيضاً، كانت ملكة الجزر في البحر الإيوني، استقبلت كوليس الغارق واحتفظت به عشر سنوات.

18 ـ التيوصوفيون: والمقصود بهم أعضاء الجمعية التيوصوفية وهي كلمة تعني الحكمة الإلهية. وتهدف إلى تحقيق الأخوة بين جميع بني البشر كما تهتم بالدراسات المقارنة بين العلم والدين والفلسفة وبدراسة القوى الكامنة في الإنسان والطبيعة.

الفصل الثالث

تقنيات تمايز الانا عن صور اللاوعي

يجب أن أقدم للقارئ، بعدما تقدم، مثالاً مفصلاً يوضح الفعالية النوعية للأنيما والأنيموس. ومن سوء الحظ أن المواد التي يجب تعدادها واسعة ومتنوعة لدرجة كبيرة، وتتطلب في المقابل غزارة مماثلة في شرح الرموز التي تحتويها بحيث لا أستطيع تضمين هذا الكتيب ذلك الوصف الضروري. إضافة إلى أنني نشرت هذه المواد مع كل استتباعاتها الرمزية في عمل منفصل[1] أحيل القارئ إليه. على كل حال تحدثت في ذلك العمل[2] عن الأنيما وليس عن الأنيموس، لأن هذا الأخير كان مجهولاً بالنسبة إليّ في حينها. ولكني لو نصحت إحدى مريضاتي بأن تدع المضامين اللاواعية تنبثق إلى وعيها لظهرت مواد واستيهامات تشبه تلك التي وصفتها في ذلك العمل في كل نقاطها وكان الأنيموس هو شخصية البطل المذكرة التي لا تغيب عنها أبداً. إن سياق الأحداث الذي يشبه فيلماً من حلقات، والقفزات المتتابعة للأحداث، التي تعبر المخيلة الحية والمتخيل المعاش عن نفسيهما من خلالها، يبسط العناصر المتنوعة التي يتشكل منها المركب، كذلك آلياته وبناه الدقيقة ويبين تحوله التدريجي وتحلل تلقائيته.

هذا التحول هو هدف المجابهة بين الأنا واللاوعي. فإذا لم يحدث احتفظ اللاوعي كلياً بقدرة مكيفة للوعي الذي قد يصل إلى حد فرض أعراض عصابية وتغذيتها، بغض النظر عن كل تحليل وتفهم؛ أو أنه يحافظ

على تحويل قهري وملح لايقل خطورة وإزعاجاً وأذى عن العصاب. في مثل هذه الحالات يفشل كل شيء، إذ لايتوصل لا الإيحاء ولا الإرادة الطيبة ولا التفهم الإختزالي إلى كسر قدرة اللاوعي. أشدد على أنني بملاحظة ذلك لا أريد أن أقول: إن كل طرق العلاج النفسي، بالتفصيل أو بالجملة، غير فاعلة أوتصلح للرمي للكلاب. أريد فقط أن أشير إلى أن هناك حالات ليست قليلة، حيث على الطبيب أن يقرر الاهتمام باللاوعي بأعمق شكل ممكن، والقبول بمحاسبة حقيقية للاوعي زائره. بالطبع يتجاوز هذا الإ جراء مستوى التأويل وحده. تحدث الأمور في حالة التأويل كما لو يفترض ضمنياً أن الطبيب يعلم الرسالة مسبقاً، من أجل أن يتمكن من التأويل. ولكن في الحالة التي نحن بصددها هنا، حالة الإلتقاء الأساسي مع اللاوعي وتفسيره، يتعلق الأمر ببعد آخر غير التأويل وحده: يتعلق الأمر بإطلاق سلسلة الصيرورات اللاواعية التي تنبثق عندئذ إلى الوعي بشكل استيهامات. نستطيع التدرب على تفسير هذه الاستيهامات. كما قد يكون ضرورياً أن يكتسب المريض فكرة، مهما كانت مبهمة أو حدسية، عن معنى الاستيهامات التي تختلج في داخله. ولكن الأهمية الأساسية هي في أن يحيا المريض استيهاماته بكليتها ويفهمها لأن الفهم الفكري يشكل جزءاً من كلية المعاش. ولكن من غير الضروري أن نضع الفهم الفكري على رأس تراتيب الأولويات الهامة. بالطبع يساعد الطبيب مريضه بقدرما يمتلك من وسائل على التوصل إلى فهم مواده. ولكن الطبيب والمريض بعيدان عن التمكن من فهم كل شيء. يجب أن يحترس الطبيب من إطلاق قريحته والاسترسال في بهلوانيات تفسيرية. فالأهمية ليست لتأويل وفهم الاستيهامات بالدرجة الأولى؛ هذا هام بالتأكيد ولكن الأهم هو أن يكتسب منها ذهنياً خبرة حية.

لقد أعطى ألفرد كوبين A.Kubin في كتابه «الجانب الآخر»[3] وصفاً

ممتازاً للاوعي؛ لقد وصف كفنّان ماحدث له أن عاشه في اللاوعي. يتعلق الأمر بتجربة إنسانية عبرت عنها طباع فنان فبقيت، بسبب هذا المنظور الخاص، غير مكتملة من وجهة نظر إنسانية. كل من يهتم بهذه المسائل عليه قراءة هذه الكتاب بتأن ليكتشف المظهر غيرالمكتمل الذي أتحدث عنه. ينقل الكتاب تجربة فنية لامعاشاً إنسانياً. ولا أقصد بالمعاش الإنساني تجربة تكون شخصية المريض في خضمها متضمنة في رؤياه وإنما تجربة يفعل فيها الكاتب وينفعل بوعي كامل في مواجهة شخصيات رؤياه. وإني أوجه ذات النقد إلى تلك المرأة التي كتبت الاستيهامات التي درستها في تحولات النفس ورموزها: فقد بقيت سلبية في مواجهة التشكيلات الاستيهامية التي نشأت في لاوعيها، تدركها ببساطة وتعاني منها على الأكثر.

والحال أن المواجهة الحقيقية مع اللاوعي تتطلب من جانب الفرد مجهوداً من الوعي ووجهة نظر واعية حازمة قادرة على مواجهة اللاوعي والتفاوض معه.

فلنوضح بمثال ما أعنيه. لقد شكل أحد مرضاي في يوم ما الاستيهام التالي:

رأى خطيبته تنزل الطريق التي تقود إلى النهر راكضة، إنه فصل الشتاء والنهر متجلد، انطلقت الفتاة الشابة على الثلج وتبعها هو. ابتعدت كثيراً متوجهة إلى موضع تكسر فيه الجليد. انفتحت أمامها فجوة معتمة واعتراها خوف من السقوط فيها. ما حدث في الواقع ماحدث هو أنها إختفت في صدع الجليد وتتبعها هو بنظرة حزينة.

يظهر هذا المقطع من سياق استيهام أطول بكثير موقف وعي الشخص المتخيل بوضوح. الوعي يدرك ويخضع، أي يرى الاستيهام ويستشعره ولكنه لا يمتلك إلا بعدين لأن الشخص ذاته لايشارك فيه بشكل كاف.

لذا يبقى هذا الاستيهام صورة بسيطة مرسومة جيداً ومؤثرة، ولكنها تعتبر لاواقعية كحلم. وتعود لا واقعيتها إلى أن الحالم لايتدخل ولايفعل في اللعبة بشكل كاف: كأنه يلتزم عدم التدخل. لوكان هذا الاستيهام مشهداً من الواقع لماكان أمام المريض إلا خيار أن يمنع خطيبته من تنفيذ انتحارها. على سبيل المثال كان يمكنه التقاطها بسهولة ومنعها بالقوة من القفز في الحفرة. لو تصرف في الواقع كما فعل أثناء استيهامه لكان ممكناً أن نفكر بأن الخوف قد شله أو أنها الفكرة اللاواعية بأنه في أعماقه لايمانع أبداً بهذا الانتحار.

إن التصرف السلبي أثناء استيهامه يعبر عن موقفه الاعتيادي في مواجهة فعالية اللاوعي: كأنه مبهور ومسمر. يعاني هذا الشخص في الواقع من مجموعة من التمثيلات والقناعات والوساوس الإكتئابية، إنه عاجز ومقيد يإرث بائس وبأن مرضاً قاسياً يضرب دماغه بالتنكس، الخ. إن مشاعره السلبية هي ثمرة إيحاءات ذاتية يقبلها ويستسلم لها دون نقاش. بالطبع يستطيع فكرياً أن يفهمها ويميز عبثيتها ولكن ذلك لايمنعها من الاستمرار بالوجود: إذاً يتكشف أن هذه المشاعر السلبية غير قابلة للتناول فكرياً لأنها لا تقوم على قاعدة فكرية أوعقلانية وإنما على عالم لا عقلاني ولا واع من أحلام اليقظة، يضعها في منأى عن النقد الواعي.

يجب في هذه الحالة أن نعطي اللاوعي فرصة إنتاج استيهاماته والتعبير عنها، ويمثل الجزءالمذكور أعلاه مثل هذا النتاج للفعالية الاستيهامية اللاواعية. وبما أن المقصود هو إكتئاب نفسي المنشأ فهو يقوم على مثل هذه الاستيهامات التي لايعي الشخصى وجودها أبداً. ويحدث العكس في حالة المالينخوليا الحقة والإعياء الحاد والتسمم الخ... إذ يصبح المريض، لأنه مكتئب، حاملاً لمثل هذه الاستيهامات.

كان مريضي شاباً ذكياً جداً. قد م له تحليل سابق إضاءات فكرية

حول سببية عصابه دون أن يغير التفهم الفكري من عصابه في شيء. ومن غير المجدي في مثل هذا الظرف، أن يجهد الطبيب لتعميق سببية الحالة؛ لأن اكتشاف جزء سببي جديد، إذا لم ينفع التفهم المعمق في شيء، يكون كذلك بلا فائدة[4].

يجب أن نلحظ بكل بساطة أن اللاوعي يمتلك بشكل جلي، في موقف من هذا النوع، فائضاً في الفعالية يجعله بعيد المنال؛ أي أنه يمتلك قدرة جذب تصل حد إفقاد المحتويات الواعية قيمتها. بعبارات أخرى، يصبح اللاوعي قادراً على إختلاس الليبيدو من عالم الوعي مستثيراً «إكتئاباً» بالمعنى الحرفي و«إنخفاضاً في المستوى العقلي» (بيار جانيه) ولكن إذا تذكرنا في ظرف مماثل قانون انحفاظ الطاقة النفسية[5] النسبي فيجب أن نتوقع وجود تراكم هام لليبيدو في اللاوعي.

لا يمكن ضبط الليبدو بالمطلق؛ لايمكن إدراكها وملاحظتها إلا تحت بعض الأشكال المحددة؛ أكثر هذه الأشكال شيوعاً هي نتاجات المخيلة وصور تمثل استيهامات. وبالتالي فإننا لانستطيع تحرير الليبيدو من اللاوعي إلا بإيصال ماتتضمنه من الصور الاستيهامية إلى الوعي. لذلك يمكننا في الحالات المماثلة أن نمنح اللاوعي لغاية علاجية فرصة ترك الاستيهامات التي تضطرم فيه مؤقتاً تنبثق إلى الوعي.

لقد نشأ المقطع الذي ذكرناه من هذا المنظور. فهو ينتمي إلى سلسلة طويلة من الصور الاستيهامية ذات غنى كبير تعود إلى مقادير الطاقة التي انطرحت من اللاوعي وعناصره. لقد كان عالم المريض الواعي بارداً وفارغاً ورمادياً، في حين كانت مستوياته اللاواعية تتحرك بحياة وافرة وقوية وغنية.

تختص ماهية النفس بأنها تكتفي بذاتها، إنها لاتعرف الاعتبارات الإنسانية أبداً ولاتراعي الأفراد الآخرين[6] مطلقاً. عندما يسقط شيء في

اللاوعي يبتلعه ويحتفظ به دون أن يهتم بمعرفة ما إذا كان الوعي قد شعر بنقصه أم لا؛ فيتقلص الوعي بإفقار محتواه إلى حالة من الخور؛ في حين ينتعش اللاوعي ويزهر.

هذا هو الانطباع الذي نتلقاه لأول وهلة لكننا نكتشف عندما نعمق الأشياء أن لامبالاة الوعي الظاهرة تجاه المستويات والمخاوف الانسانية لها معنى وهدف، بل لها غائية. والحقيقة أن هناك غائيات للنفس تتجاوز الأهداف الواعية بل قد تتعارض معها.

في الواقع لا يبدي اللاوعي لامبالاة معادية ونقصاً في المراعاة تجاه الوعي إلا عندما يتخذ هذا الأخير موقفاً خاطئاً واستفزازياً معلناً إدعاءات متباهية ومبالغاً فيها.

إن الموقف الواعي لمريضي أحادي الجانب، فكرياً وعقلانياً، لدرجة أن الطبيعة فيه تحتد وتنفلت فانية كل عالم قيمه الواعي. ولكن المأساة هي في استحالة تحوله عن الوظيفة الفكرية لوحده وبوسائله الخاصة والإرتكاز إلى وظيفة أخرى كوظيفة العاطفة مثلاً، لأنه لايمتلكها أبداً. فاللاوعي هو الذي يحتوي هذه الوظيفة وفيه تكمن وتتجلى.

لهذا فكل ما يسعنا فعله أثناء علاجه هو ترك الوجهة للا وعي، لكي نعطيه بترجمة الصور والاستيهامات إمكانية أن يتحول هو ذاته إلى محتوى من الوعي. وبينما كان المريض في السابق يتشبث بعالمه الفكري ويدافع عن نفسه بمماحكات ضد ما يعتقد أنه مرضه، عليه منذ الآن أن يستسلم له؛ بحيث لا يكون مجبراً على العمل عندما يتملكه إكتئاب، أو مكرهاً على هذا الأمر أوذاك لكي ينسى ويتهرب. على العكس، عليه قبول اكتئابه وإعطائه فرصة الكلام، بشكل ما. لا علاقة لهذا الموقف مع إهمال مزاج غير مستقر ونزوي مميز للعصاب؛ بل هو عكس الإهمال. وهو ليس ضعفاً أو استسلاماً فارغاً، مهمة صعبة تتطلب مجهوداً كبيراً

للمحافظة على الموضوعية رغم من إغراءات الميل الشخصي هكذا نحول المزاج إلى موضوع قابل للمراقبة بدلاً من تركه يستحوذ على الشخص الذي يسيطر عليه. يجب أن يتصرف المريض بحيث تتحاور معه حالة نفسه. على مزاجه أن يكشف ويحدد كيف وم هو مصنوع؟ ووفقاً لأية تماثلات استيهامية نستطيع أن نحاول تطويقه ووصفه.

إن مقطع الاستيهام الذي تحدثت عنه أعلاه هو إظهار جزئي لمزاج وانفعال؛ إذا لم ينجح المريض بالمحافظة على موضوعيته في مواجهة حالة نفسه، لن يحصل بدلاً عن استيهامه وإدراكه إلا على شعور يشله بلا جدوى جهوده وبتعنيد مرضه. ولكن بما أنه يعطي حالة نفسه فرصة التعبير عن نفسها في حلم يقظة، يتوصل لأن يقتلع من اللاوعي كتلة صغيرة على الأقل من القوة الخلاقة اللاواعية، من الليبيدو، وتحويلها على شكل صورة إلى مضمون واع.

ولكن هذه المحاولة تبقى كذلك غير كافية، إذ لا يكفي تأمل الاستيهام والخضوع له حتى يحياه الفرد كما يجب، عليه أيضاً أن يشارك فيه بهمة.

لو تصرف المريض أثناء سياق الاستيهام كما يمكن أن يتصرف في الواقع، لوفى هذا المقتضى. في الواقع، ما كان اكتفى بالنظر إلى المشهد كشاهد سلبي، لغرق خطيبته؛ بالتأكيد كان تدخل من أجل منعها من تحقيق قدرها المظلم. لو توصل إلى ذلك، أي لو تصرف أثناء الاستيهام مثلما يتصرف في مواجهة موقف مماثل في الواقع، لأثبت وأكد أنه يأخذ عالم مخيلته محمل الجد، أي أنه يمنح اللاوعي أهمية وقيمة حقيقية مطلقة. والواقع ذاته كان تغلب على وجهة نظره الفكرية الأحادية الجانب ونادى بصورة لا مباشرة بالطابع القيم لمساهمة لاوعيه اللاعقلانية[7].

هكذا تكون التجربة الحية في تدرجاتها وغناها وتنوعها، معاشة بكليتها وكما يجب على الطبيب أن يُفعلها ويُسرعها. ولكن لا نسيئن

تقدير ما يعنيه هذا المطلب حقيقية. سيكون المريض مقاداً ومضطراً لأن يقول ويقر بأن ما كان سابقاً عالم حقائقه يهدده بشئ يبدو له وهماً خيالياً. أن ينسى، ولو للحظة، أن هذا الانبثاق ليس سوى استيهامات ونتاجات خيال تبدو في البداية كشيء اصطناعي ومصنع ومدموغ بخاتم الاعتباطية المطلقة، صعوبة لا يمكن تجاوزها تقريباً. كيف يمكننا عندئذ وصف مثل هذه المنتجات ذات الطابع التخيلي الصرف بأنها حقيقية، أو أخذها على محمل الجد.

بالتأكيد ليس المقصود أن ننغمس في حياة مزدوجة، كأن نبقى برجوازيين متوسطين من جهة وأن نحيا مغامرة غريبة ومليئة بالأعمال البطولية من جهة أخرى. بعبارات أخرى يجب ألّا نُخضع حياة عالمنا التخيلي إلى سوء فهم تعييني.

و الحال أن الكائن يسكنه ميل لا يقهر إلى القيام بذلك. وفي تحليل نهائي نقول، إن المقاومات والنفور الذي نلحظه من المخيلة، والانتقاص من اللاوعي تتأتى كلها من القلق الذي يستشعره الإنسان أمام ميله إلى أخذ وفهم وترجمة حركاته التخيلية. هذا الميل إلى تجسيد التخيل والقلق من المخاطر التي تنشأ عنه، تطير بدائي مازال حياً خاصة عند الإنسان المعاصر المتمدن. فهذا سكاف في النهار ولكنه يحمل في الليل هيبة رئيس الملائكة بين أعضاء طائفته، وذلك الآخر تاجر صغير في حياته الرسمية ولكنه في محفله الماسوني صاحب السمو الرمادي؛ وذلك الأخير بيروقراطي أثناء النهار ولكنه ما إن يحل المساء حتى يجسد يوليوس قيصر في حلقة أرواحية، فهو معرض للخطيئة ككائن بسيط ولكنه شبه معصوم في مهمته الغيبية. تلكم أمثلة عن تجسيد التخيلي كما لا يرغب الطبيب بها.

لقد طور المبدأ العملي في زمننا، كردة فعل على مثل هذه الخلافات التعيينية، رهاباً مستطيراً تجاه كل ما يتعلق بالخيال. مع ذلك يبقى أن كل

ما يتحرك حقيقي. والحال أن استيهامات اللاوعي تتحرك! وهذا بعيد عن أي شك. إن الفيلسوف الأكثر دهاء من الناحية العقلانية قد يصبح ضحية لرهاب الخلاء الأكثر سخافة: إن حقيقتنا العلمية الشهيرة لا تضعنا أبداً بمنأى عن المخاطر التي تنبثق عما ندعوه وهمية اللاوعي. فهناك شئ يؤثر بصورة ديناميكية من خلال غلالة الصور الخيالية سواء أطلقنا عليها إسماً بهياً أو مشؤوماً. إن اللاوعي يلجأ إلى شيء حقيقي ومؤثر، لهذا علينا أن نأخذ كل تجلياته الحيوية على محمل الجد. يجب أولاً تجاوز الميل إلى التعيينية. طالما نحن منغمسون في تجربة الاستيهام الحية لن نستطيع أن نقبله بالمعنى الحرفي. ولكن ركوب مغامرة التأويل يتطلب التخلص من الحرفية وعدم الانخطاف بالمظهر الجلي وبالتالي بالصورة الخيالية وعدم خلطها بالديناميات الفاعلة في الخلفية. إن مظهر الشئ ليس الشئ بذاته، إنه مجرد تعبير عنه.

بالعودة إلى مريضنا، فهو لم يعش حالة الانتحار على مستوى آخر؛ لقد استشعر شيئاً ملموساً كأنه انتحار حقيقي، لقد بدا له هذا انتحاراً. إن الحقيقتين اللتين تتواجهان، عالم الوعي وعالم اللاوعي، لم تتورطا أبداً في صراع على حق التصدر والهيمنة، ولكنهما تتوازنان أكثر أو أقل في نسبية مكملة. إن التأكيد على أن حقيقة اللاوعي نسبية جداً لا يستثير اعتراضات عنيفة جداً. ولكن وضع حقيقة العالم الواعي موضع شك، بذات الطريقة، لن يكون مقبولاً ومتحملاً بذات القدر من السهولة.

ومع ذلك فكل من هاتين الحقيقتين معاش نفسي ومظهر يغطي خلفيات مظلمة ومجهولة. على مستوى التفكير النقدي لا يتبقى شيء ذوحقيقة مطلقة.

نحن نجهل كل شئ عن ماهية الأشياء وعن الوجود في مطلقه. نختبر

في حياتنا الفعاليات المتنوعة التي تؤثر علينا: المتأتية من الخارج بفضل حواسنا، والمتأتية من الداخل بفضل مخيلتنا. ومثلما لا يجرؤ أحد، من خلال معارفنا الحقيقية، على تأكيد وجود اللون الأخضر بذاته؛ علينا أن نحترس من النظر إلى سياق استيهامي على أنه يجسد حقيقة موجودة بذاتها، فيصبح بالرمكان قبوله حرفياً كما هو. إن الصورة التي تخلقها المخيلة ليست إلا مظهراً وتعبيراً، دليلاً لمجهول، مع كونه مجهولاً لايقل حقيقة.

لقد تزامن الاستيهام الذي ذكرناه أعلاه مع حالة اكتئاب وموجة من اليأس، ويعبر مصوره عن سياقه. في الواقع، للمريض خطيبة تشكل بالنسبة له الرباط العاطفي الوحيد الذي يربطه بالعالم. ويؤدي اختفاء خطيبته إلى انقطاع رباطه الأخير مع العالم مما يسيء إلى حالته بشكل ملحوظ. هذا هو التفسير الأول الذي يقفز إلى الذهن. ولكن خطيبته تجسد أنيماه أي هي رمز لعلاقاته مع اللاوعي. من هنا يعبر الاستيهام ويفيدنا بذات الوقت، أن لا وعيه يبتلع أنيماه دون أن يقوم بأي شيء لمنع ذلك. يكشف هذا المنظور أن المزاج أو الحالة النفسية اللتان تملكتاه أقوى منه، أي أقوى من أناه: إن المريض محكوم باكتئابه الذي يرمي كل شيء من الأعلى، فيبقى مسمّراً في حالة جمود مع أنه كان يستطيع أن يحاول التدخل والإمساك بأنيماه.

إني أمنح الثقة الكبرى لهذا المنظور التأويلي الأخير، لأن المريض انطوائي، تنظم كيانه وعلاقاته مع العالم عوامل داخلية. لو كان انبساطياً لأعطينا الأفضلية للتأويل الأول، لأن حياة الانبساطي تنظمها وتحددها قبل كل شيء علاقات ملموسة مع الكائنات. لو كان انبساطياً لاستطعنا أن نتخيله قادراً، في حركة مزاجية، على إرسال خطيبته إلى الجحيم. بهذا التصرف كان أضر بنفسه جزئياً؛ أما الانطوائي فإن أسوأ الأضرار التي

يمكن أن يتكبدها هو انقطاع روابطه مع أنيماه، أي مع العالم الداخلي لعوامله الحميمة.

إذاً يظهر لنا استيهام مريضنا بوضوح حركة اللاوعي السلبية بشكل ميل للتحول عن العالم الواعي، وهذا الميل نشيط لدرجة أن يسحب خلفه الليبدو التي تؤثث الوعي، فيجد نفسه محروماً ومفرغاً من الطاقة. عندما نجعل هذا الاستيهام واعياً نمنع الليبدو من أن تسلك مساراً لا واعياً. في المقابل، لو تدخل المريض بشكل فاعل (كما ألمحنا إليه أعلاه) لتوصل إلى تملك مجمل الليبدو التي تتجلى في استيهامه، فيكتسب بهذا الشكل فعالية أكبر على لا وعيه.

لقد لحظت في عدد كبير جداً من الحالات، بأننا نتوصل، بفضل مجهود مواظب من الإدراك المتكرر والمتتابع للتخيلات التي تبقى دون ذلك لا واعية، إلى النقاط التالية:

1 ـ توسع الوعي إذ يصبح العديد من المضامين اللاواعية واعية.

2 ـ الكشف عن التأثير المسيطر والمفرط للاوعي على الوعي.

3 ـ تغير الشخصية كنتيجة للبندين الأول والثاني.

بالطبع إن التغير الملحوظ للشخصية ليس تغيراً في المعطيات الوراثية والفطرية ولا يترافق بها. إنه تحول في الموقف العام. كل ما نلحظه من انفصالات حاسمة وتعارضات جلية بين الوعي واللاوعي، عند مرضانا العصابيين الذين تمزقهم أقطابهم المتضادة مردها في أغلب الأحيان أحادية الموقف الواعي الذي يعطي تفضيلاً وحظوة شبه مطلقين لوظيفة أو وظيفتين على حساب الوظائف الأخرى، مما يؤدي بالضرورة إلى شلل وكبت الوظائف المستبعدة. ويتمثل الوعي بفضل الإدراك والتجربة الحية للتخيلات، الوظائف اللاواعية والدنيا. ولا يخفى ما لهذه العملية من تأثيرات عميقة على موقف الوعي.

نكتفي هنا بالتشديد على أن تغيراً أساسياً في الشخصية يتفعل دون أن نتوقف الآن عند تفاصيل وكيفية التغير. لقد دعيت هذا التغيير الذي ينجم عن مجابهة الفرد مع لاوعيه بالوظيفة المتسامية. وهذه الملكة الغريبة، ملكة التحول، التي تبديها النفس الإنسانية وتعبر عنها بالتحديد من خلال الوظيفة المتسامية، كانت الموضوع الأساسي للفلسفة الخيميائية في القرون الوسطى. إنها تعبر عن موضوعها الرئيسي في التحوّل بفضل الرمزية الخيميائية. وقد أظهر سيلبرر Silberer بشكل مطوّل في كتاب هام عن مشاكل التصوف ورمزيته كل ما تحتويه الخيمياء من مضمون نفساني(8).

إن اعتبار الفكر الخيميائي ببساطة مجرد عمليات تقطير وتسخين خطأ لا يغتفر. بالتأكيد، تمتلك الخيمياء هذا الجانب وهي تعبر بذلك عن تلمس الكيمياء الدقيقة لبداياتها. ولكن للخيمياء جانب روحي أيضاً يجب أن نحترس من إساءة تقديره، جانب نفسي مازلنا بعيدين عن استخلاص ما يجب استخلاصه منه. الفلسفة الخيميائية هي المبشر المترنح بعلم النفس الأكثر حداثة. وهد كانت الوظيفة المتسامية، وظيفة تحول الشخصية، سر هذه الفلسفة ومفتاحها المجهول خلال قرون؛ وذلك بفضل مزج وتركيب العوامل النبيلة والمكونات الفظة خلط الوظائف المتمايزة وتلك التي لم تتمايز بعد، باختصار، من تزاوجات الوعي واللاوعي في الكائن(9).

ولكن، مثلما تميزت بدايات الكيمياء العلمية بتمثيلات خيالية وتأكيدات مجانية شوهتها وخلقت التباساً، كذلك حرف سوء الفهم من جانب عقل فظ وغير متمايز الفلسفة الخيميائية التي لم تتوصل أبداً إلى صياغة نفسانية لملاحظاتها وإشكالياتها، على الرغم من أن حدساً للحقائق الأساسية في غاية القوة أطلق شغف مفكري القرون الوسطى لمسائل الخيمياء. كل من قطع صيرورة تمثل اللاوعي بصورة كاملة نوعاً ما لا يستطيع أن ينكر واقع أنه تأثر بها وتغير في أعمق أعماقه.

ولكني بالتأكيد لا أستطيع أن ألوم القارئ المشكك الذي يهز أكتافه لفكرة أن هذه الكمية التافهة والمهملة تستطيع ممارسة أدنى تأثير. أعترف بكل تواضع أن المقطع المذكور أعلاه يبدو سخيفاً تماماً وقليل الإقناع مقارنة بمسألة الوظيفة المتسامية وأهميتها الاستثنائية. ولكن من الصعب جداً ـ وأعتمد هنا على التفهم اليقظ للقارئ أن أذكر أي مثال كان أو حتى أفضل مثال إلا ويمتلك الخصوصية المحزنة بأنه لا يكتسب معناه ولا يثير أي انطباع إلا من منظور فردي وذاتي. لهذا لا أفو ت أبداً فرصة تحذير مرضاي من بعض السذاجة التي يمكن أن تدفعهم إلى الاعتقاد بأن ما يمتلك أهمية كبيرة بالنسبة إليهم، لأنه يعنيهم، هو بالضرورة ذات أهمية لا تقل وزناً من منظور موضوعي يعجز معظم الناس تماماً عن وضع أنفسهم من الناحية النفسية في مكان كائن آخر، وهو ما يحتاج لفن دقيق يندر امتلاكه، لا تصل ممارسته حداً بعيداً والمهارة فيه استثنائية. وحتى الكائن الذي نعتقد أننا نعرفه على أفضل وجه ويؤكد من جانبه أنه يجد عندنا تفهماً لا محدوداً، يبقى في الحقيقة غريباً عنا: فهو شخص آخر مختلف. وإن أحسن وأفضل ما نستطيع فعله هو أن نكون قادرين على قبوله كما هو، واحترامه بما لدينا من حدس لطبيعته واختلافاته عنا، وإعفاء أنفسنا من الغباء اللامحدود الذي يقوم على رغبة تأويله، معتقدين أننا قادرون على ذلك. لذا أجد صعوبات كثيرة في تقديم أمثلة مقنعة.

مهما كان المثال الذي نختاره فلن يستطيع اقناع القارئ كم انصدم واقتنع الفرد الذي عاش تجربة حية مؤثرة ومخيفة وواسعة ومصادمة(10). إن الدليل القاطع يكمن في التجربة المعاشة وحدها، ويختزلنا هذا إلى الاعتقاد بأننا كنا مسرحاً لها، قياساً لما اختبرناه نحن أنفسنا. إذا فشلت كل امكانيات التفهم الأخرى، لا يتبقى أمامنا في مواجهة تشكك لا

ينقص ووضع يائس إلا حجة علوية: النتيجة النهائية للعملية، وبالتالي تحول الشخصية الذي يمكن التحقق منه بسهولة.

مع إبداء هذه التحفظات، نضع بين يدي القارئ مقطعاً آخر من استيهام يتأتى هذه المرة من امرأة. ما يتميز المثال الجديد عن سابقه، بأن التجربة المعاشة تطرح مسألة الكلية والشمولية النفسانية. المرأة هي المسرح والممثلة وتساهم فيها بفعالية. وهي بذلك تسيطر على العملية تدمجها وتستفيد منها. عندي ملف هام من مواد هذه الحالة التي ينتهي تطورها الى تحو ل عميق في الشخصية. يأتي المقطع المذكور من المرحلة النهائية للتطور، وهو حلقة عضوية في سلسلة طويلة من التغيرات والتحولات التي يبدو انها ترمي الى تحديد وتعريف وبلوغ مركز الشخصية.

مركز الشخصية! لا يتضح ما نعنيه بهذا التعبير من تلقاء نفسه، وربما لا يمكن فهمه بالسهولة التي نظنها لأول وهلة. لهذا نتوقف قليلاً لنحاول تلخيص هذه المسألة. فلنتخيل الوعي والأنا التي تشكل مركزه في مواجهة مع اللاوعي؛ إن هذه المواجهة إلى عملية تمثل اللاوعي التي يمكن أن نتصورها كطريقة للتقارب بين الوعي واللاوعي. لا يتطابق مركز الشخصية الكليه مع الأنا، نتيجة لهذا التقارب، وإنما يصبح بإمكاننا الإشارة إليه بنقطة تقع على منتصف الطريق بين الوعي واللاوعي. وتصبح هذه النقطة مركز الثقل في التوازن الجديد، مرتبطة باعادة تمركز الشخصية الكلية. إنها تشكل مركزاً وهمياً لذلك لايستطيع موقعه المركزي والخاص بين الوعي واللاوعي أن يوفر أساساً جديداً وتأسيساً أكثر أماناً. بالطبع رأيي أن مثل هذه التصويرات والتعيينات محاولات رديئة وفاشلة يقوم بها عقل بليد من أجل أن يعبر عن معطيات نفسانية تكاد لا توصف، بل يعجز عنها الوصف. من جهة أخرى، أستطيع أن أعبر عن الشيء عينه باستخدام عبارة القديس بولس: «منذ الآن، لست أنا من يحيا، أن المسيح

هو الذي يحيا فيَّ». كما أستطيع أن الجأ إلى لاوتسو والاستشهاد بالتاو[11]، طريق الوسط، الوسط المبدع لكل شئ. ولكن مهما كانت اللغة المستعملة، هناك إشارة إلى المركز ذاته. أتحدث من جهتي كنفساني، ويجبرني ضميري العلمي على الاعتراف بأن هذه المعطيات تشكل عوامل نفسية ذات فعالية مؤكدة. انها ليست موجودات خيالية وافتراضية حققتها عرضاً، بل عناصر وأحداثاً نفسانية محددة تخضع لقوانين نفسانية ثابتة تنم عن الأسباب والنتائج المتتالية، لهذا نستطيع أن نجدها عند الشعوب والأعراق الأكثر تنوعاً، اليوم كما منذ آلاف السنوات. من أين تتأتى هذه الظواهر؟ لا أمتلك حول هذا الموضوع أية فكرة أو نظرية. لأن الإجابة على هذا السؤال تتطلب معرفة مم هي النفس مصنوعة، لذلك أكتفي بتسجيل معطياتها.

ولكن نصل إلى مثالنا: يتعلق الأمر باستيهام ذي طابع بصري، وهو ما كان يدعى في القرون الوسطى بالرؤيا. ولكنها ليست رؤيا حلمية أدركها الشخص أثناء حلم مكثف. كلا... إنها ببساطة رؤيا حدثت أثناء فصل من التركيز المكثف على الظلال التي تمر في خلفية الوعي، باختصار، أثناء إحدى الحالات التي أشرت اليها بمصطلح تقني: التخيل الفعال[12].

تتطلب هذه الإدراكات البصرية أثناء تخيل فعال تدريباً متقدماً جداً حتى يتم إدراكها. على كل حال إليكم ما رآه المريض بعباراته الخاصة: كنت أتسلق جبلاً عندما وصلت إلى مكان اكتشفت فيه سبعة أحجار أمامي وسبعة خلفي وسبعة من كل جانب. كنت أقف في قلب هذا المربع؛ كانت الحجارة مسطحة مثل عتبات؛ حاولت أن أرفع الأحجار الأربعة الأكثر قرباً إلي. اكتشفت وأنا أفعل أنها أقدام أربعة تماثيل لآلهة مدفونة في الأرض ورأسها إلى الأسفل. استخرجتها وصففتها بحيث أكون في مركزها. فجأة، انحنت كل التماثيل نحو المركز حتى كادت

رؤوسها تتلامس وشكلت فوقي نوعاً من القبة. أما أنا فوقعت على الأرض قائلاً: «فلتسقط عليَّ إن كان هذا ما يجب أن يكون، فأنا منهك». رأيت عندئذ أن حلقة من النار تشكلت حول الآلهة. ومامضى وقت حتى نهضت وقلبت التماثيل. وارتفع في المكان الذي سقطت فيه التماثيل أربع أشجار، عندها أعطت دائرة النار لهباً أزرق وبدأت أوراق الأشجار تصطلي به. فقلت عندئذ: يجب أن ينتهي ذلك، عليَّ أن أدخل أنا نفسي في النار حتى لا تحترق أوراق الأشجار أبداً. دخلت عندئذ في النار فاختفت الأشجار وانحسرت دائرة النار وتكثفت في لهب أزرق هائل رفعني عن الأرض.

هنا تنتهي الرؤيا. لسوء الحظ لا أرى كيف وبأية طريقة أشرح للقارئ المعنى الهام والخاص لهذه الرؤيا بصورة مقنعة. فهي تشكل مقطعاً من مجموعة غنية جداً، وحتى أفسرها بصورة نهائية عليَّ أن أنقل كل ماتقدم وماتلا. على الأقل، يقر القارئ المجرد من الحكم المسبق ودون صعوبة بأنه يستشف من هذه الرؤيا فكرة مركز يمكن بلوغه، لقاء صعود يسم المجهود وقبوله. يميز القارئ كذلك دون صعوبة المسألة التي أرقت القرون الوسطى وهي مسألة تربيع الدائرة التي كانت إحدى الإنشغالات الرئيسية للخيميائيين. تنبثق مسألة تربيع الدائرة هنا في نقطة ما من أجل تمثيل التفرد بصورة رمزية. نميز الشخصية الكلية بفضل نقاط الأفق الرئيسية الأربع[13]، الآلهة الأربعة، أي الوظائف الأربع التي تسمح لنا بالتوجه في الفضاء النفسي الداخلي وبفضل الدائرة التي تضم المجموع. اما تغلب الفرد على الآلهة الأربعة التي تهدد بسحقه يعني أن الفرد قد تحرر من التماثيل مع الوظائف الأربع، ويلمح إلى مربع نيردفاندفا. وهو من مصطلحات الفلسفة الشرقية يكافئ تعبير «حر من الأضداد» وهذا ما يحتم تضيق الدائرة أي الكلية اللامنقسمة. ويحتم من جديد حركة ارتفاع.

يجب أن اكتفي بهذه الإشارات. وكل من يفكر فيها يشكل فكرة تقريبية عن الطريقة التي يحدث فيها تحول الشخصية. يتدخل الفرد، بفعل مشاركته الفعالة، في الصيرورات اللاواعية ويحوز عليها بتركها تتخلله وتتملكه. هكذا يجمع في داخله المستويات الواعية إلى المستويات اللاواعية. وتكون النتيجة حركة تصاعدية في الشعلة وتحولا في الحرارة الخيميائية وولادة فكر ثاقب. تلك هي الوظيفة المتسامية التي تنشأ من اتحاد العوامل المتضادة.

يجب أن أحذر القارئ من سوء فهم يقع ضحيته غالباً، خاصة إذا كان طبيباً. ولا أدري ما هو الباعث الذي يجعل الأطباء يفترضون غالبا، كما لاحظت، إن كتاباتي مكرسة لطرقي العلاجية فقط. هذا خطأ شنيع! فكتاباتي مكرسة لعلم النفس بالمعنى الأوسع للمصطلح.

لهذا أكرر وأشدد على أن طريقتي في المعالجة لا تقوم على استثارة استيهامات غريبة عن مرضاي، عليهم تأملها حتى تتغير شخصيتهم أثناء هذا التأمل وبعده. ليست هذه طريقتي في المعالجة وهي لا تقوم على حماقات أخرى من ذات النوع.

أسجل ببساطة وجود بعض الحالات لمرضى يتبع تطورهم النفساني طريقاً من هذا النوع، بالتأكيد ليس عرضاً، لأني أقود المريض أو أجبره عليه، ولكن بكل بساطة لأن تطوره اللامتوقع يتأتى وينجم عن ضروراته الداخلية.

يبقى معظم مرضاي غريبين تماماً عن الظاهراتية الغريبة التي حاولنا وصفها للتو. نعم، لو كان باستطاعتهم أن يسلكوا هذا الطريق ـ وهو ما كان بدا تقليداً اعتباطياً، ومحاكاة عمياء لا تنبع من قانونهم الداخلي الأصيل ـ لوقعوا في مأزق مؤسف ولسارعت لتنبيههم الى الخطر. لأن درب الوظيفة المتسامية قدر فردي وهو لكونه كذلك مقصور على بعض المنتخبين النادرين.

لا يجب كذلك أن نعتقد أن هذا الدرب يشابه أو يماثل طريقة تنسك نفساني أو ابتعاداً وهروباً من الحياة والعالم. هذا الدرب غير ممكن وغير قابل لأن ينجح إلا إذا كانت المهمات الدنيوية واللامتوقعة التي تنتظرها الحياة من هذه الكائنات وتفرضها عليهم قد أنجزت فعلياً بشكل جيد.

مثل هذه الاستيهامات ليست أبداً منتجات بديلة، أو بدائل عن الحي والمعاش، إنها ثمار عقل يقطفها أولئك الذين يدفعون ضريبة الحياة. أما الخائف والمنهزم من الحياة فيسكنه ويلازمه الخوف القاتل الذي، لأنه مجرد من المعنى، لا يعطي معنى لحياته. كذلك الكائن الذي يجد درب العودة نحو الكنيسة الأم لن يعرف أبداً درب التفرد هذا. فالكنيسة تضم بلا ريب في أشكالها الحية السر الكبير. وأخيراً، فإن الإنسان العادي لا يربك نفسه أبداً بهذا العلم النفساني لأنه يكتفي منذ الأزل بالقليل الذي في متناوله.

لهذا أرجو قارئي أن يتفهم أني أصف ظواهر نادرة نسبياً تحدث عرضاً وأني لا أبحث عن الترويج لأساليبي في المعالجة.

يصف الاستيهامان المذكوران النشاط الإيجابي للأنيما والأنيموس. مع مشاركة أخذ المريض يشارك في نشاطه الاستيهامي تختفي الصورة المشخصة للأنيما والأنيموس:إنها تتحول تبعاً للعلاقة بين الوعي واللاوعي. وعلى العكس، إذا لم يدرك الشخص المضامين اللاواعية ويفهمها ويوجهها، باختصار إذا لم يدمجهما ويحققها، نجم عن ذلك نشاط سلبي وتشخيص للأنيما والأنيموس اللذين يشددان على تلقائيتهما(14). من هنا تنتج الأمراض النفسية وحالات الاستحواذ التي تبدأ بالأمزجة البسيطة والأفكار الغريبة وتنتهي بالذهانات. تتميز كل هذه الحالات بالمعطى الأساسي ذاته وهو أن شيئاً مجهولا قد استملك جزءاً من النفس أكثر أو أقل أهمية. ويفرض هذا الشئ المجهول وجوده الضار والمنفر برباطة جأش

رغم كل الصعوبات، وفي وجه كل جهود الإرادة الطيبة والتفهم والطاقة والمنطق، مظهراً بذلك قدرة المستويات اللاواعية للكائن في مواجهة الوعي: لن نستطيع أن نجد تعبيراً أفضل من كلمة استحواذ. في مثل هذه الحالة، يبدي جزء النفس الذي يعد سيد نفسه نفسانية تتميز بسيطرة الأنيما والأنيموس: تتشكل تابع[15] المرأة من مجموعة من الجن مذكرة وتابعة[16] الرجل امرأة.

هذا المفهوم الجبري عن نفس توجد بحسب الموقف الواعي بصورة مستقلة وتلقائية أو التي تتلاشى بحيث تصبح وظيفة اتصال بسيطة، وليس لهذا المفهوم المفاجئ أية نقطة مشتركة مع المفهوم المسيحي عن النفس كما يستطيع أي فرد أن يتأكد.

إن استيهامات مريضتي مثال نموذجي لطريقة تمثيل المحتويات اللاواعية التي ينتجها اللاوعي الجماعي. رغم أن شكلها ذاتي وفردي بشكل أساسي فإن مضمونها جماعي، أي أن الأمر يتعلق بصور وأفكار عامة نصادفها عند العديد من الكائنات، وهي عناصر تجعل الفرد مطابقاً لكائنات آخرى ومطابقاً للشرط الإنساني.

إذا بقيت هذه المحتويات الجماعية لا واعية، تقيد الفرد بألف رباط يشده إلى الأفراد الآخرين حيث هي لاواعية أيضاً، بقي هذا الفرد ممتزجاً معهم لا شعورياً؛ بعبارات أخرى لم يتمايز عنهم، ليس متمايزاً، ليس متفرداً.

بالتأكيد نستطيع أن نتساءل لماذا يتفرد الكائن وما إذا كان التفرد مستحباً. أجيب على هذا الاعتراض بأنه ليس مستحباً فقط بل ضروري بشكل مطلق، لسبب هام وهو أن الفرد يبقى، دون التمايز والتفرد، في حالة من المزج والخلط مع الغير وينجز في هذه الحالة أفعالاً تضعه على خلاف وصراع مع نفسه.

من هذا الخليط اللاواعي الذي يجري على «أرض لا أحد»، وهي الأرض التي تفصل وتقرب بين الأفراد في الوقت ذاته، ومن العملة المتداولة في علاقاتنا الداخلية أي «تقريباً» التي تعني تخليطاً أو تطابقاً يقل أو يزيد، ومن كل هذا التشابك اللاوعي في الانتماءات، ينبثق ما يلزمنا ويجبرنا أن نحيا على غير ما نحن عليه بالتحديد. لن يمكننا عندئذ ان نشعر أننا متفقون على طريقة وجودنا ولا تحمل مسؤوليته بشكل صحيح: نشعر أننا في وضع مترد من التبعية النفسانية والمعنوية.

ولكن خلاف الفرد مع ذاته تشكل الحالة العصابية وغير المحتملة التي نبحث عن التحرر منها ونسعى للخلاص خارجاً عنها.

والحال أن التحرر من هذه الحالة لا يحدث إلا عندما نوجد ونتصرف بالتوافق مع ما نشعر أنه طبيعتنا الحقة. ويستشعر الرجال هذا الاحساس بطبيعتهم بصورة مموهة أولاً، وسديمية وغامضة؛ ولكنه يتثبت بقوة ووضوح بمساعدة تطورهم. عندما نستطيع أن نقول عن الظروف التي وضعنا أنفسنا فيها، عن حالات النفس الغارقين فيها وعن تصرفاتنا «ها أنا على حقيقتي، وهذه هي الطريقة التي عليَّ أن أتصرف وفقها». نستشعر حقيقة أننا على اتفاق مع أنفسنا، حتى لو كان الكأس مراً، ونتحمل أعمالنا حتى لو كانت المتاعب لا تنقصنا وكانت أقلية فاعلة في عمق نفسنا تعرض حوافز مقاومتها.

بالتأكيد، إن هذا الموقف الإنساني وهذه الاجراءات الفكرية يفترضان اعترافنا بأن تحمل أنفسنا أثقل من أي شئ. لقد قال نيتشه: «إن كنت تبحث عن الحمل الأثقل، فها أنت ذا قد وجدت نفسك».

و لكن المهمة الأكثر صعوبة تصبح ممكنة لمن يتوصل إلى التمايز عن عناصره اللاواعية. ولكن أين وكيف يجدها؟ يكتشف الانطوائي عناصره اللاواعية في نفسه، أما الانبساطي فيكتشفها في الأشخاص والأشياء التي

من حوله، والتي يدمغها بشكل إسقاطات. وفي الحالتين، تحتم المحتويات اللاواعية أكثر من وهم وأكثر من سراب يضللنا ويضلل علاقاتنا مع المقربين منا معطية المجموع طابعاً لامعقولاً ومتلاشياً.

لأسباب من هذا النوع يكون التفرد ضرورياً لبعض الكائنات، ليس كضرورة علاجية فقط وإنما كمثال نرفعه، مثلما فكرة خيرة علينا تحقيقها أو فضيلة نسعى إليها.

و نهاية فلنلحظ أن التفرد يختلط بذات الوقت مع المثال المسيحي الأصلي عن ملكوت السموات «الذي في داخلنا». وقد تأسس هذا المثال على قاعدة أن التصرف والسلوك السليمان لا ينتجان إلا عن استقامة العقل وحالة نفسية سليمة، وإن الناس الذين لا يأخذون الفرد كنقطة انطلاق لهم لن يعرفوا شفاء أو تحسناً. واسمحوا لي بمثال بسيط، بديهي أننا لا نستطيع الاعتماد على فرد يعيش على التسول والصدقات لحل المشاكل الاجتماعية بصورة صحيحة.

الحواشي:

1 - Metamorphoses de la'me et ses symboles مذكور سابقاً.

2 - صدرت الطبعة الأولى من ذلك الكتاب باللغة الألمانية عام 1912.

3 - Alfred KUBIN, Die andere seite, Munich, 1908, L, Auture Cote, pauvert, Paris 1963

4 - نضيف بأن هذه الملاحظة لا تعني أبداً اهمال البحث السببي.

5 - أنظر ليونغ L'Energtique Psychique مذكور سابقاً.

6 - نفهم الأمر بسهولة إذا تذكرنا أن الوعي هو بالتحديد الحد المكيف للنفس. إذ تقع على الوعي مهمة التكيف مع العالم وأعبائه ومصاعبه وشدّاته أما ما تبقى من النفس فهو إنباتي.

7 - ليس التحليل معرفة من أجل المعرفة، ولا فناً من أجل الفن. إنه بحث ومعرفة من أجل تحقيق تأثير وسلوك أفضل.إذا رفض مريض يخضع للتحليل تطبيق وتحقيق معارفه الجديدة على نفسه في حياته ضاعف من خطورة حالته. لأنه فقد منذ اللحظة ما كان يمتلكه سابقاً أي جهله ولاشعوره. وبالتالي سيعاني من صعوبات أكبر في كبت بعض عناصر صراعه التي ظهرت إلى النور، مما يزيد من حدة هذا الصراع. إن تصحيح السلوك الواعي بما يتناسب مع الحقائق المكتشفة حديثاً يحقق على مستوى الوعي المساهمة الفاعلة التي يطالب بها يونغ. أنظر «الشفاء النفساني» La Guerison Psychologique مذكور سابقاً.

8 - Herbert Silberer, die problemeder mystik und ihrer symbolik, Vienne, 1914 والترجمة الانكليزية لهذا الكتاب:

Smith Ely Jelliffe, problems of mysticism and its symbolism, Newyork, 1914

9 - C.G Jung, psychologie et Alchimie, traduit et annote par henry pernet et le Dr Roland Caheu, Buchet - Chastel, Paris, 1970

10 - إن ومضة الفهم التي تنير عبثية حلم وتبدياته المتلاشية تجعل المحلل يقفز من مقعده: «لقد وجدتها!». إنها لحظة انفعالية هائلة تفوق في بعدها النفساني ما لها من تأثيرات عميقة في العالم العياني. إن البحث عن معنى الحلم واكتشافه يمد جسراً بين العقلي الواعي ومجهول لا عقلي مثقل بالانفعال. ان ايجاد المعنى الحلمي غالباً مايشبه انقلاباً وجدانياً؛ وان حوافز هذا البحث يمكن أن تكون

عديدة ومتنوعة.

1 - فرح فكري عند حل سر لايحل في الظاهر.

2 - اكتشاف وجهة جديدة في السلوك العملي.

3 - حماية الوعي من الخليط الوجداني واللاعقلي.

4 - حماية الأنا وتأكيدها بتمثل طاقة ومحتوى كان لا عقلياً في السابق.

5 - اتساع الشخصية.

6 - اكتشاف آفاق جديدة.

لكل هذه الأسباب يمتلك اكتشاف الوعي لمعطيات كانت لا واعية في السابق أهمية وقيمة يصعب تجاوزها.

11 - الطاو:

الطاو كلمة صينية تعني الطريق. والطاو هو المبدأ المنظم للكون أو النظام المطلق للكمال في كل شيء. وما نعرفه عن الطاو يعود لكتابات لاوتسو الفيلسوف الصيني الذي عاش بين القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد. وبالنسبة للطاويين تتحقق الحرية والتلقائية بالتزاوج التام مع الحركة الطبيعية الكبرى للكون وهذا هو الطاو الحقيقي: إنه مبدأ الخلاص وطريقه. (م).

12 - أنظر ليونغ «الدين في منظور علم النفس»، مذكور سابقاً.

أنظر أيضاً:

Roland Cahen: "Psychotherapie de C.G.Yung", dans l' Encyclopedie medico -chiryrgicale, Paris, 1955 Vol 3, Psychiatrie (Publice par Henry Ey)

13 - بالطبع لا نقصد أن نجعل من الرياضيات الأولية الترجمان السراني للوصول إلى حقائق مختلفة ومثقلة بمعان نهائية. على العكس، إن ملاحظة أحلام من هذا النوع، متكررة كثيراً، هي التي قادت يونغ إلى اكتشاف المضمون الرمزي والمعنى النفسي المرتبطين بهذه الصياغة الصورية والتشديد عليهما.

14 - هذه التلقائية ذات طبيعة بنيوية. ويقول يونغ إنها تمحى عندما تشارك الأنا في استيهامات اللاوعي بفعالية؛ وهي تتضخم وتبرز عندما ترفض الأنا، لعدم الفهم وبسبب الخوف من ترك صلابتها الواعية والعقلية، أن تمنح بعض الاهتمام والشرعية لعالمها الصغير الحميم فتخلق بذلك مواقف صراعية بين الأنا

واللاوعي.
15 - تابع: وهو الجني الذي يحتضن المرأة أثناء نومها وهناك أيضاً التابعة وهي الجنية التي تهاجم الرجل في فراشه.

الفصل الرابع

الشخصية «المانا»[1]

أستند فيما يلي إلى الحالات التي حدث أثناء تطورها ما وصفته في الفصل السابق بأنه المرحلة المقبلة الواجب اجتيازها، أي تجاوز الأنيما كمركب مستقل وتحويلها إلى وظيفة اتصال بين الوعي واللاوعي. إذا توصل الشخص إلي ذلك، توصل في الوقت ذاته إلى استخراج الأنا من تداخلاتها مع الجماعية ومع اللاوعي الجماعي. تتجرد الأنيما بهذه العملية من قدرتها الشيطانية كمركب تلقائي، أي لا تعود قادرة على ممارسة سحرها واستحواذها، وكأنها خسرت من كمونها وبشكل خاص من كمونها السحري. لم تعد بعد الآن حارسة الكنوز السرية، لم تعد كوندري الرسول الشيطانية «للغزال» التي تتألف طبيعتها من الحيواني والإلهي معاً، بل تصبح وظيفة نفسانية ذات طبيعة حدسية يمكننا أن نقول مع البدائي بخصوصها: «ذهب إلى الغابة من أجل التحدث مع الأرواح» أو «قال لي ثعباني» «قال لي إصبعي الصغير»... إذا استعرنا لغة الطفولة الزسطورية.

إن من يعرف من قرائي الوصف الذي قدمه ريدر هاجار «لتلك التي يجب أن تطاع» يتذكر بالتأكيد القدرة السحرية التي تمتلكها بطلة الكتاب وهي ما ندعوه بالشخصية المانا أي الشخصية التي تمتلك قدرة خفية كامنة، المانا بالتحديد، تمنحها القوى والمعارف السحرية.

بالطبع، تنبثق هذه الصفات من إسقاط معرفة واعية لا شعورياً،

وتستشعر ذاتها بذاتها، على الأشياء والكائنات بصورة ساذجة.إذا عبرت هذه المعرفة عن نفسها بصورة أقل شاعرية نطقت بهذه العبارات تقريباً: «أتحقق وأعترف أن هناك عاملاً نفسياً فاعلاً في داخلي. يمكنه أن يضع في رأسي أكثر الأفكار غرابة على الرغم من تمكنه من الافلات من إرادتي وحضوري الواعي بصورة لا تصدق، يستثير في الأمزجة والوجدانات المفاجئة، ويدفعني إلى أفعال مفاجئة لا أستطيع تحمل مسؤوليتها، ويعكر علاقاتي مع الآخرين بصورة مزعجة. أشعر أني عاجزة في مواجهة هذا المعطى الذي يدفعني ويحركني، والخطورة القصوى أني مأخوذة به مما يجعلني، في دفاعي السيء عن نفسي أمامه، لا أمتنع عن الإعجاب به». وكثيراً ما يشير الشعراء إلى تلك الكينونة الدينامية التي تقبع في قلب الرجل ذي المزاج الفني؛ أما غير الشعراء فيسعون للإعتذار بعبارات أقل انتقاء.

والآن علينا أن نتساءل، ماذا يحدث عندما تفقد الأنيما قدرتها الخفية، المانا، ماذايحدث لهذا الكمون الخفي للكائن، هل يلتجئ الى مكان آخر؟ (ولن يكون المكسب كبيراً إذ يفترض بنا إخراجه من ذلك المكان أيضاً). أم إنه يتحلل الى أشكال أخرى من الطاقة النفسانية والإنفعالية؟ هذا مايتبقى علينا الآن دراسته.

الفكرة الأولى التي تأتي الى الذهن هي أن من يتوصل إلى ترويض الأنيما وإخضاعها يكتسب المانا. ولا نتبع هنا التصور البدئي الذي يتخيل أن من يقتل شخصاً مانا يكتسب ماناه.

ولكن من يسيطر على الأنيما بعد مواجهتها؟ من الواضح أنها الأنا الواعية، لذا يبدو أن الأنا هي التي ستحمل المانا. هكذا تخاطر الأنا بأن تصبح الشخصية المانا. والحال أن المكون المانا للشخصية هو أحد الصفات الغالبة للاوعي الجماعي، أو النموذج البدئي المعروف جيداً للرجل القوي،

الذي تجلى عبر حياة الإنسانية كلها بمختلف مظاهر البطل والزعيم والساحر والمداوي والقديس والحاكم الذي يسود على الرجال والأرواح، الملك وصديق الله.

هكذا نجدنا بحضور صورة مذكرة جماعية، تصعد من أعماق الكائن، تنفصل عن الأعماق المظلمة للاوعي وتستحوذ على الشخصية الواعية. ينجم عن ذلك خطر نفسي ذو طبيعة دقيقة. إن إنبثاق نموذج بدئي إلى الوعي، يمدد الوعي إلى أبعد من بنيته وحدوده الطبيعية ويكبده تضخماً مخيفاً قابلاً لأن يعيد طرح وتدمير كل ما تم ربحه وإكتسابه أثناء المجابهة مع الأنيما.

لهذا فإنه من الأهمية بمكان ذات أن نعرف أن الأنيما هي ببساطة الدرجة الأخفض في تراتبية اللاوعي مثلما هي إحدى الصور الممكنة للاوعي؛ وأن نعرف أيضاً أن حدث التغلب على الأنيما يكوكب صورة جماعية أخرى تأخذ المانا، أي الكمون الدينامي الذي يشحنها، على عاتقها. والحقيقة أن صورة الساحر - من أجل التعبير عن هذه الصور بكلمة واحدة - هي التي تجذب اليها كمون المانا، أي القيمة التلقائية التي تميز الأنيما. بمقدار مايتماهى الشخص لاشعورياً مع المظهر الساحر لشخصيته اللاواعية، يستطيع أن يتصور امتلاك مانا الأنيما بنفسه. عندما يكون هناك تماه مع الساحر، تكون النتيجة التي أشرت إليها للتو محتمة.

وإن صورة الساحر يقابلها عند المرأة تمثيل مكافئ لايقل أهمية، وهو الصورة الأمومية والسامية للأم الكونية الكبرى المليئة بالرحمة والمغفرة. تتفهم وتغفر كل شيء، تتمنى الأفضل دائماً للأخرين دون أن تلتفت أبداً لنفسها ولحاجاتها الخاصة. اكتشفت المحبة الكبرى على غرار الساحر الذي يمتلك ويعلن الحقيقة الكبرى.

ومثلما لايمكن للآخر أن يتلقى المحبة الكبرى ويستشعر قيمتها الحقة، كذلك تبقى الحكمة العليا غير مفهومة. وفي المقابل لايمكن لمثل هذه يمكن لهذه المحبة والحكمة أن يتوافقا ويتعايشا.

نجدنا هنا بحضور سوء فهم مخيف لأن كل عناصر التضخم تجتمع بلاريب: لقد استملكت الأنا شيئاً ليس لها. ولكن بأي التفاف ظنت أن بإمكانها تملك المانا. إذا كانت الأنا وقد تغلبت هي على الأنيما، كان المانا من حقها شرعا، وكان الأسر الذي تمارسه عليها نتيجة منطقية. وتكون الأنا قد ربحت فعلياً قيمة ووزناً وأهمية. ولكننا مجبرون على التحقق من شيء. لايشعر الآخرون بمرتبة الأنا الجديدة كما أنها لا تؤثر في المحيط! لماذا؟ إن في ذلك معياراً صحيحاً! يبقى هذا التزايد في الأهمية والمعنى الذي تغتر به الأنا بلا فعالية على المحيط لأنه مجرد سراب. فالأنا محاطة بمعنى لم تكتسبه أبداً في الواقع: لقد اختلطت الآن مع نموذجها البدئي. إنها ترتهن له بما أنها سقطت أمام خلط الحدود بينها وبين هذا النموذج. لقد إستسلمت للسحر الذي ينبثق عن صور لا واعية جديدة. من هنا علينا أن نستخلص أن من تغلب على الأنيما ليس الأنا حقيقة وبالتالي فالمانا ليست من حقها. لقد حدث في الحقيقة تحرك جديد للمستويات، انتقال واختلاطات مع تصوير جديد لاواع من نفس الجنس، يعود للأيماجو الأبوي، المزودة بقدرة أكبر أيضاً.

لن يتحرر من القوة التي تجمع كل الكائنات إلاالكائن الذي تغلب على نفسه[3].

إذا استسلمت الأنا لهذه الحركة ظنت أنها رجل متفوق تتوافر لديه كل القدرات، يظن نفسه نصف ـ اله وربما أكثر «أنا والأب لسنا إلا واحداً»، ولن ينبثق هذا الاعتراف الضمني الساحق بشكله الملتبس إلا في موقف نفساني من هذا النوع.

تتقوقع الأنا المحدودة في مثل هذا الوضع، بشكل يدعو للرثاء، وتنبذ بسرعة كل وهم قوة وأهمية شرط أن تمتلك حداً أدنى من شرارة معرفة ذاتها. يجب الاعتراف أن الأمر مجرد أوهام وسرابات: لم تتغلب الأنا على الأنيما وبالتالي لم تكتسب المانا. لم يصبح الوعي سيد اللاوعي. ماحدث ببساطة هو أن الأنيما وجدت نفسها محرومة من ادعاءات السيطرة مع تقدم الأنا في مواجهته مع اللاوعي. ولكن هذه المواجهة لاتعني أبداً انتصار الوعي على اللاوعي وإنما تحقيق توازن جديد بين العالمين.

لم يستطع الساحر أن يستحوذ على الأنا وإغراقها في الخلط والاستلاب اللذين ألمحنا إليهما أعلاه، إلا لأن الأنا كانت تحلم طفلياً بانتصار على الأنيما وكانت مأخوذة بهذا الأمل السري، وكم في ذلك من ادعاء وتطاول. الحال أن كل تطاول للأنا يتبعه ويعوضه بلاريب تطاول اللاوعي على الأنا يستحوذ الساحر على الأنا، يسكرها فيخسرها، يستلبها لنفسه.

أمارس تأثيراً عنيفاً

تحت شكل متغير(4).

لذا ما إن تنبذ الأنا ادعاءات الانتصار حتى تنحل حالة التملك الساحر للأنا من تلقاء نفسها. ويبقى السؤال: ماذا حدث للمانا؟ من أو ماذا أصبحت المانا؟ إذا كان الساحر نفسه، بانتهاء سطوته وألاعيبه على الأنا، لم يعد في وضع يسمح له بممارسة سحره!.

جل ما نعرف هو أن الوعي واللاوعي لايمتلكان المانا بعد الآن. لقد تحققنا بالفعل وبصورة أكيدة من أن الأنا وقعت ضحية التشريب الذي يستحوذ عليها لانها رفعت ادعاء القدرة والتفوق. وهذا يعني أن اللاوعي قد فقد منذ اللحظة قدرته الفائقة. إن وصولنا إلى هذه المرحلة من معارفنا

يفرض الخلاصة التالية: كان يجب منح المانا إلى شيء واع ولا واع في الوقت ذاته، أو ربما لشيء ليس الاثنين معاً.

هذا الشيء هو نقطة توازن الشخصية التي طالما بحثت عنها. إنها نقطة لا تقبل التحديد، تقع على منتصف الطريق بين الميول المتضادة والأقطاب المتواجهة، تتصالح فيه الأضداد وتنحل الصراعات ويتفرغ التوتر الأولي. هذا المكان الهندسي لا يقبل الوصف، تتقاطع فيه العديد من العناصر، يكشف ويثبت مستقبل الشخصية. وإن انبثاقها يوازي اجراءات فردية جداً تقود نحو المرحلة التالية للحياة والكائن.

لا أنتظر من قارئي أن يتابع هذا الملخص السريع في كل تفاصيله. أرجو أن يرى فيه طريقة لعرض مسألة سآتي عليها فيما يلي باختصار.

لقد أطلق تفكيرنا حول هذه المسألة الحالة التي تتولد عند شخص ما عندما تكون المواد اللاواعية، التي استخرجت إلى الضوء بظاهرة الأنيما والأنيموس، قد وصلت إلى الوعي واستنسخت فيه بشكل كاف.

فلنتصور هذه العملية على الشكل التالي: إن المحتويات اللاواعية هي في الدرجة الأولى أشياء تتنفس في المناخ الشخصي؛ ولا بأس أن نتذكر، على سبيل المثال، التخيلات المذكورة أعلاه عن مريضي. ثم تظهر استيهامات من اللاوعي الجماعي تحتوي شكل أساسي رمزية جماعية تشبه رؤيا مريضتي. لم تعد الاستيهامات ما اعتقدناه عنها بكل بكل سذاجة لفترة طويلة وما نعتقده عنها حاليا أيضاً؛ بل على العكس إنها تخضع لبعض الموجهات اللاواعية التي تسعى نحو هدف محدد. لهذا يمكن مقارنة هذه المجموعات من الاستيهامات التي تظهر في هذه المتطورة بعمليات المساررة[5].

وتشكل عمليات المساررة ظواهر تشبه التي نشهدها اليوم عند الأفراد المعاصرين في كل نقاطها. كل المجموعات الإثنية البدائية وكل القبائل

مهما كانت قليلة التنظيم احتفالات إسرارية غالباً ما تكون معقدة بشكل غريب، تلعب في حياتهم الإجتماعية والدينية دورا هاما استثنائياً[6]. بهذه المسارات يتحول المراهقون الى رجال والفتيات إلى نساء. والكافيروندوس ينعتون من يرفضون الخضوع للختان أو الخزع بانهم شريرون شاذون. ويظهر هذا أن الاستخدامات الإسرارية تشكل الوسائط السحرية التي يمر الرجل بفضلها من المرحلة الحيوانية إلى الحالة الانسانية. من الواضح أن المساررات الأولية هي من أسرار التحول ذات الأهمية الكبرى. وغالباً ما يخضع المساررون للتعذيب ولطرق مؤلمة بينما تكشف لهم في الوقت ذاته أسرار القبيلة وقوانينها وتراتيبها من جهة، وتعاليم أسطورية وعن نشأة الكون من جهة اخرى. لقد احتفظت كل الشعوب باحتفالات المساررة. احتفظ الإغريق بأسرار إيلوزيس التي تعود إلى أقدم العهود حتى القرن السابع من العهد المسيحي. وكانت روما غارقة بعبادات إسرارية لا تحصى إحداها المسيحية التي تحتفظ في شكلها الحالي بالاحتفالات الإسرارية للتعميد وسر الميرون والمناولة. وهي تذكر بصورة باهتة ومتراجعة بالإحتفالات الاسرارية. لا أحد يمكنه إذا الاعتراض على الأهمية التاريخية الضخمة للمساررات.

إذا أخذنا في اعتبارنا شهادات القدماء فيما يتعلق بأسرار إيلوزيس[7] فإن الأزمنة الحديثة تبدو خالية تماماً في هذا المجال. فالماسونية والكنيسة الغنوصية في فرنسا ومنظمة الصليب الوردي الخرافية والثيو صوفيا، تبدو كلّها نتاجات استبدالية للشيء الذي كان يجب أن يسجل على رأس ما خسرته الإنسانية.

في الحقيقة تظهر الرمزية الاسرارية كلها بوضوح شديد في المحتويات اللاواعية. نستطيع أن نعترض قائلين أن هذا الانبعاث ليس إلا بقايا تطير قديم وأنه مجرد من كل قيمة علمية. ولا يقل هذا الاعتراض غباءً وتبسيطاً

عن ذاك الذي ينظر إلى وباء الكوليرا، مع ما يطلقه من تحد للصحة، على أنه ليس إلا مرضاً خمجياً تافهاً.

كما سبق وكررت، ليس المهم أن تعرف ما إذا كانت رموز المساررة حقائق موضوعية أم لا؛ السؤال الهام هو في تبين ما اذا كانت المحتويات اللاواعية مكافئة للاحتفالات الإسرارية وإذا كان لها تأثير على النفس الإنسانية أم لا.

من المستحيل أن أقدم للقارئ في هذا الكتاب المواد الضرورية لإ قناعه، فهذا يتطلب سلسلة من الاستيهامات(8) والصور التي قد تكون أحياناً مفصلة ومطولة بشدة. أدعوه لأن يكتفي يبعض الأمثلة التي ذكرتها في هذا العمل ولأن يثق بي. أؤكد له أن لهذه المسلسلات بناؤها ومنطقها الخاص، وهي تعكس تضافر العلاقات التي لانستبعد غائيتها. وبالتأكيد إستخدم كلمة غائية مع بعض التحفظ، إذ يجب إستخدامها هنا بحذر وتيقظ.

في الواقع يمكن أن نرى عند بعض المعتوهين سلسلة؛ من الأحلام، وعند بعض العصابيين سلسلة من الاستيهامات التي تهيم كما يبدو متنافسة دون هدف ودون غائية. ويتجه المريض الشاب الذي ذكرت سابقاً استيهاماته عن الانتحار يسير إلى إنتاج سلسلة من الأستيهامات المجردة من المحور والغائية، إذا استمر لايبالي بها ولم يتعلم المشاركة بها فعلياً والتدخل فيها بشكل واع.

بما نوليه من إهتمام للاستيهامات، وبفضل المشاركة الفعالة فيها، ينبثق إتجاه عام وهدف يلج لاتماسكها الظاهري. لأن اللاوعي صيرورة صرفة بطبيعة؛ فهو بلا قصدية من جهة، ويدل من جهة أخرى على التوجه الكامن الذي يميز بشكل مطلق صيرورة طاقية. ما إن يشارك الوعي في مختلف مراحل الصيرورة ويحياها خطوة فخطوة، ربما بحدس مبهم،

حتى تراهن الخطوة التالية على المستوى المكتسب سابقاً، فيلج التناسق والتوجه إلى بقية الصور.

عند المستوى الذي بلغته المجابهة بين الأنا واللاوعي، يصبح الهدف التالي التوصل إلى حالة لاتبقى فيها المحتويات اللاواعية ولاتعبر عن نفسها بطريقة غير مباشرة من خلال ظاهرتي الأنيما والأنيموس، وهي حالة يصبح فيها الأنيما والأنيموس وظيفتي اتصال بين الوعي واللاوعي.

وطالما لم يصبحا كذلك، يبقى الأنيما والأنيموس مركبين تلقائيين أي عاملي اضطراب يفلتان من مراقبة الوعي ويتصرّفان بالنتيجة كمعكرين حقيقيين للصفو. من جهة أخرى لقد عبر مصطلح «المركب» الذي إقترحته إلى اللغة الشائعة لأنه ظاهرة تم التعرف إليها بصورة عالمية[9].

كلما كثرت المركبات لدى الشخص، صادرته وجعلته في حالة استحواذ: عندما نسعى لتشكيل صورة عن الشخصية التي تعبر عن نفسها بهذه المركبات نكون مجبرين أحياناً على أن نستخلص بأن الأمر يتعلق بامرأة هيستيريه - ومن هنا تسمية الأنيما! ولكن إذا جهد الشخص لإدراك محتوياته اللاواعية، المعطيات الحقيقية للاوعيه الشخصي أولا، ثم استيهامات لاوعيه الجماعي، توصل إلى جذور مركباته ممايقود إلى تحلل حالة مصادرته واستحواذه. يستعيد الشخص سيطرته على نفسه، وتختفي عندئذ ظاهرة الأنيما.

إن هذا العامل الشهير الذي يمتلك قدرة على السحر والإغواء، والذي سبب حالة الاستحواذ على الأنا (وهو الذي لاتستطيع الأنا أن تتخلص منه ويمسك بها تحت سيطرته)، يجب من حيث المنطق أن يختفي م الأنيما: بحيث يصبح الفرد حراً من المركبات ومعقماً من الناحية النفسانية. يجب ألا يحدث شيء إذا لم تسمح به الأنا. وعندما تريد الأنا شيئاً يجب ألا يتمكن شيء من الاعتراض على هذه الإرادة أو تعكير

تنفيذها. هكذا تضمن الأنا لنفسها موقعاً؛ تتمتع بعناد إنسان مترفع أو بالتوفيق الهادئ لحكيم كامل. تشكل هاتان الإمكانيتان صوراً مثالية (نابليون لأحداها ولاوتسو للآخرين). وترتبط هاتان الشخصيتان بفكرة ماهو «فعال للغاية» وهو تعبير اقترحه ليهمان Lehman في دراسته الوافية والشهيرة من أجل شرح مصطلح المانا[10].

لذلك وبكل بساطة أُطلق على الشخصية التي تتمتع بمثل هذه الإمكانية إسم الشخصية المانا. تتعلق مثل هذه الشخصية بأحد الخواص الغالبة للا وعي الجماعي، أو لنموذج بدئي تشكل في النفس الإنسانية منذ عهود سحيقة، على أساس تجارب من هذا النوع. لا يحلّل البدائي ولا يسعى لأن يحدّد لماذا يكون شخص آخر متفوقاً عليه. إذا كان الآخر أكثر ذكاء أو قوة منه يقول عنه إنه مانا أي أنه يمتلك قوة أكثر. ولكن صاحب المانا معرض لأن يفقدها إذا تخطاه أحدهم أثناء نومه أو مشى على ظله.

لقد تجسدت الشخصية المانا عبر التاريخ في صورة البطل وفي الرجل - الإله[11] الذي يعتبر الكاهن ممثله الأرضي. ونتساءل اليوم إلى أي درجة يجسد الطبيب الشخصية المانا في أعين مرضاه، إنه سؤال أمام المحل لين الكثير ليقولوه حوله.

بقدر مايبدو أن الأنا تأخذ على عاتقها قدرة الأنيما، تصبح بالواقع ذاته حاملة للمانا، أي شخصية مانا. هذا ما نتحقق منه في غالبية الحالات. لم أشهد بعد أي تطور من هذا النوع تقدم قليلاً، إلاّ وأعطى ولو بشكل عابر، تماهياً مع النموذج البدئي للشخصية المانا.

وإنه لأمر طبيعي جداً أن تحدث الأشياء على هذا النحو. فهذا ما نتوقعه من الشخص الذي يتطور، ومن كل الآخرين بصورة عامة. وإن الاستسلام لاغواء الإعجاب بأنفسنا قليلاً، لأننا نظرنا أبعد قليلاً وأعمق قليلاً من عامة الفانين، ضعف إنساني نكاد لانفلت منه. فالآخرون عندهم

مثل هذه الحاجة لإيجاد بطل في مكان ما، أو سلطة لايمكن مناقشتها، بحيث أنهم جميعاً مهيؤون لتشييد المعابد وتبخير المعبودين. لا تعود حالة الإذعان هذه للغباء المحزن الذي يبديه المثرثرون المجردون من المنطق وإنما لقانون نفساني في الطبيعة يتطلب أن يتكرر ماكان دائماً وإلى مالا نهاية.

يستمر الأمر على هذا النحو طالما لم يقطع اللاوعي هذ التكرار الاندفاعي والتجسيد الساذج للصور الأولية. لا أدري إذا كان مستحباً أن يعترض الوعي القوانين الأبدية. كل ما أعرفه، هو أن الوعي يعدلها من وقت لأخر، وهذا الإجراء ضرورة حيوية لبعض الأشخاص، إضافة إلى أنه لايمنع هؤلاء الأشخاص أنفسهم من أن استلام عرش الأب لكي يعيدوا للقاعدة القديمة حقيقتها الأولية مرة أخرى. نعم، لدرجة أن علينا أن نتسائل كيف يمكننا أن نتصور ونأمل الإفلات من القدرة الكلية للصور الأولية.

الحق يقال أنا لا أومن أبداً بأننا نستطيع الإفلات من قدرتها الكلية، يمكننا على الأكثر تعديل موقفنا تجاهها متجنبين الاستسلام بسذاجة لنموذج بدئي نصبح عبيداً له، ويجبرنا على لعب دور على حساب إنسانيتنا. لأن إستحواذ نموذج بدئي على الأنا يحول الكائن ويجبره على أن يكون مجرد صورة جماعية، نوعاً من القناع، لايستطيع الإنسان أن يتطور خلفه بل يضمر. لذا يجب أن نبقى واعين للخطر الذي يقوم على الاستسلام للخاصة الغالبة والقوه الجاذبة اللتين تنبثقان من الشخصية المانا. الخوف ليس في تقمص قناع الأب وإنما في الاستسلام لهذا القناع عندما يحمله شخص آخر. من هذا المنظور يقترب المعلم والتلاميذ من بعضهم جداً ويتساوون جداً.

إن تفكيك الأنيما وامحاءها يعني أننا اكتسبنا معرفة عميقة بقوى اللاوعي الدينامية. وبالمقابل هذا لايعني أننا جعلناها عاجزة ومشلولة. إنها

قابلة لأن تهاجمنا من جديد في أي وقت وبشكل مفاجئ. وستقوم بذلك حتماً ما إن يعاني الموقف الواعي من فجوة ما أو من بعض القصور. هناك دائماً قوة تواجه قوة. إذا ادعت الأنا قدرة وسيطرة على اللاوعي، رد في الحالة التي نحن بصددها بإطلاق الخاصة الغالبة للشخصية المانا التي تخضع حظوتها الهامة الأنا وتصيبها بالذهول. في مثل هذه الحالة لاتستطيع الأنا أن تدافع عن نفسها إلا بالإدراك الكامل لضعفها وفقرها في مواجهة قدرات اللاوعي والاعتراف بهما. بهذا الموقف لايكون الالتقاء مع اللاوعي على مستوى القوة ولايرتكس هو كما لو أنه يستفز.

قد يجد القارئ مضحكاً أن أتحدث عن اللاوعي كأنه شخص، علماً أني بعيد عن دعم الحكم المسبق الذي يعتبر اللاوعي كينونة شخصية. إن اللاوعي جملة من الصيرورات الطبيعية التي تقع ماوراء المستوى الشخصي والإنساني. إن وعينا هو الأمر الشخصي الوحيد. لهذا عندما أتحدث عن «إستفزاز اللاوعي» لا أعني أنه يتعر ض للإهانة وأنه ـ بغض النظر عن الآلهة القدماء ـ يتعامل مع الرجال بقسوة بدافع الغيرة والانتقام. ما أريد قوله يقترب كثيراً من خطأ في نظام التغذية النفسية يفقد الجهاز الهضمي توازنه. ويرد اللاوعي بشكل آلي مثلما تفعل المعدة التى تتأثر، بصور مجازية، من الإفراط والأخطاء غير المحتملة التي نفرضها عليها. عندما أدعي ممارسة سيطرة على وعيي الخاص أقترف خطأ مشابها في التغذية النفسية، أتحمل موقفاً لايناسبني ومن الأفضل لي أن أتجنبه من أجل راحتي الخاصة.

على أية حال إن مايؤدي إليه اللاوعي المضطرب من تأثيرات معنوية مدمرة وبعيدة المدى يجعل من مقارنتي على قلة شاعريتها مفرطة في قصورها. من هذا المنظور أفضل بكثير التحدث عن ثأر الآلهة التي تعرضت للإهانة.

بتمييز الأنا عن النموذج البدئي الذي تجسده الشخصية المانا نكون مجبرين - كما في السابق، في حالة الأنيما - على أن نعي المحتويات اللاواعية الملازمة نوعياً للشخصية المانا. لقد كانت الشخصية المانا الممتلكة الدائمة للسر الكبير على مدى تاريخ الإنسانية، أي للمعرفة الاستثنائية والقدرة الخاصة (ماهو مسموح لجوبيتير، غير مسموح للثور)، وبكلمة واحدة لتمايز فردي من رتبة ما.

إن وعي المحتويات التي كانت لُباب النموذج البدئي للشخصية المانا هو بمثابة التحرر الثاني للإنسان، بل هو التحرر النهائي من الأب (من الأم بالنسبة للمرأة) وهو أول إثبات معاش للفردية الخاصة. يرتبط هذا الجزء من التطور ارتباطاً تاماً بقصدية الإحتفالات الإسرارية البدائية والمجسدة، ومن ضمنها العمادة. والقصد هو الإنفصال عن الأهل وفق الطبيعة (أو عن الحيوانات) والانبعاث في طفولة جديدة، في حالة خلود وتدرج روحي عبرت عنه بعض ديانات الأسرار القديمة ومن بينها المسيحية.

وهناك إمكانية لعدم الاستمرار في التماهي مع الشخصية المانا. لذا يلجأ الرجل إلى موقف يعتمد الاحتفاظ بها مجسدة بشكل مافي أب سماوي متموقع في ما وراء العالم ومتمتع بصفة المطلق التي تبدو غالية على العديد من الكائنات. يمنح هذا الإجراء سلطة مطلقة للاوعي (إذا تتوج الجهد المبذول للالتزام بهذا الإجراء بالنجاح). لأنه بهذا الإجراء تمر كل القيم وتسيل الى الماوراء. النتيجة المنطقية لذلك هي بقاء الرجل هنا مثل ضائع فقير، وبائس ودوني محمل بالخطايا وعاجز عن أي أمر جيد. وقد أصبح هذا الحل، كما نعلم، التصور عن العالم الذي أخذ مكانه في التاريخ.

متقدماً على أرض نفسانية بحتة ودون أن أمتلك أي رغبة في إملاء حقائقي الأبدية على الكون، أكتفي فيما يتعلق بهذا الحل بإبداء مايلي:

منذ اللحظة التي أمنح فيها مستوى اللاوعي كل القيم العليا وأشيد إنطلاقاً من ذلك فضيلة علوية، أقع في ضرورة بغيضة تقضي باختراع شيطان من الوزن والبعد ذاته يكون قادراً من الناحية النفسانية على تحقيق التوازن مع فضيلتي العلوية. والحال أن تواضعي لايسمح لي بالتماهي مع هذا الشيطان بأي شكل من الأشكال. وهذا تكبر يضعني إضافة إلى ذلك على تناقض مع قيمي العليا بأوجع صورة ممكنة.

لقد تركني موقفي الأولي في حالة ضياع ويأس مع حصيلة معنوية منهزمة بشدة تجعلني عاجزاً عن تحمل عبء من هذا النوع.

لذلك، أنصح بعدم تشييد إله انطلاقاً من النموذج البدئي للشخصية المانا، أي بعدم تعيينها أبداً، نظراً لما ينتج عن ذلك من حوافز نفسانية أتجنب بهذا الشكل إسقاط قيمي ولا قيمي في إله أو شيطان وأحتفظ لنفسي بكرامتي وثقلي النوعي الخاص، الذي أحتاجه كثيراً اللعبة العاجزة للقوى اللاواعية.

من الجنون أن نفترض أننا أسياد العالم عندما نتعامل مع العالم المرئي. لأننا نستسلم عبر هذا التعامل لمبدأ اللامقاومة أمام كل العوامل الأرفع من الفرد؛ وذلك إلى حد أعلى يختلف بصورة فردية، ولكنه نقطة الانطلاق في تحول المواطن الأكثر هدوءاً إلى ثوري دموي. إن إجلالنا للدولة والقانون نموذج يصلح للموقف العام تجاه اللاوعي الجماعي (اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله[12]. حتى هنا يتم خضوعنا بلا صعوبة.

ولكن يوجد أيضاً في العالم عوامل لا يمكن لوعينا الأخلاقي أن يوافق عليها كلية، ومع ذلك فنحن ننحني أمامها لماذا؟ ببساطة لأننا نجني من الخضوع أكثر مما قد نجنيه من التمرد.

كذلك يوجد في اللاوعي عوامل يفضل أن نبدو فطنين في مواجهتها. ولنتذكر هنا الآيات التالية «وأنا أقول لكم ألا تجابهوا الشر أبداً».

«استخدموا ثروات الآثام لتكسبوا الأصدقاء». «أطفال هذا القرن أكثر حكمة في قيادة أعمالهم من أطفال النور «إذاً كونوا حذرين كالأفاعي وبسطاء كالحمام»[13].

تمتلك الشخصية المانا معرفة عليا من جهة وإرادة عليا من جهة أخرى. عندما يعي الشخص المحتويات اللاواعية التي تدعم فيه الشخصية المانا، يصبح في موقع يتطلب منه أن يأخذ في الحسبان واقع أنه يعرف أكثر من العامة وأنه يريد أكثر من العامة. وهذا ما يوفر له قرابة بغيضة مع الآلهة، وهي قرابة نعلم أنها ألهمت أنجيلوس A.Silesius سيليسيوس كثيراً بحيث أنه توجه من بروتستانتيته المفرطة إلى أعمق أعماق الكنيسة الأم، على حساب موهبته الغنائية وصحته العصبية دون أن يتوقف عند المرحلة المرية التي بلغتها اللوثرية في نظره.

ومع ذلك فإن المسيح ومن بعده القديس بولس وجدا نفسيهما في صراع مع هذه المسألة بالتحديد، وقد بقي الكثير من آثارها. وقد أعاد المعلم إيكهارت وغوته في فاوست ونيتشه تقديمها لنا من جديد. لقد حاول غوته ونيتشه أن يشعرانا بهذه المسألة من خلال فكرة القدرة والسيطرة. لقد أخرج غوته الساحر وصاحب الإرادة العديم الذمة الذي يصل إلى حد الانضمام للشيطان. وهذا ما فعله نيتشه من خلال الرجل الكامل والحكيم الأعلى اللذين لا يعرفان لا الله ولا الشيطان. يقف الرجل عند نيتشه وحيداً، على صورة ما كانه نيتشه نفسه، محتاجاً للمال ودون أي ارتباط حقيقي مع الله والعالم. لا يعتبر هذا إمكانية مثالية للرجل الواقعي الذي لديه عائلة وعليه أن يدفع الضرائب. لا يستطيع أي التفاف فكري يرمي إلى إنكار وجود العالم أن يقف في وجه حقيقة العالم مهما كانت الدلائل التي يدعي تقديمها لنا؛ لا مفر من ذلك أبداً. كذلك لا شيء يمكنه أن يثبت أن اللاوعي لا يمارس فعاليته. كيف يمكن لفيلسوف

عصابي أن يثبت لنا أنه غير عصابي؟ لا يمكنه أن يثبت ذلك حتى لنفسه.

هو وضعنا، نفسنا محشورة بين حقول تأثير هامة من الداخل والخارج. ويجب ارضاء الإثنين شئنا أم أبينا. ولن يتاح لنا هذا إلا بمقدار ما تسمح به قدراتنا الفردية. لذلك علينا ألا نتأمل في ما قد يكون علينا انجازه بل نستطيع وما علينا القيام به.

هكذا يردنا مستوى الشخصية الماناً واندماجه في الكائن - من خلال الوعي الذي قد نكتسبه - الى أنفسنا كما إلى شيء موجود وحي وعالق بين عالمين، بين صورهما وحقول قواهما، التي تدرك بشكل أوضح رغم أنها غالباً ما كانت تستشعر بشكل غامض.

إن هذا الشيء، وهو نفسنا ككل، غريب وقريب في آن واحد بحيث يبقى مجهولاً لنا. كأنه المركز المضمر لتعقيد غامض بحيث يحق له تبني المتطلبات الأكثر تناقضاً: القرابة مع الحيوانات ومع الآلهة، مع المعادن ومع النجوم، دون أن يثير اندهاشنا أو استنكارنا. هذا الشئ الشهير يتطلب كل ذلك ولا نمتلك في يدنا شيئاً يسمح لنا بمجابهة متطلباته شرعياً، وهي متطلبات يعتبر الاستماع لصوتها مخلصاً.

لقد دعوت مركز الشخصية الشهير هذا «الذات» فكرياً، ليست الذات سوى مفهوم نفساني، بنية عليها ان تعبر عن كينونة تبقى مجهولة لنا، ماهية لم نمنح إمكانية التقاطها لأنها تتجاوز، كما نستشعر من خلال تعريفها، إمكانيات فهمنا. نستطيع أيضاً أن نقول عن الذات إنها «الله فينا» إذ يبدو أن حياتنا النفسية تنبثق منها منذ بداياتها، نحوها وأن كل الأهداف السامية والأخيرة للحياة تميل. إنه تناقض حتمي يقع فيه الإنسان كلّما جهد لان يطو ق بتفكيره شيئاً يتجاوز سعة منطقه.

أتمنى أن يكون القارئ قد شعر بوضوح أن المسافة بين الأنا والذات هي ذاتها بين الشمس والأرض. لايمكننا الخلط بينهما، إلا إذا كان المقصود

تأليه الإنسان وإنزال الله. إن ما يقع وراء منطقنا الإنساني يبقى على أية حال عصياً عليه.

لذلك نصوغ، إذا استخدمنا فكرة الله، معطى نفسانياً وهو الاستقلالية والتلقائية والطابع الغالب والمسيطر لبعض المحتويات النفسية التي تعبر عن نفسها من خلال قدرتها على التصدي للإرادة وغزو ومحاصرة الوعي والتأثير على أمزجته وأفعاله. بالتأكيد نستنكر فكرة أن تكون شائعة غير مفهومة أو اضطراباً عصبياً أو عيب لا ينضبط هي بشكل ما تجلياً لله. ولكنها خسارة لا تعوض للتجربة الدينية أن تفصل هذه السيئات، المؤلمة بشدة أحياناً، عن المحتويات النفسية والتلقائية الأخرى بشكل مصطنع. إن التخلص من بعض الظواهر باعلان انها ليست إلا... هي تورية تجميلة. ونحن بذلك نكبتها مما ما يقدم لنا عموماً، فائدة خداعة وتغييراً بسيطاً في الوهم. إن الكبت لا يغني الشخصية أبداً، على العكس إنه يفقرها ويدفنها: وهو يبدو لتجربة اليوم ومعارفه محزناً أو على الأقل مجرداً من القيمة يصبح في مستوى أعلى من التجربة والمعرفة مصدراً للأفضل. بالطبع يتعلق كل شئ بالطريقة التي يستخدم فيها كل فرد شياطينه المألوفة.

أن نقول ببساطة أن هذه الأخيرة مجردة من المعنى أو بأنها مضللة يعني حرمان الشخصية من الظل الذي يعود لها. ولكن انكار جزئها المظلم يدمر شكل شخصية بكاملها. يتطلب كل شكل حي ظلاً كثيفاً لكي يكون مطوعاً. بدون ظل، يصبح الشكل مجرد شبح أو سراب ذي بعدين، وفي أفضل الحالات طفلاً جيد التربية أكثر أو أقل.

وفي هذا إشارة إلى مسألة أثقل لا يمكن التعبير عنها ببضع كلمات: من الناحية النفسية مازالت الانسانية في جزئها الأكبر في حالة طفولة. بالتأكيد لا يجب تورية هذه المرحلة الرئيسية من التطور. مازالت الغالبية

العظمى من رجال أيامنا بحاجة لسلطة وموجهات وقوانين. وهو أمر لا يجب اغفاله.

لقد تجاوز القديس بولس مستوى الشريعة بالتأكيد. وهو مالن يكتسبه ولن يصلح إلا لهؤلاء الذين يستطيعون أن يفهموا ويؤسسوا النفس وحياتها في موضع ومكان الوعي الأخلاقي والخوف من الشرطي. والحال أن القادرين على ذلك قلة قليلة. كثيرون هم المنادى عليهم وقلة هم المنتخبون. يجب أن نشير أيضاً إلى أن المنتخبين القلائل يتبعون هذا الدرب مدفوعين ومجبرين داخلياً، حتى لا نقول بالضرورة، لأن هذا الدرب ضيق كحد النصل.

إن التصور الذي نرى الله من خلاله كمحتوى نفسي تلقائي يحيل الله إلي المستوى الأخلاقي، ويجب الاعتراف بأن هذه الطريقة في مقاربة الأمور غير مناسبة. ومع ذلك، لو لم توجد هذه الإشكالية، لما كان لله أي نقطة تدخل في حياتنا، ولما كان الله حقيقياً تماماً، ولكان مجرد فزاعة تصورية وتاريخية أو موضع عاطفة فلسفية.

وعلى العكس، إذا تركنا فكرة الالهي جانباً، وتحدثنا عن محتويات تلقائية فقط، انغلقنا في موقف من التصحيح فكري ومن الخبرية، ساترين انطباعاً ومعطى لا يجب أن يغيب نفسانياً. لإننا إذا استعدنا تمثيل الإلهي، عبرنا بحق وملاءمة عن الصورة الخاصة الجادة والتي لا نستطيع إلا أن نحياها ونستشعر فعاليات المحتويات التلقائية.

يمكننا أيضاً استخدام عبارة شيطاني إذا كانت لا تعني احتفاظنا لأنفسنا، في مكان ما، بإله مجسد تماماً مع رغباتنا وتمنياتنا. ولكن ألاعيب الخفة الفكرية غير فعالة لدرجة أن تخلق من كل قطعة وتسجل في الحقيقة كائناً علوياً يتطابق مع رغباتنا مثلما لا تستطيع ان تجعل العالم كما نتخيله.

نحيط بالحقيقة عن قرب إذا وصفنا تأثيرات المحتويات التلقائية بعبارة إلهية معترفين بفوقيتها النسبية. وهي الفوقية التي أجبرت الرجال دائماً على اختراع الأشياء الأبعد عن التوقع وتكبد أسوأ العذابات من أجل احتساب جيد لتأثيرات المحتويات التلقائية. إن قدرتها لا تقل حقيقة عن الجوع والخوف والموت.

يمكن أن نصف الذات بأنها نوع من المعاوضة للصراع الذي يضع العالمين الداخلي والخارجي في مواجهة. وتبدي هذه الصيغة مفاتنها كلما امتلكت الذات بفضلها طابع نتيجة أو هدفاً تم بلوغه، أو شيئاً تجمع تدريجياً ولانستطيع اختباره إلا ببذل الكثير من الجهود والآلام. فالذات هي أيضاً هدف الحياة لانها التعبير الأكثر اكتمالاً لترتيبات القدر التي ندعوها فرداً؛ وليست هدف الحياة لكائن فردي فقط وإنما لمجموعة يكمل أحد أعضائها الآخر من أجل صورة ونتيجة أكثر اكتمالاً.

عندما نتوصل إلى ادراك الذات كشيئ لا عقلي، هو مع بقائه غير قابل للتحديد، لا تعترض عليه الأنا ولا تخضع له، وإنما ترتبط به وتدور حوله مثلما تدور الأرض حول الشمس، نكون قد بلغنا هدف التفرد.

أستخدم عن قصد عبارة إدراك الذات من أجل التشديد على حساسية العلاقة بين الأنا والذات. لن نتوصل إلى معرفة المزيد بهذا الخصوص لأننا لا نستطيع أن نقول شيئاً عن محتويات الذات على الإطلاق. إن الأنا هي محتوى الذات الوحيد الذي نستطيع معرفته. تشعر الأنا التي أنجزت تفردها أي الأنا المتفردة، كأن شخصاً مجهولاً يحيط بها. يبدو لي؟ أن امكانيات التحقق النفسانية تصل هنا إلى نهايتها القصوى، لأن فكرة الذات هي أصلاً مصادرة متسامية بحد ذاتها، مشروعة نفسانياً ولكنها تفلت من كل محاولة لإثبات علمي.

إن تجاوز ما هو معروف ومكتسب على الصعيد العلمي ضرورة مطلقة

في الحقل الذي يشغلنا، أي في التطور النفساني الذي أحاول وصفه. لأنه من دون هذه المصادرة الجديدة للذات، لا أدري حقيقة كيف نستطيع أن نصيغ، ولو بصورة تقريبية، الصيرورات النفسية التي تحدث والتي يجب أن نتحقق منها خبرياً.

تتطلب الذات إذاً أن نأخذها بعين الاعتبار وأن نمنحها على الأقل قيمة فرضية، مثلما نفعل مع الذرة التي تفيدنا حول بنية المادة. ولكنني أعي إمكانية أن نبقى سجناء صورة بإطلاقنا هذه الفرضية؛ ولكن حتى لو كان الأمر كذلك فهذه الصورة هي لكمون حي كلي القدرة، وقد جهدت لوصفه. وكان تأويله في السابق يفوق امكانياتي بكل الأحوال. مع موازنة الأمور، لا شك أبداً بأن الأمر يتعلق بصورة. ولكنها صورة ضرورية بحيث تحيط بنا وتحتوينا.

أعي تماماً بأنني تطلبت من قرائي في الكتاب تفهّماً يتجاوز الاعتيادي بكثير. بالتأكيد جهدت في كل لحظة لتمهيد الطريق أمامهم؛ ولكن هناك صعوبة لم أستطع أن أجنبهم إياها وهي تقوم على واقع أن التجارب التي يستند إليها عرضي كانت مجهولة من معظمهم وبالنتيجة فريدة وغريبة. لا أنتظر منهم إذاً أن يقبلوا كل استنتاجاتي دون محاكمة.

على الرغم من أن كل كاتب يسر لتفهم جمهوره، فقد اهتممت هنا بجذب الانتباه إلى حقل واسع من التجارب أكثر من الاهتمام برؤية ملاحظاتي مفهومة ومؤولة جيداً بتفاصيلها. كان الهدف من هذا الكتاب فتح هذا المجال الواسع أمام العديد من العقول. لأن البحث عن حلول للعديد من الألغاز، التي لا يستطيع علم نفس الوعي أن يقاربها وحده، يجب أن يتم في هذا المجال الذي مازال غامضاً.

لا أدعي أبداً أنني قدمت أجوبة أو صيغاً نهائية، على أية حال أعتبرني راضياً تماماً عن مجهود بدأ تلمساً من أجل الاقتراب من إجابة.

الحواشي:

1 ـ المانا: بولينيزية كلمة بولينيزية تعني القوة تشير إلى القوة الخفية التي تعتقد بعض الديانات البدائية أنها تحرك وتمنح الإنسان كل الملكات الطبيعية وللطبيعة طرقها الاعتيادية... ولكن هذه القوة مع كونها ترتبط بشخص يوجهها وبشكل خاص أرواح الموتى وبعض الأشخاص ذوي الحظوة. وقد استخدم هذه الكلمة لأول مرة كوردينتون R.H. Cordington الذي كتب عنها لاستاذه ماكس موللر Max Muller المتوفي عام 1900. وقد تحدث عنها فيما بعد عدد كبير من الأنتربولوجيين والاثنولوجيين على اعتبار أنها تشير إلى الدينامية الحاضرة في المون والتي تعزى أحياناً لكائنات فوق طبيعية تحدث بحسب الأحوال تأثيرات نافعة أو ضارة. أما يونغ فيرى فيها درجة أولية من مفهومنا عن الطاقة الشمسية وربما لمفهومنا عن الطاقة عموماً. (م).

2 ـ الغرال: Le Graal، الكأس المقدسة، هو الكأس الذي استخدمه السيد المسيح أثناء العشاء الأخير وقد جمع فيه يوسف الأريماتي قطرات من دم المسيح عندما طعنه أحد ضباط الجيش الروماني في خاصرته. وقد ظهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر عدة روايات تتحدث عن بحث فرسان الملك آرثر عن الكأس المقدسة.

3 ـ الأم الكبرى وتسمى أيضاً المادة الأولية أو الأم الأرض الكبرى أو الأرض الأم، وأحياناً الآلهة الكبرى أو الآلهة الأم وهي غيبا أو ديميتر بشكل خاص.

وقد خصص يونغ دراسة لهذا النموذج البدئي «المظاهر النفسانية للنموذج البدئي للأم» و«كتابه جذور الوعي» مذكور سابقاً Les Racines de la Conscience

ويمكن أيضاً الرجوع إلى الكتب التالية:

C.G.Jung et ch Kereny, introduction a l'ssence de la mythologie مذكور سابقاً.

C.G.Jung Psychologie et alchimie - Mircea Eliade, Traite d'historie des religions, Payot, paris, 2edition 1935. مذكور سابقاً.

Erich Neumann: Die gross Mutter, Rhein-verlag, Zurich 1958.

4 ـ غوته ـ الأسرار ـ مقطع

5 ـ فاوست ـ الجزء الثاني ـ الفصل الخامس ـ المشهد الرابع.

6 ـ أنظر ليونغ Psychologie et Alchimie, p.37 مذكور سابقاً.

7 - H. Webster, Pri,itive Secret Societies, 1908

La magie dans les societes primitives, Payot, paris 1952.

8 - إيلوزيس مدينة إغريقية تقع شمال غرب أثينا وكانت مركز عبادة هام لديميتر آلهة الزراعة التي تقاسم معها أهميتها فيما بعد ديونيوس إله الكرمة والنبيذ. وساهمت هذه العبادة في إدخال الأسرار خاصة بعد تداخلها مع الأورفية، ومارست تأثيراً دينياً هاماً في اليونان ثم في الإمبراطورية الرومانية. (م).

9 - أنظر ليونغ: Psychologie et Alchimie

Psychologie du Transfert

10 - أنظر ليونغ - «الإنسان يبحث عن نفسه» مذكور سابقاً.

11 - F. R. Lemann, Mana, Leipzig 1929.

12 - بحسب الاعتقاد المسيحي كان الملك المسيحي الملتزم يستطيع مداواة المرضى المصابين بالصرع بأن يضع يده عليهم وذلك بفضل ماناه. (ر.ك).

13 - متى - الاصحاح 22 - 21.

14 - من أجل النص الحرفي لهذه المقاطع يمكن مراجعة متى اصحاح (5 - 39) و(9 - 16) ولوقا اصحاح (61 - 8 و9).

المصطلحات

1 ـ وجدان: Affect
2 ـ عاطفة: Affection
3 ـ اغتراب: Alienation
4 ـ تلقائي: Autonome
5 ـ عيني: Concret
6 ـ تعييني: Concretiste
7 ـ الوعي: Le Conscient
8 ـ تحول: Conversion
9 ـ التذكر الخفي: Cryptomnesie
10 ـ رغبة: Desire
11 ـ حتمية: Determinism
12 ـ تمايز: Differenciation
13 ـ الموجهة: Directive
14 ـ سائدة: Dominante
15 ـ دينامية: Dynamism
16 ـ انفعال: Emotion
17 ـ خبري: Empirique
18 ـ نشوة: Euphorie
19 ـ تجريبي: Experimental

20 - انبساط: Extraversion
21 - تشكيل فلسفي: Elaboration Philosophique
22 - استحضار بدئي: Evocation Primitive
23 - استيهام: Fantasme
24 - تماهي: Identification
25 - المتخيلات: Les Imagines
26 - الإيماجو: Imago
27 - اندفاع: Impulsion
28 - حافز: Motif
29 - عقلي: Mental
30 - طفلية: Infantilite
31 - التثبيط: Inhibition
32 - الثبط: L,inhibe
33 - اللاوعي: Linconseient
34 - مسارزة: Initiation
35 - ضمن - نفسي: Intrapsychique
36 - انطواء: Introversion
37 - تجسيد: Objectivation
38 - وسواس: Obsession
39 - الفردية: Individualite
40 - الفردانية: Individualisme
41 - التفرد: Individuation
42 - الزوران: Paranoia
43 - القناع: Persona
44 - شخص: Personnifier
45 - صيرورة: Processus
46 - اسقاط: Projection

47 ـ دافع: Pulsion

48 ـ مشاركة سرانية: Participation

49 ـ ذهان: Psychose

50 ـ نكوص: Regression

51 ـ الكبت: Refoulement

52 ـ تحقيق الذات: Realisation du Sol

53 ـ مسرنم: Sommenbulation

54 ـ تحت عتبة الوعي: Subliminal

55 ـ الإيحاء: Suggetion

56 ـ التحويل: Transfer

57 ـ الصدمة: Trauma

جدلية الأنا واللاوعي

يدرس يونغ في هذا الكتاب التفرّدَ وتأثيرات اللاوعي في الوعي. ومن أجل ذلك بحث فيما بين اللاوعي الفردي واللاوعي الجماعي، وفي نتائج تمثل اللاوعي، والعنصر المكوّن للنفس الجماعية، ومحاولة استخراج وتحرير الفردية من النفس الجماعية. كما بحث في وظيفة اللاوعي وفي تقنيات وتمايز الأنا عن صور اللاوعي...

ولأن الفلسفة الشرقية تهتم بالصيرورات الضمن نفسية منذ قرون، فإن المؤلف يقترح متابعة دراسته لشخصية (المانا) في هذا الكتاب عبر كتابه الآخر «سرّ الزهرة الذهبية» الذي ألّفه بالاشتراك مع ريتشارد ويلهلم ونشرته دار الحوار تحت عنوان «القوى الروحية وعلم النفس التحليلي». وقد أصدرت دار الحوار ليونغ أيضاً كتبه التالية:

* علم النفس التحليلي
* الإله اليهودي
* البنية النفسية عند الإنسان

دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية ـ اللاذقية ـ ص ب 1018 ـ هاتف 422339